[redacted]

المرسلون البولسيون .

[redacted] الاتحاد

CA
270.3
[redacted]

26 MAY 1986

Jan 10 58
Jan 24 '58
[redacted]
FEB 1 60
JUN 2 61
NOV 13 62

11 JUN 1986

Jafet Library
[redacted] MAR 1995
Jafet Library
[redacted] MAR 1995
6 Apr
Jafet Library
[redacted] MAR 1995

الاجتهاد

في سبيل الاتحـــاد

270.3
I259iA
C.1

هدايا المسرة

الذكرى المئوية الخامسة لمجمع فلورنسا

١٤٣٩ — ١٩٣٩

الاجتهاد

في سبيل الاتحاد

وهو بحث في ما حدث

من الانفصال وما بُذِلَ من المساعي لاعادة الاتحاد

بين الكنيستين الشرقية والغربية من القرن التاسع

حتى الآن

للمرسلين البولسيين

مطبعة القديس بولس في حريصا ١٩٣٩

Cat. 7 Mar. '53

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

مقدمة

انّ مجرد الاطلاع على اسم هذا الكتاب وعلى فهرس موادّه يبيّن للقراء الاعزاء موضوعه والداعي الى وضعه والروح الذي وُضع به والغاية التي توخّاها مؤلفوه

أما المبادئ التي جعلوها نصب اعينهم في اثناء قيامهم بهذا العمل فترجع الى اثنين :

اولاً مبدأ لاهوتي، وهو ان فكرة السيد المسيح التي لا شك فيها وارادته الاكيدة انما هما تأسيس كنيسة واحدة . فنحن اذن نعترف بان الايمان يجب ان يكون واحداً، والشريعة الادبية واحدةً، وحياة الاسرار واحدةً، ونظام الكنيسة العامّ واحداً، ومجموع الاسفار المقدسة واحداً . واذا كان في الواقع عدّة كنائس منفصلة بعضها عن بعض، فهذه الحالة هي بلا ريبٍ مخالفةٌ لرغبة السيد المسيح؛ واسبابها اذن بشرية . فهي شرٌّ من الشرور التي تسمح العناية الالهية — لمقاصد لا ندركها بعقلنا البشري القاصر — بان تقترفها حرّية الانسان . فجلّت حكمته تعالى، وهو الذي لا يُحمد على مكروهٍ سواه، هو وحده يستطيع ان يستخرج من الشر خيراً، اي ان يجعل الشرّ نفسه يؤول في النهاية الى خدمة عنايته تعالى وتحقيق تدابيره

ثانياً مبدأ تاريخي، وهو انه في البحث عن الحقيقة في اسباب الانفصال واستمراره بين الكنائس المسيحية يجب النظر الى الحقّ بغير تحيُّز، والتمييز في الحوادث بين ما هو من فعل العناية الالهية وما هو من فعل البشر، وتقدير هذه الحوادث وتلك تقديراً عادلاً، والتأدُّب في التعبير عند الكلام على الغير، والنظر الى دواعي التوحيد اكثر مما الى دواعي التفريق

***

قلنا انه اذا لم يكن للانفصال اسبابٌ الهية وضعية فأسبابه بشريّة . وما دامت الاسباب هي بشرية، فلا يمكن ان تكون كلها ملقاة على عاتق واحدٍ من المنفصلين دون الآخر . فكلٌّ من الشرق والغرب يحمل عبئه منها . وقد قال

اخيراً احد الكتاب الكبار من الكاثوليك العصريين في فرنسا[1]: « تعلن الكنيسة انها واحدة مقدسة . ولكن كم من النقص والخلل في حياة رؤسائها ! وهذا النقص والخلل يجب على المؤمن ان لا يخفيه عن نفسه، لان الكنيسة لا تحتاج الى الكذب في الدفاع عن الحقيقة، كما قال لاون الثالث عشر . . . فالكنيسة إلهيّةٌ في تأسيسها، إلهيَّةٌ في غايتها التي هي ان تقود الناس الى الله تعالى، إلهيَّةٌ في العون الفائق الطبيعة الذي وُعدَت به؛ ولكنها مؤلَّفة من بشرٍ، وكلهم بلا استثناء خاضعون لاحوال الطبيعة البشرية . فاذا كانت تعلّم ان رئيسها معصوم عن الخطإ في تعليم الدين فهي لا تعلّم انه معصوم عن الخطيئة . واذا كان قد وُجِدَ خائنٌ بين الرسل الاثني عشر انفسهم فيجب ان لا نستغرب وجود بعض الخونة فيما بين جمهور المؤمنين على ممرّ الاجيال حتى فيما بين الرؤساء . ومن ذلك استدلّ بعضهم على الوهيَّة الكنيسة، فقالوا ان « اغلاط البشر مهما كانت فظيعةً في تاريخها لم تمنعها من السير في مهمَّتها في العالم؛ لان ما تناله من الأيد العلوي اقوى من اخطاء البشر »

فهذه الحقائق يجب ان لا تبرح فكر كل مسيحي او فكر القارئ المسيحي

***

وهناك بعض مسائل قد تتبادر الى ذهن القارئ رأينا ان نجيب عليها في مقدمة الكتاب لكي لا نعود اليها مراراً في اثنائه، وهي :

١ — لماذا بَدأَ الكتابُ بذكر الانفصال الذي وقع في القرن التاسع ولم يذكر شيئاً عن العهد السابق ؟

والجواب عن ذلك هو انه في القرون الاولى السابقة لعهد فوتيوس قد وقعت بعض انفصالات عن الكنيسة الجامعة، اهمها انفصال الاريوسيين (الذين تلاشى مذهبهم) والنساطرة والذين انفصلوا عقب المجمع الخلقيدوني وألَّفوا لهم كنائس وطنية . ولكن كنيسة الشرق الكبرى، كنيسة الروم او الكنيسة البيزنطية التي تضمّ سائر الشرقيين والمنتشرة في كل اقاليمه، لم تنفصل عن كنيسة رومة مركز الوحدة، بل كانت متفقة معها نظريًّا وعمليًّا . وكانت تقول معها ان السيد المسيح لم يؤسس على الارض الا

(١) هو جان غيرو Jean Guiraud في نبذة نشرها بتاريخ ١٧ تموز سنة ١٩٣٩ في جريدة « لاكروا » La Croix بشأن كتاب تاريخ الكنيسة الذي وضعه السيد ليسور Lesourd

كنيسة واحدة، وانه تعالى جعل الرسل وخلفاءهم رؤساء في هذه الكنيسة ليعلموها ويسوسوها، وجعل باقي المؤمنين به مرؤوسين لهم، وانه اقام من بين هؤلاء الرؤساء رئيساً اعلى عليهم هو القديس بطرس وخلفاؤه . ولم يكن خلفاء بطرس على كرسي رومة الرسولي يمارسون حينئذٍ سلطتهم على الوجه الذي يمارسونها به اليوم في التفاصيل؛ ولكنها كانت من الامور المسلم بها في المسائل الجوهرية

فلذلك صرفنا النظر عن البحث في تاريخ ذلك العهد . فمثل هذا البحث يمكن بوجه الاجمال الاستغناء عنه في كتابٍ موضوعُهُ الانفصال والاتحاد بين كنيستي رومة والقسطنطينية

٢ — يطلبون الاتحاد بين المنفصلين منذ قرونٍ بعيدة . فما شروطه ؟

فيما يختص بكنائسنا الشرقية، قد تكوّنت بعض مبادئ اصبحت قواعد ثابتة في تنظيم علاقاتها الاتحادية بكرسي رومة الرسولي . وهذه المبادئ هي : احترام ما يوجد من الطقوس المتنوعة والعوائد المتباينة المشروعة؛ واتفاق على بعض شروط عامّة قد نُصَّ عليها في كل وثائق الاتحاد بشأن تحديد الاستقلال في الادارة الكنسية ونحوها؛ وتصريحاتٌ احتفالية من الباباوات وتعليمات رسمية اصدروها في احوال مختلفة . هذه المبادئ او القواعد الاساسية هي التي يجب التعويل عليها، بصرف النظر عن المخالفات التي يأتيها بعضهم والتي لا بدّ من زوالها . ويمكننا ان نلخّص ذلك بقولنا مع البابا بندكتس الخامس عشر : « ان كنيسة المسيح، بما انها ليست لاتينية ولا يونانية ولا صقلبية بل كاثوليكية (اي جامعة)، لا تجعل تمييزاً بين بنيها . وهؤلاء الابناء، سواء كانوا من الروم ام من اللاتين ام من الصقالبة ام من أيّ أمّةٍ اخرى، يشغلون جميعهم مركزاً واحداً في نظر الكرسي الرسولي »

٣ — اليوم وقد اضحت كنيسة القسطنطينية من اصغر الكنائس الارثوذكسية، لماذا إعطاؤها اهميةً خاصةً في ابحاث هذا الكتاب ؟

عن هذا الاستفهام نجيب ان الحدث التاريخي العظيم الذي نُحْيي ذكراه في هذا الكتاب، اعني مجمع فلورنسا، كان مبدئيًّا مجمع الاتحاد بين كنيستي رومة والقسطنطينية . وهما اللتان تولّتا فيه المفاوضة والمناقشة والاتفاق . واذا كانت الكنائس البيزنطية اليوم لا تعترف كلها بزعامة الكرسي القسطنطيني، فالامر لم يكن كذلك في القرن

الخامس عشر عندما التأم المجمع . فمما لا شكَّ فيه انهم كانوا كلهم حينئذٍ يسيرون وراءها، حتى البطريركيات والكنائس التي كان لها ممثّلون خصوصيون في المجمع، وقد ورثوا كلهم عنها الانفصال مرةً اخرى بعده . وكانت قدوةً للكنائس الشرقية الاخرى التي يعود تاريخ انفصالها الى القرون السابقة، اعني السريان والاقباط والارمن والنساطرة؛ فان اتحاد الكرسي القسطنطيني مع رومة حمل هذه الكنائس على الاتحاد هي ايضاً، وانفصاله عقب المجمع حملها على الانفصال كذلك . فهذا الدور التاريخي الكبير الذي مثّلته القسطنطينية، والاحترام الذي لا تزال تحيطها به سائر الكنائس، يكفي لتفسير الاهمية التي يجب ان تُعطى للكرسي القسطنطيني في بحث فصول الانشقاق والاتحاد

على اننا لم نهمل مع ذلك دراسة الموضوع فيما يختصّ بأهمّ الكنائس الاخرى ولاسيما البطريركيات الشرقية، اعني الاسكندرية وانطاكية واورشليم، كما سيراه القارئ في حينه ومحلّه

اللهم اجعل العقولَ تتحد في الحقّ، والقلوبَ في المحبّة . آمين

حريصا في ٢ شباط سنة ١٩٤٠، عيد دخول السيد الى الهيكل

المسيح الملك

موزاييك الباب الملوكي في كنيسة آجيا صوفيا بالقسطنطينية (المسيح يبارك باليمين، ماسكاً بالشمال الانجيل مفتوحاً عند قوله « انا نور العالم . سلامي اعطيكم » . والى يمينه صورة السيدة والدة الاله تمثّل السلام، والى يسارهِ صورة رئيس الملائكة ميخائيل تمثّل النور . وعند قدميه ملكٌ من ملوك القسطنطينية ساجداً الى الارض . — هذه الصورة هي من القرن التاسع او العاشر)

القديسان

كيرلس

ومثوديوس

الرسولان البيزنطيان اللذان هدَيا الصقالبة الى الدين المسيحي في القرن التاسع ، واخترعا لهم الحروف الهجائية الملائمة ، وترجما الكتب المقدسة والطقسية الى لغتهم

رهبان قسطنطينيون في القرن التاسع

رسم مصوَّر على مجموعة تآليف القديس غريغوريوس المحفوظة في المكتبة الامبروسيّة في ميلانو

الفصل الاول

في حقيقة الانشقاق الذي حصل في عهد فوتيوس

كثر الخلاف بين المؤرخين في هذه المسألة . فرأينا ان افضل تلخيص لها هو المحاضرة التي القاهـا حضرة الاب دفورنيك[1] في جمعية القديس يوحنا فم الذهب في لندن[2]، في شهر تموز (يوليو) سنة ١٩٣٨ بداعي مرور ٩٥٠ سنـة على عماد القديس ڤلاديمير شفيع روسيا؛ ثم نشرتها « مجلة الكنائس الشرقية » The Eastern Churches Quarterly[3] في جزئها السابع من سنتها الثالثة (تموز سنة ١٩٣٩) . وهاك تعريبها :

رومة والقسطنطينية في القرن التاسع

اهميَّة المسألة

ان مسألة العلاقات بين رومة والقسطنطينية في القرنين التاسع والعاشر لها اهمية كبيرة جداً في نظر كل من له اهتمام بالعمل عـلى اعادة الاتحاد بين الكنائس . فاذا امكننا ان نثبت ان العلاقات بين الكنيستين الشرقية والغربية كانت حسنة مدة القرن العاشر، استنتجنا ان الكنيسة الروسية التي كانت حينئذٍ حديثة العهد في

---

(١) الاب ف . دفورنيك L'Abbé Fr. Dvornik استاذ في جامعـة كرلس الرابع في براها او براغ، عاصمة بلاد التشيك او بوهيميا . وهو اليوم من اشهر علماء التاريخ البيزنطي في العالم، وله ابحاث عظيمة الشأن ومؤلفات عديدة في المواضيع المتعلقة بمملكة الروم الشرقية ولاسيما حوادث القرنين التاسع والعاشر ؛ وقد كشف النقاب عن كثير من اسرار التاريخ وشق الطريق لايضاحات جديدة ايضاً

(٢) هي جمعية مؤسسة في لندن تحت رعاية رئيس اساقفة وستمنستر لاجل الصلاة على نية اتحاد الكنائس ولاسيما الكنائس الشرقية ، والعمل على ازالة سوء التفاهم ، ودراسة الليترجيات الشرقية، والابحاث الاسلامية

(٣) يصدر هذه المجلة الرهبان البندكتيون الانكليز بدير القديس اوغستينس ببلـدة رَمسغيت St. Augustine's Abbey, Ramsgate

النصرانية اتحدت مع الكنيسة الغربية بواسطة امها الكنيسة البيزنطية مدة تتجاوز على الاقل نصف قرن

ان آراء المؤرخين واللاهوتيين الكاثوليك منقسمة في هـذا الشأن؛ وسوادهم يميلون الى الاعتقـاد بان كلا الكنيستين كانتا تعيشان منذ اواخر القرن التاسع في حالة انفصال مستمرّة تقريباً . والاختلافات بـين الكنيستين كانت تزداد ظهوراً اكثر فاكثر، بحيث ان الانفصال الكبير عندما تمّ سنة ١٠٥٤، قد اعتُبر كأنه النتيجة المنطقية اللازمـة لحالةٍ اصبحت لا تطاق . وكان البادئ بهذه الحركة البطريرك فوتيوس، وكانت شخصيته ونشاطه عاملاً كبيراً في تطوّر هذا الانشقاق الشرقي . فأخذنا على نفسنا ان نفحص ونغربل هـذه المسائل لكي نعرف هل نستطيع اليوم ان نقبل الحلّ الذي كانوا يعتبرونه بوجه الاجمال الاقرب الى الحقيقة . وقد خصّصتُ وقتي منذ عدة سنين لدراسة تاريخ الكنيسة البيزنطية، ولاسيما تاريخ القرن التاسع الذي حصل فيه الانفصال الاول بـين الشرق والغرب بسبب انتخاب فوتيوس لكرسي بيزنطية البطريركي . وها انا ذا اعرض هنا النتـائج المهمة الاولى لابحاثي

الرأي السائد بين الكاثوليك

لا نستطيع طبعاً ان ننكر وجود شقاق بـين الكنيستين في القرن التاسع . وبحسب ما كان يُعتقَد حتى الآن كان سبب هذا الشقاق، عزل البطريرك اغناطيوس سنة ٨٥٨، وتعيين فوتيوس خليفة له . وكان فوتيوس علمانياً، وقبل جميع الدرجات الكنسية في مدة ستة ايام، واحتفل بالليترجيا الالهية بصفة كونه بطريركاً في ٢٥ كانون الاول في كنيسة آجيا صوفيا . ولهـذا يصف المؤرخون الغربيون انتخاب فوتيوس بانه عمل من اكبر اعمـال الظلم، وتدخّل استبدادي من الملك ميخائيل الثالث في دائرة الديانة . ويعتقدون ان اغناطيوس، برغم ما ناله من سوء المعاملة وجرّه من منفى الى آخر، قـد استمرّ رافضاً ان يستقيل، فيما كان اعوانه يقاومون بشدة ما يسمّونه « اغتصاب فوتيوس » . ويقولون ايضاً ان فوتيوس بعدما حاول عبثاً ان يحمل رومة على الاعتراف به، غشّ مندوبي البـابا ورشاهم، وبمساعدتهم حكم على خصمه؛ فلأجل هذا الاثم عزله البابا نقولا الاول وحرمه سنة ٨٦٣؛

وحينئذٍ بدأ كفاحه العظيم لرومة . فانتصر بمساعدة الملك ميخائيل الثالث؛ ولكن انتصاره كان قصير الامد؛ لان مقتل هـذا الملك بيد باسيليوس الاول الذي صار ملكاً بدله أنذر بأفول سعد فوتيوس؛ فعزله الملك الجديد . وبعد ذلك حكم عليه المجمع المنعقد سنة ٨٦٩ـ٨٧٠ المعروف بالمجمع الثامن المسكوني

نتيجة الابحاث الجديدة

فكذا يروي اولئك المؤرخون مـا يزعمون انه « الانشقاق الفوتي الاول » . لكن هـذه الرواية تحتاج الى تصحيح في بعض مواضع خطيرة، لان العلماء الذين درسوا تاريخ تلك الحقبة قـد أهملوا بوجه العموم الرجوع الى الاصول البيزنطية . ولكن المحدَثين منهم، كالمؤرخ الانكليزي المستر بوري Mr. Bury لفتوا النظر الى ان تلك الرواية مبنية على معلومات آتية من جهةٍ واحدة هي الجهة التي تدافع عن وجهة نظر الحزب الاغناطي الشديد العداء لفوتيوس . فجريتُ على اثر هذا العالم الكبير في البيزنطيات، واخضعت كل تلك الاصول للفحص الانتقادي، وقابلتها ببعض الوثائق التي اكتُشفت اخيراً ولم يكن للعلماء الآخرين علم بها . فاظهر هذا البحث ان اغناطيوس لم يعزله ميخائيل الثالث استبداداً، بل انـه هو ذاته قدَّم استقالته بناءً على طلب الملك، وان فوتيوس لم يعيّنه الملك، بل صـار انتخابه في مجمع محلي خاص من كنيسة القسطنطينية طبقاً للحق القانوني الشرقي، وقد اعترف به جميع الاساقفة كبطريرك شرعي، ومنهم الذين كانوا اشدّ تحزباً لاغناطيوس، واغناطيوس نفسه

الاحزاب السياسية والكرسي البطريركي

واما السبب الحقيقي للخلاف بين البطريرك اغناطيوس والملك ميخائيل الثالث فلم يكن دينياً، كما كان ولا يزال يُعتقَد في الغالب، بل سياسياً . فقـد كان دائماً في المملكة البيزنطية مذهبان مختلفان في الرأي يمكن تشبيههما بما نسميه عندنا اليوم الاحزاب السياسية؛ ونستطيع ان نسمي احـدهما مذهب او حزب المحافظين، والآخر مذهب او حزب الاحرار . ولا يجب ان نفهم هـذه الالفاظ على حسب معناها الدارج في الاصطلاح الانكليزي، بل بالاحرى على حسب ما كانت تُفهَم في السياسة الاوربية قبل الحرب . وكان بـين الحزبين منازعة شديدة مستمرّة

للتسلط على الدولة وللتسلط على الكنيسة ايضاً . وكانت الملكة ثاودورة امّ ميخائيل الثالث مساعدة لحزب المحافظين، فيما كان اخوها برداس احد حرّاس ابنها يأمل ان يُبعد اخته بمساعدة الاحرار، وان يحكم الدولة كوزير اول للملك ميخائيل ؛ وقد نجح في مسعاه . وكان الحزبان المتطاحنان يستعملان للوصول الى غايتهما الاساليب التي كانت شائعة في الشرق، اي القتل والثورة . فقُتل الوزير الاول للملكة ثاودورة، وكان هو نفسه يتآمر على قتل برداس . وعُزلت ثاودورة ايضاً على اثر ثورة غير دموية في القصر الملكي . وحينئذٍ ظنّ البطريرك اغناطيوس، وهو ميّال الى المحافظين، انه يجب عليه ان يُنزل القصاصات الكنسية ببرداس الذي كان الشخص الاكثر بروزاً بين رجال الحكم الجديد، وذلك لكي يجعل حياة ثاودورة التقية في امان . فاعتبر المحافظون تدخّله كتشجيع لسياستهم، وهو اعتبار في غير محله . بيد انه اجتناباً لوقوع النزاع بين الدولة والكنيسة قدّم اغناطيوس استقالته بناءً على رأي الاساقفة؛ وانتُخب فوتيوس عوضه كترضية للفريقين . ولكن النزاع لسوء الحظ لم يخمد، بل قد تجدّد، اثاره الاعوان الكنسيون لحزب المحافظين زاعمين ان البطريرك الجديد لم يكن محايداً قط ، بل يميل الى حزب الحكومة والاحرار . وعندئذ تدخّل البابا نقولا الاول . فرأى مندوبوه ان الحالة اكثر تعقداً مما كانت تبدو لاول وهلة، وانحازوا الى جانب الحكومة وفوتيوس، مؤملين ان البابا سيقبل رأيهم عندما يشرحون له الحالة حين عودتهم الى رومة . ولكن قد هبّت رياح معاكسة وبدّدت آمالهم . فان الراهب ثاوغنوسطس، الذي كان من اظهر الشخصيات بين اتباع اغناطيوس، كان قد سبقهم، اذ هرب من القسطنطينية وقدّم للكرسي الرسولي احتجاجاً على اعمال مندوبيه ؛ وألحف على البابا في اتخاذ التدابير الشديدة بحق فوتيوس . ويجب ان نقول ان شكاويه هذه المُشرَبة روح البغضاء، هي التي حُفظت للاجيال الآتية وشوّهت وجه الحقيقة، اذ يمكننا ان نرى بوضوح انه قد اظهر كل الموضوع بصورة غير صحيحة . ومع ذلك قد أُصغي اليه، فعُزل فوتيوس وحُرم

على ان ثورة باسيليوس الاول الذي قتل ميخائيل الثالث صديقه والمحسن اليه، قد غيّرت كل شيء . فلما كان اعوان باسيليوس من حزب المحافظين، طُلب الى فوتيوس ان يستقيل، وأُجلس اغناطيوس من جديد على الكرسي البطريركي، وثبّت

المجمع المسكوني الثامن (٨٦٩ – ٨٧٠) قرار الملك الجديد . وهكذا انتهى الشقاق الاول الذي دام من سنة ٨٦٣ الى سنة ٨٦٩ فقط

موت البطريرك اغناطيوس

اما مـا كان يؤمّله البابا من ان البطريرك الجديد وكنيسته يعترفان بكل حقوق الكرسي الرسولي على ما فسّرها البابا نقولا الاول، فكان برقاً خلّباً، اذ ان اغناطيوس قد طرد الكهنة اللاتين من بلغاريا، واستبدل بهم الاكليرس اليوناني . ولما عرفت رومـة ذلك، عالجه البابا يوحنا الثامن بانزال الحرم باغناطيوس، وارسل براءته البابوية مع مندوبيه الى القسطنطينية . لكن اغناطيوس، من حسن حظه، كان قد توفّي قبل وصولهم اليها

وفي الحقيقة كان اغناطيوس رجـلًا قديساً ويستحق الاكرام الذي تحيطه به الكنيستان الشرقية والغربية . وكانت علاقاته بعدوّه فوتيوس قـد تغيّرت قبل وفاته . وعندنا من الاسباب الجدّية ما يحملنا على الاعتقاد بأنهما اصطلحا وتصادقا ايضاً

بطريركية فوتيوس الثانية ومجمع سنة ٨٧٩ – ٨٨٠

وكان من السهل ان يُقبَـل فوتيوس كخليفةٍ لاغناطيوس . ولكن قسماً صغيراً من الحزب الاغناطي رفض قبول ذلك . فتفاهم الملك باسيليوس، نظراً الى الموقف الذي وقفه من مدةٍ بعض الاعضاء من حزب المحافظين، وأضحى الملك سنداً لحزب الاحرار . فطلب فوتيوس من الكرسي الرسولي الاعتراف بانتخابه . ولما كان قد حصل للبابا يوحنا الثامن في علاقاته مع اغناطيوس واتباعه بعض اختبارات سيّئة، اسرع الى انتهاز هذه الفرصة ووافق على عقد مجمع عام في القسطنطينية . وقد التأم هذا المجمع سنة ٨٧٩ – ٨٨٠ . ولدينا النسخة اليونانية فقط من اعماله . امـا النسخة اللاتينية فمفقودة . ولكن سجلات الكرسي الرسولي حفظت النص اللاتيني للرسائل التي كتبها البابا يوحنا الثامن الى فوتيوس والى اباء المجمع . ففيها يطلب يوحنا الثامن الى فوتيوس ان يبرّر نفسه امـام المجمع . فهـذا الطلب وبعض عبارات اخرى مماثلة له ناقصـة في النص اليوناني للرسائل التي تليت في الجلسات . وتحتوي اعمال المجمع ايضاً (التي باليوناني) عـلى قانونٍ، قرّره الآباء الثلاث مئة والثلاثة والثمانون، وصرّحوا فيـه ان المجمع السابق (وهو الذي نعرفه

الآن باسم المجمع المسكوني الثامن) والمتضمّن الحكم على فوتيوس يُلغى، ويجب ان لا يعتبر مجمعاً مسكونياً . ومن هذا التاريخ صارت الكنيسة اليونانية لا تعترف الّا بسبعة مجامع مسكونية

ويظن اللاهوتيون والمؤرخون الغربيون ان اعمال هذا المجمع — كما وصلت الينا في نصها اليوناني، وهو النص الوحيد المعروف — قد زوّرها فوتيوس نفسه، وان البطريرك اليوناني خيّب مرةً اخرى أَمَـل البابا، وان البابا لما وقف على تلاعبه عزله من جديد وحرمه، فبدأ بذلك « الانشقاق الثاني »، وكان اهمّ بكثير من الاول، لانه دام الى نهاية القرن التاسع، ونشر ظلّه على العلاقات بين الكنيستين في القرن العاشر كله . فذلك ما ظنوه

لكننا عندما نبحث الآن في الوثائق التي بنوا عليها حكمهم، نراها في غالب الاحيان يُناقض بعضها بعضاً، ونرى ايضاً ان الاعتقاد بوجود هذا « الانشقاق الفوتي الثاني » المزعوم مبني على تفسير احدى الوثائق تفسيراً غير صحيح . فقد ظهر اليوم انه لم يحصل قط « انشقاق ثانٍ »، وان الصلح بين البابا والبطريرك كان صادقاً، وان فوتيوس لم يُحرَم مرةً اخرى . بل بالعكس، عندما عزله الملك لاون السادس ابن باسيليوس الاول، قام البابا استفان السادس ودافع عنه تجاه الملك، ورفض ان يعترف بخليفته الذي كان اخا الملك نفسه، مـا دام الملك لم يعرض عليه صك الاستقالة الذي وقّعه فوتيوس بخط يده

وفي الواقع قـد حدث انشقاق صغير في نفس كنيسة القسطنطينية، اثاره بعض اتباع اغناطيوس الذين كانوا مصرّين على معارضتهم لفوتيوس . وكثيراً ما حاولوا ان يؤثروا في حكم رومـة ويجرّوا البابا الى جانبهم . لكن الباباوات الذين خلفوا يوحنا الثامن حتى آخر القرن التاسع قـد أَبوا اجابة طلباتهم، وامروهم ان يخضعوا لبطريركهم الشرعي وخلفائه . واستمرت العلاقات حسنة جـدًّا بين الكنيستين الشرقية والغربية طول المدة التي دام فيها هذا الانشقاق اليوناني الداخلي

الادلّة على صحة النسخة اليونانية لاعمال مجمع فوتيوس

فكيف نفسّر اذن ما قام من الصعوبات في وجه العلماء الغربيين بشأن المجمع الذي عقده فوتيوس سنة ٨٧٩ — ٨٨٠ ؟ ان حلّ هذه المعضلة قد وجدناه في ايامنا

هذه . فقد اتاح لي حسن الحظ ان اكتشف آثار الترجمة اللاتينية للنص اليوناني لاعمال المجمع . وهذه الترجمة اللاتينية قد استعملها كاتبان من فقهاء الشرع القانوني في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، وهما الكردينال ديوسديديت (عطاالله) Deusdedit وايفو رئيس اساقفة شرتر . وكلاهما قد استعملا النسخة الاصلية من هذه الترجمة التي كانت مودَعة في محفوظات القصر اللاتراني . فهذه الترجمة اللاتينية مطابقة تمام المطابقة لنص اعمال المجمع اليونانية، وتشتمل ايضاً على القانون الذي الغى المجمع المسكوني الثامن . ورسائل البابا محفوظة هي ايضاً في نفس المجموعة مع الاعمال اليونانية

ومن ثَم ينتج ان فوتيوس لم يزوّر شيئاً قط . وقد عرف البابا يوحنا الثامن ان تغييراً قد أُدخل على رسائله لان فوتيوس ذاته قد شرح له اسباب هذا التغيير، كما نستطيع ان نستنتج ذلك من آخر رسالة كتبها البابا الى فوتيوس. وقد رضي يوحنا الثامن بهذا الشرح، ولو بشيء من الكره، وثبَّت اعمال مجمع فوتيوس مع القانون القاضي بالغاء المجمع المسكوني الثامن . وفي مقابل ذلك قد تنازل له كلّ من الملك والبطريرك عن اشياء مهمة كان يطالب بها

المجمع الثامن (٨٦٩-٨٧٠) ليس مسكونياً

ولكن هناك مسألة اخرى : فاذا كان البابا يوحنا الثامن قد أَلغى المجمع الثامن، فكيف خولف هذا القرار البابوي، وأُدرج هذا المجمع في الكنيسة الغربية بين المجامع المسكونية ؟ هذا امر جزيل الاهمية؛ ولكن حلّه سهلٌ على وجهٍ مرضيٍ جداً . فما يسترعي الانتباه انه ليس في الغرب مؤرخ واحد ولا لاهوتي واحد من القرن التاسع الى القرن الثاني عشر اشار الى هذا المجمع كإلى مجمع مسكوني . وان الديوان الروماني عينه حتى آخر القرن الحادي عشر كان يقبل سبعة مجامع فقط كما تفعل الكنيسة الارثوذكسية، وليس ثمانية . وهناك تصريحات مهمة من البابا مرتينُس الثاني والبابا لاون التاسع يعترفان فيها اعترافاً رسمياً بسبعة مجامع فقط . وهناك اثنان آخران من كبار اللاهوتيين في القرن الحادي عشر، وهما الكردينال همبرت والقديس بطرس داميانس، لا يعرفان الا سبعة مجامع . فكل ذلك يدلّ على ان الكنيسة الغربية قد اعترفت بقرار البابا يوحنا الثامن، وانها

استمرت مـدة قرنين لا تقبل الا سبعة مجامع منذ صدور الامر من السلطة العليا بالغاء المجمع الثامن . والبرهان الاعظم اهميةً لتأييد ذلك يؤخذ من صورة الايمان الرسمية التي كان كل بابا جديد يتلوها عقب انتخابه بحضور الناخبين وجمهور المؤمنين . وكانت هذه الصورة تُكتَب على قطعة من الرقّ يوقّعها البابا بيده، وتوضع على ضريح القديس بطرس، ثم تُحفظ فيما بعد بين محفوظات الكرسي الرسولي . وبقيت هذه العادة التقوية القديمة معمولاً بها لغاية عهد غريغوريوس السابع على الارجح . وفي النصف الاول من القرن الحادي عشر، وضع الديوان البابوي نصًّا جديداً لصورة الايمان المشار اليها يمكننا الآن ان نطّلع عليه في محفوظات الفاتيكان، وفيه نجـد تعداداً للسبعة المجامع المسكونية الاولى فقط التي تعترف بهـا الكنيسة كقاعدةٍ للايمان . وقد صيغ نصّ هذه الفقرة بقالبٍ احتفالي

فكيف حدث بعد ذلك ان المجمع الثامن أُضيف من جديد الى السبعة المجامع الاخرى ؟ ان تفسير ذلك لم يكن سهلًا قبل ان يتوفق العلماء اليه اليوم . فاضافة المجمع الثامن انما هي خطأ خاص، وقع فيه بعض فقهاء الحق القانوني الغربيين في القرنين الحادي عشر والثاني عشر؛ وذلك لانهم وجدوا فيما بـين احكام ذلك المجمع المُلغى قانوناً جزيل الاهمية يمنع تدخل العلمانيين في انتخاب الاساقفة، وكان وجود مثل هذا النص ذا شأن كبيرٍ في عهدٍ كانت الكنيسة تقاوم فيه مقاومةً شديدة رغبةَ الامراء والملوك في تنصيب الاساقفة . فكثيراً ما كان الفقهاء الكنسيون يشيرون الى القانون المذكور : وهكذا قـد اصبح المجمع الثامن من المصادر التي كثر الرجوع اليها، حتى نسوا في النهاية انه قد أُلغيَ؛ وهكذا عاد الى الظهور بين المجامع المسكونية . واول مرة نجد ذكره بعد المجامع السبعة المسكونية، هي في مخطوط لاتيني محفوظ في المتحف البريطـاني يرجع تاريخه الى اواخر القرن الحادي عشر

نتيجة البحث

قد وصلنا الآن الى نهاية ابحاثنا، ونستطيع ان نلخّص النتائج التي وصلنا اليها بعبارات وجيزة . فنقول ان فوتيوس مسؤول عن انشقاق واحد فقط فصَلَ الشرق عن الغرب مدة ست سنوات . ولم يحصل انشقاقٌ آخر بين الكنيستين الى نهاية

القرن التاسع، بل عاشتا بسلام طوال القرن العاشر ايضاً . وقد قال بعض المؤرخين بانشقاقٍ حدث في عهد البطريرك سيزينيوس في نهاية القرن العاشر، ولكن هذا القول خطأٌ وقع فيه بعض مؤرخي القرن السابع عشر، لان القرون الوسطى لم تعرف شيئاً عن هذا الانشقاق المزعوم، بل بعكس ذلك نجد براهين عديدة على حسن العلاقات في تلك المدة بين الشرق والغرب في مخطوطات الحق القانوني اللاتيني التي كُتبت في تلك الاثناء، وفي وثائق اخرى نُشرت ولكنها لسوء الحظ غير معروفة جيداً

لما تنصّرت روسيا كان الشرق والغرب متحدين

عندما طلب القديس ڤلاديمير شفيع روسيا ان يقبل سرَّ العماد، كانت الكنيسة اليونانية متحدة مع الكنيسة اللاتينية . وعليه كانت الكنيسة الروسية العظيمة متحدة مع جميع النصرانية مدة ستين سنة او اكثر . ويلاَحظ ان الانشقاق الذي حصل سنة ١٠٥٤ لم يكن له في العالم المسيحي في ذلك الحين التأثير الذي نظنّ اليوم انه احدثه حينئذٍ : فاني ارى امثلةً كثيرة على استمرار حسن العلاقات بين مؤمني الكنيستين حتى بعد سنة ١٠٥٤، وكانت هذه العلاقات حسنة على الخصوص بين روسيا ورومة في بعض العهود

ولنا الامل ان هذا النور الضئيل الجديد الذي اضاء على الاختلافات التاريخية يُحدث في النهاية تأثيراً طيّباً في حسن العلاقات بين الشرق والغرب المنفصلين، ويساعد على تبديد سوء التفاهم بين الكنيستين، مهيّئاً هكذا الطريق الى اعادة الاتحاد

ف . دڤورنيك

المراجع

ان الكتب التالية هي الابحاث التي سبق للمؤلف وضعها في هذا الموضوع وهي :

١ً « الانشقاق الثاني لفوتيوس » Le second schisme de Photios (Byzantion, vol. VIII, 1933).

٢ً « الانشقاق الاول لفوتيوس » Le premier schisme de Photios (Sofia, 1935. Bullet. de l'Institut Archéologique Bulgare, t. IX).

٣ً « مسألة فوتيوس في المؤلفات اللاتينية في القرون الوسطى » L'affaire de Photios dans la littérature latine du Moyen Age (Prague, 1938. Annales de l'Institut Kondakov, vol. X).

٤ً « هل المجمع الثامن (٨٦٩ — ٨٧٠) مسكونيٌّ ؟ » L'Œcuménicité du huitième concile (869-870). (Bulletin de l'Académie Royale de Belgique, XXIV, 1938).

اما الابحاث العربية الخاصة بهذا الموضوع فقد انفرد فيها حتى الآن حضرة الاب فيلبس نبعة البولسي، واشار فيها الى المراجع الاخرى المعتمدة غير مؤلفات الاب دفورنيك المذكور . راجع مقالاته التالية :

١ً موقف البطريركيات الملكية في معضلة فوتيوس — المسرة، ايار وحزيران سنة ١٩٣٧، ص ٢٧٣ و٣٥٩

٢ً هل زوّر فوتيوس رسائل يوحنا الثامن ؟ — المسرة، تموز سنة ١٩٣٧، ص ٤٣١

٣ً هل عاد فوتيوس الى الكثلكة وهل ثبت عليها ؟

توطئة المسرة، ك ٢ سنة ١٩٣٨، ص ١٦

فوتيوس ويوحنا الثامن ״ شباط ״ ״ ״ ٦٥

فوتيوس وخلفاء يوحنا الثامن ״ اذار ״ ״ ״ ١٤١

سنو فوتيوس الاخيرة ״ نيسان ״ ״ ״ ٢١٥

الفصل الثاني

في البطريرك ميخائيل كيرولاريوس (١٠٤٢-١٠٥٩) والانشقاق الذي حصل في عهده

اهميّة المسألة

ان الانشقاق الذي تلا الحرم الواقع على بطريرك القسطنطينية ميخائيل كيرولاريوس سنة ١٠٥٤ قد فصلَ كنيسة القسطنطينية عن كنيسة رومة فصلًا لا يزال مستمرًا حتى الآن، ويمكن اعتباره غير منقطع، بالرغم من بعض محاولات الاتحاد التي حصلت بعده . ومما يزيد هذا الانشقاق خطراً ان جميع الكنائس البيزنطية تبعته، حتى اصبح الشرق كله تقريباً منفصلًا عن الغرب . فتاريخ ذلك الانفصال المشؤوم يستحق ان يُبحث بعنايةٍ خاصة

حالة النصرانية في ذلك الزمان

١ً مملكة الروم الشرقية

كانت هذه المملكة قد اجتازت عهداً من امجد عهودها تحت حكم ملوكها المعروفين بالمكدونيين (٨٦٧-١٠٥٧)[1] . فانتصاراتها العسكرية الباهرة على العرب في الشرق والجنوب اعادت حدود المملكة الى داخل سوريا، واضحت انطاكية من جديد مسيحيةً، ووصلت فتوحاتهم حتى فلسطين، وأمل الروم حيناً ان يستولوا على القدس وسائر الاماكن المقدسة . ومن جهة الشمال ردّوا غزوات البربر واخضعوهم . ونشروا الثقافة البيزنطية والدين المسيحي بين شعوب اوربا الشرقية ولاسيما الصقالبة، واهمهم الروس الذين تنصروا على عهد اميرهم القديس

---

(١) اعظم هؤلاء الملوك هم : باسيليوس الاول المكدوني مؤسس السلالة (٨٦٧-٨٨٦) . ولاون السادس الحكيم (٨٨٦-٩١٢) . وقسطنطين السابع المولود على البرفير (٩١٢-٩٥٩)، ومعه حكم رومانس الاول ليكابينس (٩١٩-٩٤٤) . رومانس الثاني (٩٥٩-٩٦٣)، ومعه حكم مدةً القائد المظفّر نيكيفورس فوقا (٩٦٣-٩٦٩) وخلفه القائد المظفّر يوحنا زيمسيس الذي يلقبه العرب بالشمشيق (٩٦٩-٩٧٦) . وباسيليوس الثاني قاتل البلغار (٩٧٦-١٠٢٥)

ڤلاديمير (٩٧٢ — ١٠٠٥)؛ فقبل سرّ العماد سنة ٩٨٩ . وقد ذكر بعض المؤرخين ان جمال الطقوس البيزنطية كان من الاسباب التي حملت سفراء الامير ڤلاديمير المذكور على ان يشيروا عليه بالتنصر، لان « مثل هذه المشاهد تفوق الادراك البشري[١] »

زد على ذلك ان الحالة الاقتصادية في المملكة قد بلغت في ذلك الزمان شأوًا عظيماً من التقدم والنجاح، فكانت القسطنطينية المستودَع الكبير لتجارة العالم المتمدن، والمركز العظيم لمختلف الصناعات والفنون، والعاصمة التي بهاؤها يبهر ابصار المسكونة، والنقطة التي تشعّ منها انوار حضارةٍ عجيبة[٢]. وقد نجح الملوك المكدونيون في تدبير مملكتهم الواسعة تدبيراً حكيماً عادلاً، برغم تنوُّع الشعوب المستظلّة تحت رايتهم؛ وذلك بفضل ما اوجدوه فيها من الوحدة، التي بنوها على ثقافةٍ واحدة هي الثقافة اليونانية، وعلى ممارسة ديانة واحدة هي الارثوذكسية الكاثوليكية . كان الملك البيزنطي، الوارث لقياصرة رومة والمكمّل لسياستهم، قد اضحى بعد تنصُّره حارس الايمان والمدافع عنه، والعامل المقتدر على نشره، والذي تكرّسه الكنيسة بطقوس خاصة وتُعدّه لهذه المهمة

وبجانب الملك، البطريرك، بطريرك القسطنطينية . وكان هو ايضاً ذا قدرة عظيمة . واسباب هذه السلطة كثيرة، منها اتساع ولايته التي كانت تشمل جميع المملكة، ومنها المكانة العظيمة التي كانت للديانة في نظام الدولة، وما كان للكنيسة من النفوذ في امور السياسة والاجتماع ومن الاوقاف الغنية واعمال البرّ المختلفة، ومنها العدد الكبير من الرهبان الذين كانوا يخضعون للبطريرك . والقرن العاشر هو الذي تأسس فيه اكثر الاديار واعظمها في المملكة . فلأجل ذلك كله كان نفوذ البطريرك بعيداً؛ وكان الملوك أنفسهم يحسبون حسابه، وكثيراً ما اضطروا الى السير بحسب رغبته

لكن آخري الملوك المكدونيين (من بعد وفاة باسيليوس الثاني سنة ١٠٢٥)

---

(١) راجع في هذا الموضوع الرواية التي نقلها العلامان ديهل ومارسيه في ص ٤٨٤-٤٨٥ من كتابهما : Histoire du Moyen Age, t. III, le Monde Oriental de 395 à 1081, par Ch. Diehl et Geo. Marçais, Paris, 1936.

(٢) راجع في الكتاب المذكور، ص ٤٨٥

كانوا مهملين امور المملكة، او امراء لا شأن لهم يُذكر، او ملكات عاجزات عن ضبط الاحكام . فنشأ عن ذلك ازمة استمرت نصف قرن ودنت بمملكة الروم الى الخراب . ففي سنة ١٠٤٢، تزوجت الملكة زوي (للمرة الثالثة) بقسطنطين التاسع مونوماخس اي المبارز وكان عمرها اذ ذاك ٦٤ سنة واشركته في الملك معها ومع شقيقتها ثاودورة . وقد توفيت زوي سنة ١٠٥٠، ثم توفي قسطنطين التاسع في اوائل سنة ١٠٥٥، ثم توفيت ثاودورة سنة ١٠٥٦ . وفي اثناء هذه المدة الاخيرة، اي سنة ١٠٥٤، وقع الشقاق الكبير الذي احدثه البطريرك ميخائيل كيرولاريوس

٢ً الحالة في الغرب

ماذا كانت الحالة في الغرب في هذه الاثناء، ولاسيما في القرنين العاشر والحادي عشر ؟ قال احد العلماء المعاصرين في تاريخه الكنسي[1]، مشيراً الى الحقبة التي انقضت من اواسط القرن العاشر الى اواسط القرن الحادي عشر : « ان هذه الحقبة من تاريخ الكنيسة، اذا نظرنا اليها من بعض الوجهات، هي التي تدعو بالاكثر الى الخجل . وقد بدأت بجبرية بابا رفعَتْه مطامع اسرته الى مقام البابوية[2]، وانتهت بجبرية بابوَين[3] فرضهما امبراطور المانيا فرضاً على الكنيسة . فان التدخل المتجاوز الحدود، الذي مارسته السلطات المدنية على وجه الاستمرار تقريباً في الامور الدينية، قد عرقل حرية الكنيسة . فكان لا بدّ من ظهور الثمار الطبيعية لمثل هذه الحالة اي السيمونية (المتاجرة بالاشياء المقدسة) وفساد الاخلاق . وقد حاول آل ثاوفيلكتو وماروزي[4] ان يستثمروا الكرسي الرسولي كأنه إقطاعية موروثة في اسرتهما »

على ان الكنيسة لم تُحرَم حتى في هذه الاثناء احباراً صالحين ومصلحين،

(1) Histoire générale de l'Eglise, par Fernand Mourret, professeur d'Histoire au Séminaire de Saint-Sulpice, tome IV (la chrétienté), nouvelle édition, Bloud et Gay, Paris, 1920.

(٢) هو يوحنا الثاني عشر، من ٩٥٥ الى ٩٦٣

(٣) ليون التاسع، من ١٠٤٨ الى ١٠٥٤، وفيكتور الثاني، من ١٠٥٤ الى ١٠٥٧ وكان هذان الحبران صالحين وقد احسنا سياسة الكنيسة؛ ولكن عيبهما في نظر المؤلف المذكور انهما انتُخبا بنفوذ امبراطور المانيا هنري الثالث

(٤) وكلاهما من اكابر الاسر الرومانية

كالراهب الشهير جربرت الذي لبس التاج البابوي واتخذ اسم سلفسترس الثاني من ٩٩٩ الى ١٠٠٣، والقديس لاون التاسع الذي جلس على كرسي بطرس من ١٠٤٩ الى ١٠٥٤، وكاتب اسراره الشهير هلدبراند الذي صار فيما بعد بابا باسم غريغوريوس السابع من ١٠٧٣ الى ١٠٨٥ . ولكن بين هذين الحبرين الاخيرين جلس على العرش الروماني اربعة باباوات شرعيين مرّوا عليه بسرعة، علاوةً على اثنين من المغتصبين غير الشرعيين . وفي الوقت الذي رُشقَ فيه كيرولاريوس بطريرك القسطنطينية بالحرم كان الكرسي الرسولي شاغرًا

فتلك كانت الحالة في رومة . اما في اوربا، فكان الاوّلون من سلالة الملوك الكابيتيين يعملون في باريس على انشاء مملكة فرنسا، بينما كان النرمنديون يستعدون تحت قيادة وليم او غليوم الفاتح لغزو بلاد الانكليز؛ وفي المانيا كان الملك هنري الثالث قد تتوّج امبراطوراً واخذ يعمل على استعباد الكرسي الرسولي والكنيسة، مما نشأ عنه الكفاح الشديد المعروف في التاريخ « بالنزاع بين الاكليرس والملوك » والذي بلغ اشدّه في عهد البابا غريغوريوس السابع والامبراطور هنري الرابع

٣ً الحالة في سائر البلاد

كانت الدولة الاسلامية العربية في ذلك الزمان قد خُضدَت شوكتها . فالخلفاء العباسيون في بغداد اضحوا تحت سلطة مواليهم وحلفائهم الاتراك السلجوقيين . ذلك ان الخليفة القائم بامر الله اراد ان يتخلص من بني بويه الايرانيين الذين كانوا حاكمين باسمه فدعا السلجوقيين لمعاونته عليهم . فاسرع طغرول بك سنة ١٠٥٥ الى انقاذ الخليفة، ولكنه استولى على السلطان بدلاً من بني بويه؛ وفرض وصايته على الخليفة . ثم حارب باسمه جيوش الروم في اسيا الصغرى . وقد خلفه ألب ارسلان سنة ١٠٦٣؛ وحارب الروم هو ايضاً وانتصر عليهم في موقعة منزيكرت او ملازكرد سنة ١٠٧١، وكانت هذه الغلبة الانذار الاول بقرب خراب المملكة البيزنطية . فبها قد دخل الاتراك اراضي تلك المملكة ولم يخرجوا منها قط بعد ذلك، بل ما زالوا يوطّدون فيها مركزهم . اذ تبع العثمانيون السلجوقيين اليها وثبّتوا اقدامهم في البلاد وانشأوا لهم أمارات واسعة . ومن بعدما كان الباباوات يلتمسون في الماضي حماية ملوك القسطنطينية من غزوات المسلمين

المغاربة، صار ملوك القسطنطينية يلتمسون من البابا المساعدة على محاربة المسلمين الاتراك . واول مسعى في هذا السبيل كان من قبل الملك ميخائيل السابع الى البابا غريغوريوس السابع سنة ١٠٧٣ . ثم جُدّد هذا النداء في عهد البابا أوربانس الثاني الذي نادى بالحرب الصليبية الاولى سنة ١٠٩٢ . على ان نداء الشرق المسيحي الى الغرب المسيحي لانقاذه من ضغط الاتراك قد توالى على ممرّ الاجيال حتى الى ما بعد سقوط القسطنطينية في قبضتهم

في ذلك الزمان كانت جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا لا تزال من البلاد الداخلة في نطاق « المسكونة » اي المملكة البيزنطية . ففي اواسط القرن الحادي عشر جاء الغزاة النرمنديون من شمال اوربا وفتحوا تلك الاقاليم واستخلصوها من ايدي الروم الذين كانوا وقتئذٍ قد اصبحوا عاجزين عن الدفاع عنها وعن سائر السواحل الايطالية تجاه غزوات المسلمين المغاربة . ومن ذلك الحين عملت سياسة النرمنديين على اذلال الروم وفتح بلادهم؛ وقد اجتهدوا ان يجرّوا الباباوات في تيّارهم، واتفق انهم نجحوا احياناً في ذلك . ولكن، في الوقت الذي حدثت فيه مسألة ميخائيل كيرولاريوس كان البابا حليفاً للروم البيزنطيين في محاربة النرمنديين؛ وقد وقع مدةً طويلة في اسر هؤلاء . والمحالفة المذكورة كانت بلا شكٍّ اهم الاسباب التي حملت الملك قسطنطين التاسع المبارز على مساعدة مندوبي الكرسي الرسولي في اثناء وجودهم في القسطنطينية بقصد حَسْم الخلاف مع كيرولاريوس

علاقات الكنيستين في ذلك العهد

كانت العلاقات الدينية في ذلك العهد بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة رومة علاقات سلام واتحاد، وان تكن غير متواترة . وما كان يخطر حينئذٍ ببال احدٍ ان سيبدو عن قريب ما يكفهرّ له الافق ويعكِّر صفو المحبة . فكان اذ ذاك في القسطنطينية اديار للرهبان اللاتين، كما كان في ايطاليا اديار للرهبان اليونان . كذلك الحال في سائر البطريركيات . ولما ارتقى بطرس الثالث الى الكرسي الانطاكي وارسل رسالة السلام الى الحبر الروماني، اجابه البابا القديس لاون التاسع مهنئاً اياه على ما عنده من العواطف للكنيسة الرومانية

وفي سنة ١٠٢٤ ارسل الملك باسيليوس الثاني سفارة الى البابا يوحنا التاسع

عشر « حاملة من الهدايا الفاخرة ما جعل قلوب الرومانيين تضطرب » (على حدّ قول المؤرخين المعاصرين) وطالبة من الحبر الروماني ان يوافق على ما اتفق عليه الملك المذكور مع بطريرك القسطنطينية افسطاطيوس، وهو ما يأتي : كما ان الحبر الروماني يُسمَّى « الاسقف المسكوني » في العالم كله، كذلك الحبر القسطنطيني ينبغي ان يُسمَّى « الاسقف المسكوني » في العالم اليوناني . وكان باسيليوس الثاني الملقَّب بقاتل البلغار قد سكر من خمرة الانتصارات الباهرة التي احرزها على الروس والمسلمين والبلغار؛ وكان يطمع باعادة ايطاليا الى دائرة مملكته، وكان رعاياه يشاطرونه العزّ والسلطان، وكذلك بطاركة عاصمته . فظنّ الفرصة سانحة للحصول على مبتغاه . وكاد البابا يوحنا التاسع عشر يوافق على طلب تلك السفارة، لولا ان الرأي العام هاج في ايطاليا وسائر اوربا . فقطع البابا المفاوضة مع السفراء، وعاد هؤلاء الى القسطنطينية خائبين . ومع ذلك يظهر انه لم يترتب على هذا ضعف العلاقات بين الكنيستين، ولم يثبت ما زعمه بعضهم من ان البطريرك افسطاطيوس ازال اسم البابا من الذبتيخا

بيد ان تلك العلاقات لا يمكن ان يقال انها كانت حميمة . فعلاوةً على ان طرق المواصلات في ذلك الزمان كانت نادرة وصعبة وخطرة بين الشرق والغرب، كانت رومة والقسطنطينية تتحاشيان عن كثرة الاحتكاك خشية وقوع النزاع بينهما، فان المصادمات العنيفة التي وقعت في العهد الاول لفوتيوس، والكتابات التي دوّنها حينئذٍ، كان تأثيرها الادبي باقياً في النفوس، وقد احدثت تنافراً بين الفريقين بقيت آثاره كامنة في القلوب . وبسبب قلة المواصلات سار كلُّ فريقٍ في سبيله، وسارت المدنية والثقافة في الشرق والغرب على خطين قلَّ ان اجتمعا

البطريرك ميخائيل كيرولاريوس

لكن ميخائيل كيرولاريوس اعتلى بعد ذلك الكرسي البطريركي في سنة ١٠٤٢، وكان من اسرة نبيلة غنية، ممتازاً بالذكاء، ممتازاً على الخصوص بسعة مطامعه ورغبته في الوصول الى اسمى المراتب، معروفاً بشدة العزم وروح الأَثرة والكبرياء . وكان في حداثته قد تآمر على الملك ميخائيل الرابع بقصد الحلول محله على العرش، ولكن حبوط تلك المؤامرة أدّى الى نفيه مدة من العاصمة . ثم توفي شقيقه الوحيد .

فكان هذان الحادثان مما حمله على هجر العالم والترهّب في احد الاديار . فلما جلس قسطنطين التاسع على سدّة الملك وكان ميخائيل من تبعه، توصّل بحماية هذا الملك الى الجلوس على الكرسي البطريركي. ومن ذلك الحين صار يسعى الى ان يكون له الدور الاهمّ في الدولة كما في الكنيسة . فلم يكن يقبل رئاسة احدٍ ولا الملك نفسه، بل كان يريد ان يعامله معاملة الندّ للندّ حتى في الامور المدنية والسياسية . فمن كانت هذه اخلاقه، كان لا بدّ له من ان يعمل على التخلّص ايضاً من رئاسة البابا، ولو كانت مظاهرها بسيطة ونادرة . ولما لم يقع في ذلك الحين من الحوادث ما يدعو الى النزاع بين الكنيستين، أوجد ميخائيل كيرولاريوس بتدبيره الفرصة الملائمة لاتمام مقصده

ففي سنة ١٠٥٣ ظهر فجأةً في مملكة الروم الشرقية نصُّ رسالة مطوّلة، بعث بها لاون اسقف أُخريدة[1] اليوناني الى يوحنا اسقف تراني في ايطاليا، وفيها ينتقد مُرّ الانتقاد العوائد اللاتينية المخالفة لعوائد اليونان الطقسية . فاثار من جديد بين الشعب والرهبان الاضطراب الفكري الذي كان اثاره منذ قرنين البطريرك فوتيوس في اثناء حبريته الاولى . وكان موضوع الانتقاد يتناول الامور الآتية : التقديس على الفطير بدلاً من الخمير؛ الصيام يوم السبت؛ جواز اللحوم المخنوقة؛ الامتناع عن ترتيل الليلويا في الصوم الكبير . وقال ان من يصوم السبت ويقدس على الفطير ليس يهودياً ولا وثنياً ولا مسيحياً، بل انما هو شبيه بجلد النمر المرقط

بعد ظهور هذه الرسالة بقليل وانتشارها، صارت المطاعن تزداد عدداً وحدّةً . وقام على الخصوص راهب من دير اسطوديون الشهير، يُسمّى نيكيطا ويلقّب بالعريض الصدر[2]، فألّف النشرات البذيئة في حقّ اللاتين، وطعن على الخصوص في حالة العزوبة المفروضة على الكهنة، وفي قولهم بانبثاق الروح القدس من الاب والابن، مما يجعلهم هراطقة

فعلى اثر هذه الحركة — التي يقول بعض المؤرخين الثقاة انها مفتعلة، وانها قد حصلت بايعاز ميخائيل كيرولاريوس نفسه وتحريضه — انتهز البطريرك الفرصة فأمر

---

(١) هذه المدينة هي اليوم في بلاد الصرب بمملكة يوغوسلافيا . اما في ذلك الحين فكان اسقفها متروبوليتاً على كل بلاد البلغار

(٢) ستيثاتوس Στήθατος باليوناني، وبكتوراتوس Pectoratus باللاتيني

باغلاق جميع كنائس اللاتين في القسطنطينية بالقوة، والزم الرهبان اللاتين باتباع الطقس البيزنطي، وحرَم من خالفه منهم . وبهذا الداعي وقعت حوادث عنيفة يؤسف لها، وقد تجاوز احد كتبة البطريركية المدعو نيكيفورس جميع الحدود، اذ قيل انه قد اخذ القربان المقدس المحفوظ في كنيسةٍ لاتينية ورمى به الى الارض وداسه برجليه زاعماً انه غير مقدَّس لانه فطير

المندوبون الرومانيون

وكان بابا رومة في ذلك الحين رجلًا قديساً عاملًا على اصلاح الحال في اوربا وتطهير الكنيسة من العيوب التي الصقها برجالها تدخُّل الامراء، وهو القديس لاون التاسع . فردَّ بعزمٍ وعزَّة نفس على تلك الافتراءات؛ وكتب في ك ٢ سنة ١٠٥٤ الى الملك قسطنطين التاسع في حق « اولئك الرجال الذين لا يخشون من مدِّ ايدٍ اثيمة الى حرمة الوحدة المسيحية » . وفي الوقت نفسه بيّن بوضوح وحزمٍ مبدأ الرئاسة الرومانية؛ ودافع عن الكرسي الرسولي الذي لم يضلّ قط في العقائد؛ ويعامل جميع الطقوس بالمحبة والاكرام، كما هي الحال في ايطاليا، حيث اديار يونانية كثيرة . حينئذٍ استعمل الملك جميع نفوذه وحمل كيرولاريوس مرغماً على كتابة رسالة اعتذار الى البابا . فاجابه لاون التاسع مهنئاً اياه على عواطف امانته. ولكنه في الوقت نفسه اوفد من قبله ثلاثة مندوبين كلّفهم العمل في القسطنطينية على حسم الخلاف

فبعد وصولهم الى العاصمة في اواخر اذار او اوائل نيسان سنة ١٠٥٤ انتقل البابا الى رحمة الله . وكان يرأسهم الكردينال همبرت . فباشروا مهمتهم؛ ولكنهم كانوا في تنفيذها بعيدين عن روح السلام والتواضع . وقد توصّلوا بنفوذ الملك الى الحصول على اقرارٍ رسمي من الراهب نيكيطا برجوعه عن كل ما كتبه في حقّ اللاتين؛ ولكن البطريرك، بعد مقابلته الاولى لهم التي لم تكن ودية، ابى مقابلتهم مرةً اخرى ورفض كل وساطة بينه وبينهم

الحرم المتبادل

حينئذٍ عزم المندوبون على الاتيان بعملٍ قطعي . « ففي ١٥ (او ١٦) تموز سنة ١٠٥٤، بينما كان الاكليرس والشعب محتشداً في كنيسة اجيا صوفيا لحضور

حفلة دينية، ظهر فجأةً السفراء الرومانيون وشقّوا لانفسهم طريقاً في وسط الجمهور وتقدموا حتى الى الهيكل الكبير وشرعوا يخطبون في الشعب متشكّين من عناد البطريرك . ثم وضعوا على الهيكل صكّ الحرم لكيرولاريوس واتباعه؛ وخرجوا باحتفال من الكنيسة في وسط التأثر العام[1] » . وبعد يومين برحوا العاصمة ليعودوا الى رومة . فاحدث هذا الخبر تأثيراً شديداً في نفس الملك قسطنطين المبارز، وسعى لدى المندوبين لكي يرجعوا الى القسطنطينية؛ وبذل جهداً عظيماً لحمل البطريرك على قبول مواجهتهم

وهنا اختلف المؤرخون؛ فقال بعضهم ان الملك بعد اطلاعه على صكّ الحرم غضب على المندوبين وامرهم ثانيةً بالسفر، وشارك كيرولاريوس في شعوره وامتعاضه. وقال غيرهم ان كيرولاريوس رضي ان يقابلهم؛ ولكن بلغ الى مسامع الملك ان البطريرك كان يدبّر مكيدةً، يقصد بها الثأر والانتقام من المندوبين؛ فاشترط ان يحضر هو بنفسه المقابلة بين الفريقين مع بعض حراسه . فأبى كيرولاريوس قبول هذا الشرط . ولما رأى تمسُّك قسطنطين التاسع به حوَّل اليه غضبه وأثار عليه فتنة في العاصمة كادت تودي بعرشه وحياته[2]

فخاف الملك وترك مندوبي رومة يسافرون؛ وكتب الى كيرولاريوس مستغفراً ووسَّط لديه الوسطاء، واظهر استعداده لابرام كل ما يريد البطريرك عمله . فرضي البطريرك عنه وبادر الى عقد المجمع المستديم للكرسي القسطنطيني . وفي ٢٥ تموز رشق بالحرم « الصكّ الكُفري » (اي صكّ الحرم الذي وضعه المندوبون الرومانيون) والذين ألّفوه او اشتركوا في تأليفه . وقيل ان الصكّ المذكور أُحرق باحتفال في اليوم

---

(١) راجع كتاب دجل ومرسيه السابق ذكره (المجلد الثالث من تاريخ العصور الوسطى)، ص ٥٥٠ – ٥٥١؛ ومما يشيران الى كتاب بريهيه Bréhier المعروف بتاريخ الانفصال Le Schisme Oriental du XIe siècle ، ص ١١٧ – ١١٨

(٢) لا يرى حضرة العالم الصعودي الاب مرتان جوجي R. P. Martin Jugie, A. A. هذا الرأي . ويقول ان السبب في الفتنة المذكورة هو وقوف الشعب على الترجمة الصحيحة لصكّ الحرم؛ فهاج على الملك لانه كان يحمي الكردينال همبرت ورفيقَيه . وكان في امكان كيرولاريوس تهدئة الاضطراب؛ ولكنه لم يفعل الا بعد ما كتب اليه الملك مستغفرًا وآمرًا باحراق صكّ الحرم . (راجع مقالة الاب المذكور في مجلة اصداء الشرق Echos d'Orient, oct. déc. 1937, ولاسيما ص ٤٦٣ – ٤٦٥)

المذكور . ولكن كيرولاريوس كتب انه ادرجه في محفوظات الكنيسة ليكون خجلًا ابديًا للذين تجرّأوا على وضعه

فبين ١٥ تموز و٢٥ منه من سنة ١٠٥٤، وقع الحادثان اللذان تمّ بهما انفصال الكنيستين، ذلك الانفصال المشؤوم الذي لا يزال مستمرًّا حتى اليوم

مسلك المندوبين الرومانيين

ان المؤرخين العصريين شديدون اليوم في الحكم على تصرُّف المندوبين الرومانيين، ولاسيما زعيمهم الكردينال همبرت؛ وذلك من وجهين : اولاً بسبب المسلك الذي سلكوه في اثناء قيامهم بمهمّتهم؛ ثانياً بسبب الشك في صفتهم ذاتها، اذ ربما زالت بوفاة البابا الذي كان أوفدهم

فمن الوجهة الاولى، يقول المؤرخون ان اولئك المندوبين لم يتصرّفوا كسفراء مبعوثين للمفاوضة في السلام، بل كقضاةٍ سامين أتوا لاصدار الحكم المبرَم الذي لا استئناف له في القضية المطروحة بين ايديهم . فكانوا يجادلون خصومهم بكل غلظة، مهدّدين وشاتمين مَن لم يكن على رأيهم . قال كيرولاريوس : « انه لم ينقصهم شيء من الادعاء والغطرسة ... ولم يتنازلوا حتى ان يسلّموا عليَّ ولا ان يحنوا لي رؤوسهم بحسب الاصول » . ولو لم يكن لدينا من الادلّة الا اقوال كيرولاريوس لما امكن الحكم على المندوبين المذكورين؛ ولكن شهادات التاريخ الاخرى تؤيد هنا كلامه . فالكردينال همبرت ينعت مخالفيه بالكلاب النابحة والحمير والافاعي السامة والهراطقة واتباع الشيطان الخ . فهو بالاجمال لم يفقه شيئاً من دقّة المركز الذي جاء ليصلحه، واعتبر كرسي القسطنطينية البطريركي العظيم كأسقفية متمردة من احقر الاسقفيات اللاتينية في بلاد البرابرة الخاضعة مباشرةً لبطريركية الغرب، وعاملَ صاحبه كمرؤوس مذنب يجب عليه التماس الصفح من رئيسه الكريم، وارتكب في جداله مع البيزنطيين اخطاء لاهوتية وتاريخية فاضحة؛ وظنّ ان الميل الذي اظهره الملك نحوهم لاسباب سياسية كافٍ لقهر البطريرك والشعب

ولكن الامر الاهمّ هو النقطة الثانية وهي : هل كان للمندوبين الرومانيين الحقّ في إصدار الحرم على البطريرك ميخائيل كيرولاريوس ؟

انهم عندما فعلوا ذلك في ١٥ تموز سنة ١٠٥٤ كان البابا لاون التاسع قد توفي منذ ثلاثة اشهر، اي في ١٣ نيسان من السنة المذكورة، وكان كرسي القديس بطرس شاغراً حينئذٍ . اذ ان البابا الذي خلفه، وهو فيكتور الثاني، لم يُعيَّن الّا في شهر ايلول التالي ولم يتسلّم فعلًا وظيفته في رومة الّا في شهر نيسان من سنة ١٠٥٥ التالية . فالكردينال همبرت ورفيقاه كانوا اذن في مركز غير واضح . فهل كان ممكناً من الوجهة القانونية ان يدّعوا تمثيل الكرسي الرسولي في حين ان البابا الذي كان أوفدهم كان قد فارق هذا العالم ؟ وعلى كل حال، لا يجوز القول بأن البابا المتوفى قد وافق مقدماً على القرارات الخطيرة التي كانوا مزمعين ان يتخذوها، وعلى كلّ ما كان مزمعاً ان يقع منهم من سوء التصرّف . فمثل هذه القرارات ومثل هذه التصرفات لا تقع مسؤوليتها الّا على اصحابها . واذا نظرنا الى المسألة من هذه الوجهة نستطيع ان نعتبر من حسن الحظّ كون بطريرك القسطنطينية رفض ان يعترف بهم كممثلين للحبر الروماني[1]

زد على ذلك ان الطريقة التي اتخذها المندوبون المذكورون لاصدار الحرم كانت في الحقيقة مما يؤسف له . فهي اقرب الى التمثيل المسرحي منها الى عمل كنسي . ولكن الامر الذي يؤسف له بالاكثر هو مضمون صكّ الحرم واللهجة التي كُتب بها . فانه ينسب الى كيرولاريوس واتباعه (وبطريقةٍ غير مباشرةٍ، الى سائر الكنيسة البيزنطية) بعض تهمٍ صحيحة وبجانبها سلسلةً خيالية من الهرطقات والجرائم . وان من يطالع تلك الوثيقة يدهش من سوء تصرّف الكردينال همبرت ورفيقَيه، ومن جهلهم ايضاً بعض المسائل اللاهوتية . فقد قالوا فيها عن « ميخائيل كيرولاريوس الذي يزعم انه بطريرك » وعن « تابعي جنونه » انهم كاتباع سيمون الساحر يتاجرون بالقدسيات ؛ واتهموهم بانهم كالفيلاسيين يرقّون الخصيان الى الدرجة

(١) كان للبطريرك كيرولاريوس عدوّ شديد هو ارجيرُس الحاكم البيزنطي على ايطاليا الجنوبية . فلما وصل المندوبون الرومانيون الى القسطنطينية، وعرف بطريركها انهم قبل سفرهم من ايطاليا قابلوا ارجيرس المذكور وفاوضوه في مهمتهم، ورأى شدة اللهجة التي كانت رسالة البابا مكتوبة بها اليه، اعتقد ان هذه الرسالة مزوّرة على البابا، وانها من صنع ارجيرس، وان المندوبين انما جاءوا الى القسطنطينية لتنفيذ سياسة عدوّه المذكور . ولذلك رفض ان يعترف بهم كسفراء الحبر الروماني . — راجع في ذلك مقالة حضرة الاب مرتان جوجي الصعودي السابق ذكرها، في مجلة « اصداء الشرق » الفرنسية، ص ٤٥٢ — ٤٥٣ من جزء ت ١ — ك ١ سنة ١٩٣٧

الكهنوتية والاسقفية؛ وانهم كالاريوسيين يجدّدون عماد اللاتين؛ وانهم كالدوناطيين ينكرون وجود كنيسة المسيح خارجاً عنهم؛ وانهم كالنيقولاويين يزوّجون الكهنة بعد رسامتهم؛ وكالسافاريين يلعنون شريعة موسى؛ وانهم كأعداء الروح القدس قد حذفوا من قانون الايمان كلمة « والابن » [والحقيقة هي ان اللاتين هم الذين اضافوها اليه !] وانهم كالمانيين يقولون بان الخمير حيٌّ ذو نفس؛ وكالناصريين لا يعمّدون ولو في خطر الموت مَن كان في حالة من الاحوال التي تُسمَّى نجاسةً في شريعة موسى؛ وانهم يرفضون اعطاء القربان لمن يحلق لحيته، الخ الخ . وذكروا اخيراً ان ميخائيل كيرولاريوس أغلق كنائس اللاتين واضطهدهم بكل نوع، مسمّياً اياهم « فطيريين »؛ ومنع المندوبين من اقامة القداس في كنائس المدينة؛ وانه بإنزاله الحرم ببعض اللاتين قد تجرأ على حرم الكرسي الرسولي نفسه . وختموا الصكّ بهذه العبارة :

« ميخائيل، الحديث في الاكليرس، الذي يحمل بلا حقٍّ لقب بطريرك، الذي اتخذ اللباس الرهباني مدفوعاً بعامل الخوف البشري فقط، والمنسوبة اليه الآن التهم الاشدّ خطورة؛ — ومعه لاون الذي يزعم انه اسقف اخريدة؛ — ونيكيفورس كاتب ميخائيل، الذي انتهك حرمة القدسيات بان داس برجليه ذبيحة اللاتين؛ — وكل الذين يتبعونهم في ضلالاتهم المذكورة وتجاسراتهم المتغطرسة؛ — كل هؤلاء، فليسقطوا تحت اللعنة، — ماران اثا — مع السيمونيين والفالاسيين والاريوسيين والدوناطيين والنيقولاويين والسافاريين واعداء الروح القدس والمانيين والناصريين وجميع الهراطقة، لا بل مع الشيطان وملائكته، ما لم يتوبوا . آمين امين امين[1] »

---

(١) يجب ان لا نستغرب كثيرًا هذه اللهجة، اولًا لانها تدل على اطباع صاحبها، وثانياً لانهم هكذا كانوا معتادين ان يكتبوا . واذا اردت على ذلك مثالًا احدثَ فاقرأ مثلًا صكّ الحرم الذي انزله بطريرك القسطنطينية ارميا وسائر البطاركة الارثوذكس ببطريرك الروم الكاثوليك كيرلس الخامس طاناس ومطارنته واتباعه في شهر تشرين الثاني سنة ١٧٢٤، بحسب الترجمة العربية الرسمية التي وُزّعت حينئذ في الشرق . فكرّر واضعو ذلك الصك قولهم عن كيرلس وكل واحد من اتباعه انه « لعين ومثلّث اللعنة والشقاوة » وانه « عريان من النعمة » وانه ينبغي ان لا يقبّل احد « ايادِيهم النجسة » « ولا يشفق عليهم البتة ظاهرًا او خفيًا »، واخيرًا قالوا : « فليكونوا جميع هؤلاء المذكورين مع الذين يساعدوهم قولًا وفعلًا محرومين من الثالوث القدوس المحيي وملعونين، وغير مغفور لهم ؛ وتكون اجسادهم مرتجفة على الارض مثل قايين

مسؤولية ميخائيل كيرولاريوس

رأينا مسؤولية المندوبين الرومانيين في هذه المُشكِلة، وكيف كان سوء تصرفهم وتجاوزهم حدود مهمتهم سبباً من اسباب الانشقاق المشؤوم الذي حدث سنة ١٠٥٤ ولا يزال حتى الآن . ولا نخشى من الاعتراف بهذه الاخطاء فان الكنيسة لا تخشى نشر الحقيقة كما هي[1]

على ان المسؤولية الواقعة على عنق الكردينال همبرت ورفيقيه لا تعفي البطريرك كيرولاريوس منها . لا بل ان جُلَّ المسؤولية واقعة عليه . فهو الذي اراد الانشقاق، وهو الذي مهَّد له السبيل، وهو الذي دبَّر التدابير للوصول اليه . فمطران البلغار لاون صاحب الرسالة التي فتحت باب النزاع، واسقف تراني يوحنا الذي بُعث بتلك الرسالة اليه، والراهب نيكيطا العريض الصدر، لم يكونوا الَّا آلاتٍ بيده، دفعهم الى العمل والظهور واختبأ وراءهم، لكي يدع لنفسه منفذاً عند اللزوم ويستطيع التنصل لو لم تنجح تدابيره

ولكن لماذا اراد كيرولاريوس الانشقاق ؟

ان روح الاستقلال الذي كان عنده وكان يحمله على معاملة الملك نفسه معاملة الندّ للندّ، كان يجعله لا يطيق مجرّد الافتكار بالخضوع للحبر الروماني . ولم يكن قاصداً في الاصل منازعة البابا مباشرةً على رئاسته العامّة من الوجهة النظرية ؛ بل انما كان يريد ان يعامله كالندّ المساوي له عملياً . وبدلاً من الجدال اللاهوتي، كان يفضّل ان تبقى « الحالة الراهنة » التي كانت قائمةً اذ ذاك على ما هي عليه . اما تلك « الحالة الراهنة » فكان اساسها قلّة الصِلات بين الفريقين، لا يتخاطبان الَّا للضرورة، راضيَين

طول ايام حياتهم؛ ويحلّ عليهم وعلى ديارهم ذلك الغضب الذي حلّ على صادوم وعاموره ؛ وتنشق الارض وتبتلعهم مثل داثان وابيروم ؛ وبعد موتهم الحديد والحجارة تفنى وتباد واجسادهم لا تبلا ولا تفنى؛ ويكونوا مدانين تحت طايلة اللعنة الابدية ! »

(١) قد اصبح من المشهور ان الباباوات المعاصرين لنا امروا بفتح جميع محفوظات الفاتيكان لعامّة العلماء الباحثين في الامور التاريخية؛ وقالوا ان الحقيقة لا تحتاج الى الكذب والتكتم في الدفاع عن نفسها . واول نتيجة ترتّبت على شجاعتهم الادبية هذه ان كثيراً من الاخطاء التي كان بعضهم ينسبها الى الكنيسة ذاتها او الى الباباوات بصفة كونهم رؤساءها قد اتضح ان الكنيسة بريئة منها، او ظهر انه برغم اخطاء البشر المكلَّفين ادارة الكنيسة قد نجّاها الله تعالى من نتيجة اخطائهم

بهذه الحالة غير المرضية لئلّا تقع المشادّة بينهما . هذه الحالة كان كيرولاريوس راضياً بها؛ ولكن بعض الاحوال السياسية التي حدثت حينئذٍ كان من شأنها ان تبدّل تلك الحالة، فتكثِر الصلات بين الفريقين وتستدعي ظهور الرئاسة البابوية في احوال اكثر من الزمان السابق . هذا ما خشيه بطريرك القسطنطينية واراد تلافيه

اما الاحوال المشار اليها فهي انه في سنة ١٠٥١ كان هناك مشروعٌ لمعاهدة سياسية بين الملك قسطنطين التاسع المبارز والبابا لاون التاسع لمقاومة النرمنديين؛ اذ كانوا قد احتلوا صقلية وجنوب ايطاليا وكانوا يرسلون منها الغزوات على ممتلكات البيزنطيين في ايطاليا وعلى اقاليم الدولة البابوية . وكان الساعي في هذا المشروع ارجيرُس حاكم ايطاليا البيزنطية . فرأى ميخائيل كيرولاريوس ان نجاح هذا المشروع يترتب عليه حتماً كثرة العلاقات بين الجانبين، ليس في السياسة فقط، بل في الدين ايضاً؛ اذ لا يُعقل مثلُ ذلك الاتفاق مع البابا — ولاسيما في ذلك الزمان — بدون علاقات كنسية متواصلة . فعمل على احباط الاتفاق، قلّما يكون من الوجهة الدينية . فبدأ بمعاكسة اللاتين المقيمين في القسطنطينية بشأن التقديس على الفطير، وتمّم باقي ما اتخذه من التدابير، على ما سبق بيانه في الصفحات السابقة[1]

وقد مات قسطنطين التاسع في اوائل سنة ١٠٥٥؛ واستمرّ ميخائيل كيرولاريوس جالساً على الكرسي البطريركي حتى شهر آب سنة ١٠٥٧، متمسكاً بحالة الانشقاق التي احدثها . ولكنه كان قد جلب اليه جمهور الرهبان العظيم ونفخ فيهم روحه؛ فكانوا افضل أداة بين يديه لنشر الشقاق في الشعب وتأصيله في النفوس . ولما مات أُقيم له جنّاز حافل كقديسٍ وشهيد

(١) راجع ص ٤٤١ من مقالة الاب مرتان جوجي السابق ذكرها

الفصل الثالث

في العلاقات بين رومة والقسطنطينية

في المدة التالية لانشقاق كيرولاريوس الى مجمع ليون

١٠٥٤ – ١٢٧٤

أ – في ما ترتب من النتائج مباشرةً على عمل كيرولاريوس

قد اعتدنا منذ اجيالٍ ان نعتبر كيرولاريوس اباً للشقاق . ولذلك صار الآن يخيَّل الينا انه بعدما حدث ذلك الشقاق انقطعت فوراً كل علاقة بين القسطنطينية ورومة، بين الشرق والغرب . على ان الامر ليس كذلك

ان عمل كيرولاريوس لم يخلق فوراً حالة الانشقاق الحالية الموجودة الآن بين رومة وكنيسة القسطنطينية وسائر كنائس الشرق . والمعاصرين لتلك الحوادث لم يشعروا قط بان ما حصل في ايامهم كان خرقاً نهائيًا لن يُرتَق . فانهم كانوا يعلمون ان الكنيستين قد تصالحتا غير مرةٍ فيما مضى على اثر منازعات وانشقاقات عظيمة؛ فكانوا يظنون انهما ستتصالحان مرةً اخرى ايضاً

ولذلك قد انشطر الرأي بعد عمل كيرولاريوس من الوجهة الدينية الى مجريَين: مجرى المعارضة لكل ما هو لاتيني وروماني، ومجرى المحبة والاتحاد الذي كان يرمي الى اعادة العلاقات. فالمجرى الاول هو الذي تغلّب في النهاية، بعدما توسّع وتأصّل لعدة اسباب سيأتي ذكرها . ولكن المجرى الثاني كان حيًّا وعاملًا في المدة الاولى التي تلت تلك الحوادث المؤلمة، حوادث السنة ١٠٥٤

فمن جهةٍ نرى اساقفة عديدين من سائر انحاء المشرق ينضمّون الى كيرولاريوس في الحرم الذي رشق به « الصكّ الكفري » الذي وضعه المندوبون الرومانيون . ولكنا من جهة اخرى نرى بطرس البطريرك الانطاكي يكتب الى كيرولاريوس ليحرّضه على الاعتدال في معاملة اللاتين، « هؤلاء الاخوة الذين تُبعدهم البساطة والجهل عن التقيُّد باللائق من آداب السلوك، هؤلاء الاعاجم الذين لا يمكن ان يُطلَب منهم ما يحقّ طلبه من اليوناني المتمدّن » . وقال له ايضاً : « اني التمس

من غبطتك الالهية ان تساير الاحوال؛ وان ترتعد خوفاً عند افتكارك بأنك، وانت تريد تضميد هذا الجرح، قد تصلُ الى ما هو اشدّ ضرراً، اعني الانشقاق . فاذا كانت ملكتا الارض في اضطراب فلا بدّ من ان البكاء يعمّ المسكونة[1] »

ولم يكن البطريرك الانطاكي وحيداً في الميل الى الاتحاد . فبعد عمل كيرولاريوس بعشرة اعوام وجّه الملك قسطنطين العاشر ذوكاس[2] سؤالاً الى الراهب الشهير جاورجيوس الهاجيوريتي (اي مؤلف حياة القديسين) في هذا الشأن، فشهد علناً بانه « ليس من فرقٍ بين اليونان واللاتين » . وكذلك ثيوفيلَكتُس رئيس اساقفة اخريدة، الذي خلف لاون السابق ذكره على كرسي الكنيسة البلغارية، فانه كان يقول انه لا يرى ما يبرّر الانفصال، « فان اخطاء اللاتين قليلة؛ وليس فيها ما يصحّ اعتباره سبباً للشقاق اذ ليس فيها شيءٌ مخالف لمبادئ الايمان »

هذا من جهة الشرقيين

اما من جهة الغربيين، فيظهر ان اعمال كيرولاريوس والكردينال همبرت لم تؤثر في مركزهم في الشرق وعلاقاتهم به . فاستمروا في القسطنطينية يكثرون ويتقوّون، ويبنون لهم كنائس خاصة . ومرتزقتهم يخدمون في الجيش البيزنطي . وحجّاجهم يمرّون بالقسطنطينية في ذهابهم لزيارة الاماكن المقدسة[3] . وكثيرون منهم يزورون جبل اثوس المقدس؛ وبعضهم ينسكون فيه بين الرهبان الشرقيين، حتى انهم قد بنوا فيه ديراً لاتينياً خاصاً بهم[4] . وفي هذه الاثناء استمرّ اليونان

---

(١) راجع « تاريخ النصرانية » للاب بوليه البندكتي، الجزء التاسع، ص ٣٩٩ Histoire du Christianisme, par Dom Ch. Poulet, O. S. B., avec le concours de plusieurs collaborateurs ; Fascicule IX, (1935, Paris, Beauchesne).

(٢) ملك الروم من سنة ١٠٥٩ الى سنة ١٠٦٧

(٣) نرى البابا فيكتور الثالث (١٠٨٦ – ١٠٨٧) يكتب الى ملكة الروم حنة ذالاسينا بشأن الزوار اللاتين فيقول لها « نلفت نظركِ الى انه يجب عليكِ ان تذكري الكنيسة الرومانية كأمّكِ الاولى وان تكرّميها دائمًا، كما انها هي ايضاً تذكركِ وتكرم اسرتكِ » . وليس في هذه العلاقات ما يدل على حصول انشقاق

(٤) هم من اهالي جمهورية أَمَلْفي الايطالية . وقد احتاج رهبان هذا الدير يوماً الى الاصلاح فارسل لهم ملك القسطنطينية راهباً يونانياً شهيرًا من بلاد قلبرية في ايطاليا الجنوبية يُدعى برتلماوس . ولم يكن في جبل اثوس من يذكر « الفطيريين » ولا « الخميريين » !

يذهبون كالعادة لزيارة ضريح الرسولين بطرس وبولس في رومة، بينهم عدد من الرهبان الشهيرين في اصلاح حال الديورة الشرقية[1]

ورغم استيلاء النرمنديين على جنوب ايطاليا واعتدائهم على ممتلكات المملكة البيزنطية، استمرّت بلاد قلابرية وصقلية همزة وصلٍ بين الشرق والغرب في الامور الدينية، وكثرت فيها ديورة الفريقين . وكان الكونت روجه le Comte Roger النرمندي (١٠٧١ — ١١٠١) لا يجعل فرقاً بين اللاتيني واليوناني؛ وكان يعتبر جميع الرهبان، سواء كانوا باسيليين شرقيين ام بندكتيين غربيين، كأنهم « للمسيح الواحد »؛ ويجهل « مسائل الفطير واللحية والصوم وغير ذلك من الصغائر » التي احتدم الجدال حولها في القسطنطينية . وبينما كان هذا الامير اللاتيني يغني بتقادمه ديورة اليونان، كان الملك البيزنطي ميخائيل السابع (١٠٧١ — ١٠٧٨) يرسل كل سنة ٢٣ ليبرة من الذهب الى دير البندكتيين اللاتيني في جبل كسّينو « اكراماً لابينا الطوباوي بندكتس الذي لا يجلّه الغربيون وحدهم بل الشرقيون ايضاً » . وفي الوقت نفسه كان بعض اللاتين يترهّبون في دير طورسيناء مع اليونان، ولهم كنيستهم الخاصة الصغيرة بجانب الكنيسة الشرقية الكبيرة، والباباوات يجودون بالهدايا للدير المذكور[2]

فمن كل ما تقدم نستطيع الخروج بهذه النتيجة وهي: انه بعد شقاق كيرولاريوس حتى الى آخر القرن الحادي عشر، يمكن القول ان خطر ذلك الشقاق بين البطريرك والبابا لم يكن معروفاً لدى جمهور المسيحيين

٢ً استغاثة الشرق بالغرب

صادف انفصال كيرولاريوس دخول الاتراك الى اراضي مملكة الروم الشرقية في الاناضول . فكان من شأن هذا الحادث وضعُ هذه المملكة في خطر دائم،

---

(١) ذكر حضرة الاب بوليه بعضهم (راجع الكتاب السابق ذكره، ص ٤٠٠) وذكر من الزوّار جمهوراً كبيراً من الاحداث التائبين اتوا بقيادة احدهم المدعو نقولاوس وهم يهتفون كيريالَيْصون « يا رب ارحم »

(٢) راجع في هذا الشأن المقالة التي نشرها العالم اليوناني الارثوذكسي عمانوئيل بندلاكي Emman. G. Pantelakis في « مجلة ايرينيكون » الفرنسية الكاثوليكية Irénikon في مطلع سنة ١٩٣٥، ص ١ — ٣٣، ولاسيما ص ١٠ — ١٢ وعنوان المقالة « دير طورسيناء »

كثيراً ما حمل ملوكها على الاستغاثة بالباباوات لمساعدة المسيحيين الشرقيين على ردّ هجوم المسلمين الجديد . فالاحوال السياسية والعسكرية نفسها كانت سبباً من اسباب التقرّب بين الكنيستين، وكان يجب ان ينشأ عنها صلحٌ دائم متين الاركان. ولكنَّ اسباباً اخرى عملت عملها هي ايضاً، فكانت ضربات قاضيةً على الرغبة في الاتحاد؛ اهمها مطامع النرمنديين في الممتلكات البيزنطية، وعدم الاتفاق بين الصليبيين وملوك الروم، ولاسيما الحرب الصليبية الرابعة التي وجّهها الافرنج على الروم؛ ففتحوا القسطنطينية ونهبوها وأسسوا فيها مملكةً لاتينية . كل هذه العوامل حفرت بين الفريقين هوّةً لا تزال فاغرةً فاها حتى اليوم

وكان الملك ميخائيل السابع اول مَن وجّه النداء الى البابا، وذلك سنة ١٠٧٣؛ فقبِل غريغوريوس السابع بطيبة نفس ان يساعد الروم، ونوى ان يقود بذاته خمسين الف محاربٍ غربي لاغاثتهم . لكن الصعوبات الجمة التي خلقتها له مشاكله مع امبراطور المانيا هنري الرابع بشأن تنصيب الاساقفة حالت دون تنفيذ نيته . ثم غيّر سياسته وساعد النرمنديين على البيزنطيين

ثم ان الملك الكسيوس الاول كُمنينُس ارسل الى البابا أُوربانس الثاني سفراءه فحضروا مجمع پلاشنتينا في ايطاليا ومجمع كلرمون في فرنسا سنة ١٠٩٥ حيث كان البابا نفسه يحض امراء الغرب على اسعاف الشرق المسيحي وان يساعدوا ملوك الروم أولى من الافتكار بفتح القدس الشريف

٣ً الحروب الصليبية

كانت الشروط المتفَق عليها بين قواد الصليبيين وملك الروم الكسيوس الاول كُمنينس تقضي بان يحارب الافرنجُ المسلمين لحساب ملك الروم وان يفتحوا انطاكية ويردّوها اليه . وقد اقسموا على ذلك، ما عدا احدهم، بوهيمُند النرمندي، ابن روبير غِسكار الذي كان حارَب البيزنطيين فيما مضى . فهذا الامير خالف زملاءه وتمكن بدهائه من البقاء وحده اميراً على انطاكية بعد ان تعبوا جميعاً في فتحها سنة ١٠٩٨ فتركوه فيها وساروا في سبيلهم نحو اورشليم . وقد حاول الملك الكسيوس عبثاً المطالبة بردّ انطاكية اليه . فكانت هذه الحادثة داعيةً الى النفور بين الفريقين . ومما زاد هذا النفور حدّةً ان امراء انطاكية الافرنج اخرجوا منها

بطريركها الرومي الملكي واقاموا بدله بطريركاً لاتينياً وجعلوا الاكليرس الرومي تابعاً له

على ان هذه الحوادث لم تمنع الاتصال بين الكنيستين بقصد الاتحاد . والملك الكسيوس الاول نفسه عرض على البابا پسكال الثاني سنة ١١١١ ان ينقذه من اسر امبراطور المانيا هنري الخامس . فكتب البابا اليه يشكره ويدعوه الى المجيء الى رومة . فلم يستطع الملك السفر وكتب الى البابا سنة ١١١٢ ان الاتحاد يتمّ على اساس اعتراف بطريرك القسطنطينية برئاسة الحبر الروماني وعرض عليه عقد مجمع في القسطنطينية لذلك . ولكن احوال ذلك الزمان لم تمكّن من تنفيذ تلك الرغبة

وقد ظهرت الرغبة في الاتحاد في فرصة مجيء الاسقف انسلمس الالماني الى القسطنطينية، اولاً في سنة ١١٣٦ موفداً من قبل امبراطور المانيا، وثانياً في سنة ١١٥٥ موفداً من قبل البابا . فكانت نتيجة ابحاثه مع العلماء البيزنطيين انه يجب عقد مجمع « لتتميم الاتحاد » وانه يجب ترك الجدال في مسألة الفطير ومسألة اضافة « والابن » الى قانون الايمان، والتكلم بالحري في الامور الجوهرية التي الاتفاق كاملٌ فيها بين الفريقين . اما بطاركة القسطنطينية في تلك الحقبة فلم يكونوا شديدي الميل الى الاتحاد، ولم يكونوا ايضاً من المعاكسين له، قلّما يكون لمسايرة الملوك في سياستهم لاجل المصالح الوطنية التي كانت تقضي بالمصالحة والمسالمة مع الغرب

ولكن في سنة ١١٧٠ جلس على الكرسي البطريركي عدوٌ لدودٌ للافرنج وللاتحاد، هو ميخائيل الثالث انخيالس . ويقال انه هو اول من قال : « عمامة التركي ولا تاج البابا ! »؛ وكانت وفاته سنة ١١٧٧ . وكلما مرّت الايام ازداد الكره للافرنج، حتى انها في سنة ١١٨٢ شبّت فتنةٌ في القسطنطينية قاموا فيها وذبحوهم ومندوبَ البابا ايضاً

وكأنّ القضاء والقدر كانا عاملين على تحرّج الحالة بين الشرق والغرب ! . . . ففي تلك الاثناء، اثناء الحروب الصليبية الاولى، تألّبت الحوادث والعوامل على تعكير الصفاء بينهما . فالروم كانوا يعتقدون انهم هم حامو حمى الديانة المسيحية واصحاب العلم والتمدّن، وان الصليبيين الافرنج جندٌ لهم ومساعدون، وان هؤلاء المساعدين البعيدين عن التمدّن والفاقدي النظام خانوا عهودهم وعملوا على نهب

البلاد والاضرار بالمسيحيين الشرقيين . والافرنج من جهة اخرى كانوا يعتقدون انهم هم اصحاب الحرب، وان الروم يجب ان يكونوا لهم شاكرين اذ انهم جاءوا من بعيد ليدفعوا عنهم خطر الاتراك، وان الروم وعدوهم بالمساعدة ثم خانوهم اذ تركوهم يهلكون جوعاً وعطشاً في الاناضول فيما كان الترك السلجوقيون يحاربونهم . ولم يكن من وسيلة للتفاهم بين الفريقين اذ ان بعض ذوي الاغراض من الطرفين — ولاسيما الامراء النرمنديين فاتحي ايطاليا الجنوبية — كانوا يعملون بدهاء عظيم على توسيع شقة الخلاف بكل وسائل الدعاية . وقد ظهر ميلُ الامراء الافرنج الى غزو المملكة البيزنطية منذ الحرب الصليبية الاولى . فكان الباباوات يقاومونهم غالباً، واحياناً يسايرونهم، اي يضطرون الى الاعتراف بالامر الواقع او يسكتون احياناً على ما يرتكبه الصليبيون من الفظائع . فتأتي الاخبار الى الروم بان البابا يحضّ الافرنج على محاربتهم، فتزداد طبعاً الكراهة له والحقد عليه

وفي سنة ١١٩٨ عمل الملك الكسيوس الثالث على إبعاد خطر الافرنج عن مملكة الروم، وذلك بانه عرض على البابا اينوكنتُس الثالث ان يحالفه على امبراطور المانيا، وان يعيد الاتحاد بين الكنيستين على شرط ان تكون سلطة الملك المدنية فوق السلطة الروحية . فاجابه البابا ان السلطة الروحية تفوق السلطة الزمنية كما تفوق الشمس القمر . واستمرت المفاوضة زمناً طويلاً زال بعده خطر الغزوة الصليبية، فلم يتمّ عقد المجمع الذي عرض البابا ان يدعو اليه البطريرك القسطنطيني

كان الكسيوس الثالث قد عزل الملك اسحاق عن العرش وكحّل عينيه وحبسه مع اولاده . ففرّ احدهم من القسطنطينية والتجأ الى البابا اينوكنتس الثالث المذكور ليحمل الصليبيين على محاربة المغتصب . فرفض البابا . على ان امبراطور المانيا وجمهورية البندقية وسائر رؤساء الصليبيين وافقوا الامير البيزنطي . فاقلعوا على مراكب البنادقة ومعهم مندوبو البابا؛ ولكنهم بدلاً من الذهاب الى فلسطين توجّهوا الى القسطنطينية فاحتلّوها سنة ١٢٠٣؛ واجلسوا الكسيوس الرابع على عرشها بدلاً من الكسيوس الثالث الذي هرب الى الاناضول . حينئذٍ حرمهم البابا اينوكنتس الثالث . ثم رأى من حسن السياسة ان يعترف بالامر الواقع وطلب من الكسيوس الرابع العمل على اعادة الاتحاد بين الكنيستين، بان يعترف البطريرك برئاسة الحبر الروماني ويطلب منه درع التثبيت او « الپاليوم » . لكن الملك لم

يستطع إقناع شعبه وكنيسته بذلك وقطع علاقاته بالصليبيين . ثم ثارت عليه فتنةٌ قلبته عن العرش واجلست مكانه الكسيوس الخامس . ولما رأى الملك الجديد تعذُّر الاتفاق مع اللاتين حاربهم بعزم . فانتصروا عليه سنة ١٢٠٤ ونهبوا القسطنطينية نهباً لم يرو التاريخ مثله (الا عندما نهبها فيما بعد الاتراك العثمانيون سنة ١٤٥٣) وارتكبوا من انواع الفظائع ما لا يزال ذكره يردّد حتى اليوم بكل اشمئزاز في قلوب اليونان

٤ً احتلال اللاتين القسطنطينية (١٢٠٤ - ١٢٦١) .

« كان من نتائج استيلاء الافرنج على القسطنطينية قيام حقبة طويلة سادت فيها الفوضى السياسية والدينية على مملكة الروم الشرقية »

١ — فالفوضى السياسية ظهرت بتقسيم المملكة الى ممالك وامارات عديدة متعادية : امبراطورية الافرنج في القسطنطينية وضواحيها، واول عاهلٍ عليها بلدوين الفلمنكي؛ امبراطورية نيقية الرومية في بر الاناضول، وعلى رأسها ثيوذورس الاول لَسْكاريس؛ امبراطورية طرابزون الرومية على ساحل البحر الاسود، وعلى رأسها امير من اسرة كُمنينُس؛ مملكة سالونيك في مقدونيا، واول ملوكها الامير الفرنسي بونيفاس دي مُنفِرّا؛ امارة ابيروس في بلاد الارناؤوط، وعلى رأسها احد الامراء البيزنطيين؛ وامارات اخرى كبيرة او صغيرة في اثينا والمورة وجزر بحر ايجه، يحكمها امراء يونانيون او افرنج

٢ — اما الفوضى الدينية فظهرت بتقسيم بطريركية الكنيسة العظمى الى كنائس عديدة . فلما دخل اللاتين العاصمة هرب بطريركها يوحنا الثاني كاماتيرُس من وجههم، وقبع سنتين في احد الديورة، ثم استقال؛ ولم يعرف اتباعه كيف ينتخبون خلفاً له . وفي سنة ١٢٠٤ نفسها استقلت كنيسة البلغار وانشأت لها بطريركية في ترنوڤو . وفي سنة ١٢١٩ استقلت كنيسة الصرب بانشاء بطريركية لهم في ايپك . اما امارة ابيروس (البانيا) فقطعت كل علاقة مع البطريركية ثم اصطلحت مع كنيسة نيقية سنة ١٢٣٢ . واستقلت كنيسة طرابزون ولم تصالح الكنيسة العظمى الا سنة ١٢٦٠ وبشرط الاحتفاظ بشيء من استقلالها

٣ — زد على ذلك انه لم يتحقّق شيء من الامال السياسية والدينية التي كان

اللاتين يعلقونها على استيلائهم على القسطنطينية . فانهم كانوا يظنون انهم بذلك يساعدون مملكة اورشليم الصليبيـــة ويرضون مطامع جميع الافرنج؛ ولكنهم لم يحصلوا على شيءٍ من هذه النتائج . لانهم بدلاً من اسعاف اخوانهم الذين كانوا يحاربون في فلسطين اصبحوا هم انفسهم في حاجة الى من يسعفهم للبقاء في مراكزهم، وصاروا يجرّون اليهم اموال اوربا ورجالها المعدّين للحرب الصليبيـــة . اما الغاية الدينية التي سعوا اليها، وهي اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية، فبدلاً من تحقيقها كانت اعمالهم سبباً في إبعادها وفي توسيع شقة الخلاف

وقد حاول الكردينال بطرس مندوب الحبر الاعظم ان يفرض الاتحاد على الشرقيين فرضاً في سنة ١٢٠٤ فلم يفلح . فخلفه الكردينال بندكتس من سنة ١٢٠٥ الى سنة ١٢٠٧ عاملاً على ذلك باللين والاقناع، مخاطباً رومَ القسطنطينية وروم نيقية وسائر حكام الامارات البيزنطية . فكان الحكام يميلون الى رأيـــه بمقدار درجة خضوعهم للامراء الافرنج؛ ولكن الاساقفة والرهبان كانوا يعارضون في الاتحاد اشد المعارضة . وذلك لان الصليبيين قـــد ضحّوا بالطقس البيزنطي وعوائد الكنيسة الشرقية امام الطقوس والعوائد اللاتينية؛ واقاموا بطريركاً واساقفةً منهم واخضعوا لولاية هؤلاء الغرباء جميع الاكليرس اليوناني؛ وكانوا يعاقبون بالتوقيف والحرم من يعارضهم في ذلك . ولما جـاء الكردينال پلاجيوس دَلبانو سنة ١٢١٣ بصفة مندوب الحبر الاعظم الى القسطنطينية لم يكتفِ بتلك القصاصات الكنسية بل كان يحبس الرهبان والكهنة الذين يرفضون الاعتراف بالبابا ويغلق كنائسهم . واخيراً اتفقوا على ان يعقدوا مجمعاً عاماً في الكنيسة اللاترانية برومة؛ ورضي الروم ان يبقى في القسطنطينية بطريركٌ لاتيني عـلى شرط ان يعود اليها بطريركها البيزنطي ايضاً . فرفض اللاتين هذا الشرط[1] وعقدوا المجمع اللاتراني وحدهم سنة ١٢١٥؛ وبالطبع لم تكن نتيجته الاتحادَ المرغوب فيه

٤ — ولكن الشعور المسيحي بالحاجة الى الاتحاد كان مع ذلك حيًّا، وكثيرين

(١) في ذلك الزمان لم يكن المسيحيون، ولاسيما في الغرب، يعقلون انه يمكن إجلاس اسقفين على كرسي مدينة واحـدة، ولو كانا من طقسين مختلفين . فكان لا بدّ ان يكون الاسقف من الامّة الغالبـة ومن طقس كنيستها؛ اما اكليرس البلد الذي يحكمه الاجنبي فيجب ان يكون خاضعاً لولاية ذلك الاسقف

كانوا يعملون على تحقيقه . ففي سنة ١٢٢٠ دعا ثيوذورس الاول لَسكاريس امبراطور نيقية بطاركة القسطنطينية والاسكندرية وانطاكية واورشليم الى الاجتماع لديه مع اساقفة آخرين لبحث معضلة الاتحاد مع كنيسة رومة . لكن معارضة احد مطارنة البانيا احبطت المسعى

وفي سنة ١٢٣٢ حاول امبراطور نيقية يوحنا ڤاتاتزيس عقد الاتحاد بين الكنيستين . ولكن الرسائل التي تبودلت بين البطريرك القسطنطيني جرمانس الثاني والبابا غريغوريوس التاسع كانت مشحونة بالشتائم المتبادلة[1] . ولما اجتمع مندوبو الفريقين في نيقية تشاتموا ونعت كلُّ فريق الفريق الآخر بالهرطقة . فخرجوا من هذه الاجتماعات وقد ازداد النفور بينهم . وفي سنة ١٢٣٧ نظَّم البابا المذكور حملةً صليبية على الامبراطور يوحنا المذكور، « ذلك الغادر الذي لم يُرِد ان يكون من حظيرة بطرس » . وفي سنة ١٢٤٥ ايضاً نودي في مجمع ليون بالحرب الصليبية على البيزنطيين بسبب محالفتهم مع آل هوهنشتوفن اعداء الكرسي الرسولي في جنوب ايطاليا

ولكن سياسة الكرسي الرسولي تغيرت فجأةً . قال ديهل : « شعر البابا اينوكنتس الرابع بالمصلحة الكبرى للبابوية في فصم المحالفة بين اليونان والالمان؛ وقد غرَّهُ ايضاً المجد الذي يعود عليه فيما لو تمَّ اتحاد الكنيستين على يده؛ وفهم اخيراً انه من العبث بذل الجهود لمساعدة مملكة اللاتين في القسطنطينية، وقد قاربت التلف . فوجّه سياسته في سبلٍ جديدة » . فارسل سفارةً الى يوحنا ڤاتاتزيس في نيقية سنة ١٢٤٩؛ وهذا الملك ارسل سفارةً الى البابا في رومة . ولكن لما عادت سفارته الى نيقية سنة ١٢٥١ كان اهتمامه قد تحوَّل الى وجهةٍ اخرى : لانه صار يريد استرجاع القسطنطينية من يد الافرنج

٥ — على ان البابا اينوكنتس الرابع لم يعدل عن قصده واستمرّ يفاوض الروم في الاتحاد، الى ان توصَّل في سنة ١٢٥٣ الى الاتفاق معهم على مشروع جميل لم

(١) اشار بطريرك القسطنطينية جرمانس الثاني في رسالته الى البابا الى « ضغط كنيسة رومة واستبدادها وبخلها وجشعها » وتكلَّم على « بولس الرسول الذي جابهَ بطرس » . وكان في جواب البابا غريغوريوس التاسع الى البطريرك « شيء من المرارة » ايضاً، على قول الاب فاييه الصعودي

يسبق لهم قط ان قبلوا بمثله . وها هي اهم شروط هذا الاتفاق : الاعتراف برئاسة البابا؛ يمين الخضوع له التي يقسمها رؤساء الكنيسة اليونانية؛ قبولهم سلفاً بكل ما يقرره البابا في المستقبل ما دام لا يخالف قرارات المجامع القديمة؛ رفع الاستئناف اليه في القضايا الخاصة بكبار رجال الاكليرس البيزنطي؛ قبول سلطته في مسائل الايمان والتهذيب ما دام لا يخالف القوانين القديمة والكتب المقدسة؛ رجوع بطريرك القسطنطينية الرومي الى مركزه؛ اما البطريرك اللاتيني فلا يكون له ولاية الا على اللاتين ؛ تلاوة قانون الايمان في الشرق بدون اضافة « والابن » اليه؛ الغاء امبراطورية الافرنج في القسطنطينية

ولكن وفاة البابا والامبراطور معاً في سنة ١٢٥٤ حالت دون تحقيق هذا المشروع . وكان البابا الجديد اسكندر الرابع مستعدًّا لاتمام السعي، ولكن ثيوذورس الثاني لَسكاريس لم يكن فيه من الاستعداد للاتحاد ما كان في سالفه . فصار يحاول وعمل على التسويف والمطاولة . فأرسل السفارات الى رومة في سنة ١٢٥٤ ثم في سنة ١٢٥٦ ولكن بدون جدوى

وفي اول كانون الثاني سنة ١٢٥٩ تبوّأ ميخائيل الثامن الباليولوغس العرش البيزنطي في نيقية (بعد ان سمل عيني الملك القاصر يوحنا لسكاريس)، وعمل على استعادة القسطنطينية من يد الافرنج . فقهرهم ودخل العاصمة في ١٥ آب سنة ١٢٦١ . ثم باشر فوراً في مفاوضة البابا للوصول الى الاتحاد[1]

(١) ان اهمّ المعلومات المنشورة في هذا الفصل، ولاسيما بشأن الحروب الصليبية، مستقاة من الفصلَين الثالث عشر والرابع عشر من المقالة الممتعة، او بالحري من المؤلَّف الكبير، الذي نشره حضرة العالم الفاضل الاب فاييه الصعودي S. Vailhé, A. A. في القسم الثاني من المجلد الثالث من « قاموس اللاهوت الكاثوليكي »، عمود ١٣٠٧-١٥١٩، تحت كلمة « كنيسة القسطنطينية ».

Constantinople (Eglise de) dans le Dictionnaire de Théologie Catholique, tome III, 2e partie, col. 1307-1519 ; publié sous la direction de Vacant, puis de Mangenot ; Paris, 1908. Voir surtout les chapitres XIII et XIV de cette étude.

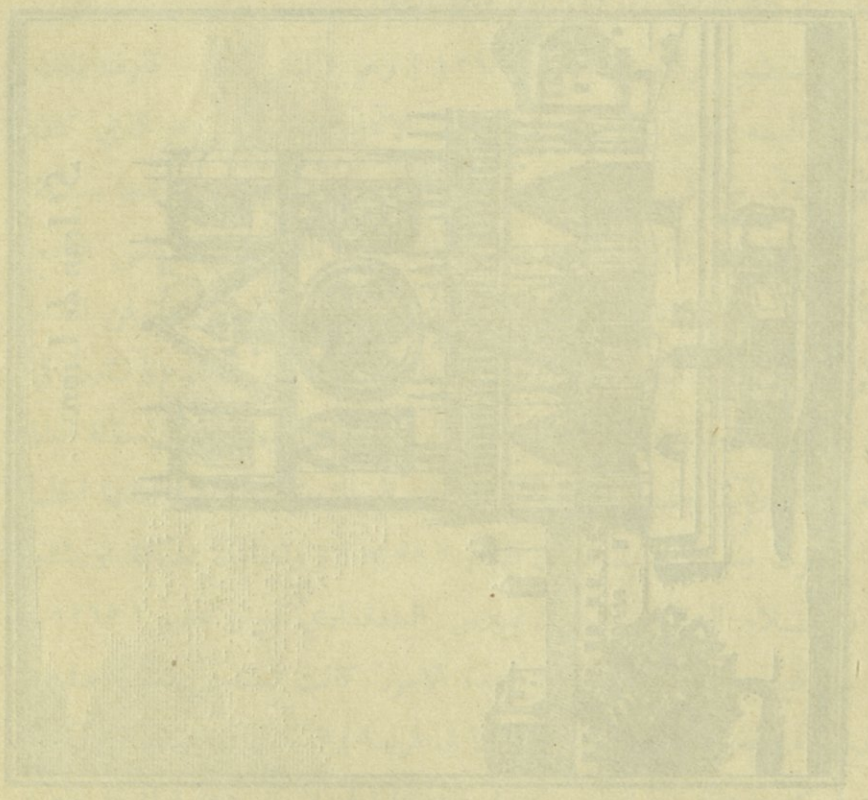

ميخائيل الثامن پاليولوغس
ملك الروم الذي وقّع الاتحاد
في مجمع ليون سنة ١٢٧٤

كنيسة القديس يوحنا الكاتدرائية في ليون
حيث التأم مجمع ليون المسكوني سنة ١٢٧٤

الفصل الرابع

في مجمع ليون سنة ١٢٧٤

١ً في الحوادث التي هيّأت مجمع ليون

لما تبوأ البابا الفرنسي أُربانس الرابع (١٢٦١–١٢٦٤) الكرسي الرسولي سعى اولاً في تنظيم جيش من الصليبيين على القسطنطينية لاعادة الحكم الافرنجي فيها . ولكن مفاوضات ميخائيل الثامن باليولوغس معه افضت الى تركه ذلك المشروع والى قبوله شروط الاتحاد التي عرضها ذلك الملك عليه . فقد اعترف ميخائيل بأن « البابا هو رئيس جميع الكهنة ومعلم الكنيسة الجامعة » . وتبودلت السفارات بين الفريقين . وكاد الاتفاق يُوقّع، لولا وفاة البابا

فخلفه اكليمنضس الرابع (١٢٦٥–١٢٦٨) وهو فرنسي ايضاً . فاوفد الملك ميخائيل الثامن اليه سفارة لمفاوضته في شروط الاتحاد طبقاً للمشروع الذي كان سالفه موافقاً عليه . ولكن الاحوال السياسية كانت تغيّرت وتغيرت معها سياسة البابا الجديد : ذلك ان شارل دنجو Charles d'Anjou ، الذي كان اربانس الرابع اقامه ملكاً على صقلية ونابولي، قد انتصر على مناوئيه آل هوهنستوفن اعداء الكرسي الرسولي، وزوّج ابنته الى ابن ملك القسطنطينية اللاتيني المخلوع؛ فثارت في نفسه جميع مطامع النرمنديين في امتلاك بلاد الروم، وصار يعمل على استمالة البابا الى سياسته . — ومن جهة اخرى كانت احوال الشرق قد طرأ عليها اعظم الحوادث : سقوط بغداد في يد المغول التتار (١٢٥٨)؛ وتضاؤل مملكة اورشليم الصليبية؛ واعتلاء السلطان المملوك بيبرس البندقداري عرش مصر (١٢٦٥) واستيلاؤه على قيصرية وصفد . فكل هذه الامور كانت تستدعي بعثة صليبية لمساعدة اورشليم، وجعلت الامراء يتأهبون لها في فرنسا وانكلترا واسبانيا . ولكن شارل دنجو تمكّن بدهائه ونفوذه من تحويل وجهتها : فبدلاً من ذهابها الى فلسطين، اقنع اخاه القديس لويس التاسع ملك فرنسا بالنزول في تونس، قاصداً ان يحوّل الصليبيين بعد ذلك نحو القسطنطينية

فهذه الاحوال كان من شأنها ان تثير في نفس ميخائيل الثامن اعظم المخاوف من سياسة شارل دنجو . لذلك التفت الى البابا، مرسى الخلاص، وألحّ في عقد الاتحاد بين الكنيستين وعرض ان يذهب بنفسه لمحاربة المسلمين في فلسطين اذا كان البابا يضمن له سلامة مملكته من اغتيال الافرنج مدة غيابه في الحرب الصليبية . وفي هذه الاثناء نفسها كان شارل دنجو يفاوض البابا في عزمه على غزوة القسطنطينية واجلاس ملكها اللاتيني المخلوع بلدوين الثاني على عرشها من جديد . فاشتدّ ساعد اكليمنضس الرابع، وصار يرى شروط سالفه على الروم غير وافية بالمرام . فاقترح عليهم شروطاً اكثر وضوحاً وتدقيقاً، وهدّد ملكهم بمحاربته باسلحة شارل دنجو ان لم يتمم الاتحاد طبقاً لها . لكن الاكليرس البيزنطي عارض في قبول تلك الشروط . ومات اكليمنضس الرابع قبل الانتهاء من المفاوضات، وبقي الكرسي الرسولي ثلاث سنوات شاغراً بعده

ولما اصبح شارل دنجو قابضاً على ناصية الحال ازداد ملك الروم تخوفاً منه؛ فارسل سفارةً الى ملك فرنسا لويس التاسع في باريس « لكي يكون حكَماً في النزاع بين اللاتين واليونان » . لكن هذا الملك القديس اعتذر قائلًا ان « صفة كونه علمانيًّا لا تجيز له التدخل في الامور الكنسية » ووجّه سفارة الروم الى الكرادلة المجتمعين في ڤيتربو بقرب رومة . فالكرادلة عرضوا على السفراء شروط البابا المتوفى اكليمنضس الرابع، تلك الشروط التي ما امكن قبولها سابقاً ولم يمكن قبولها هذه المرة ايضاً . لكن ملك الروم لم يقنط؛ بل ارسل سفارة اخرى الى لويس التاسع، وكان حينئذٍ على رأس حملته الصليبية الثانية في تونس . فعندما وصل السفراء كان الملك مصاباً بالطاعون فحضروا وفاته المقدسة سنة ١٢٧٠ وعادوا على اعقابهم بلا جدوى

٢ً البابا غريغوريوس العاشر (١٢٧١ – ١٢٧٦)

وكان غريغوريوس يزور الاماكن المقدسة بفلسطين عندما وقع اختيار الكرادلة عليه ليكون حبراً اعظم . وكان هناك ايضاً الامير الانكليزي ادوارد (الذي صار فيما بعد الملك ادوارد الخامس)، فاتفق معه على تنظيم حملة جديدة صليبية لانقاذ مملكة اورشليم؛ وشرع ايضاً يفاوض خاقان التتار قُبلاي في محاربة المسلمين . وفي

الطوباوي البابا غريغوريوس العاشر
(١٢٧١ ـ ١٢٧٦)
الذي عقد في عهده مجمع ليون للاتحاد

القديس بطرس الرسول حاملًا المفاتيح
موزاييك من القرن الثاني عشر في كنيسة « خورا »
بالقسطنطينية . الآن « خيرية جامع » .
ـ كان الروم في ذلك الزمان يصوّرون بطرس
الرسول حاملًا مفاتيح الملكوت . واليوم صاروا
يصوّرونه بدونها . . .

عودته الى اوربا مرَّ بالقسطنطينية واظهر احسن الاستعدادات للملك ميخائيل الثامن بشأن الاتحاد حاضًّا اياه على انتهاز هذه الفرصة

وفي شهر اذار سنة ١٢٧٢ اصدر براءة دعا فيها الاساقفة الى عقد مجمع مسكوني في اول ايار سنة ١٢٧٤، في مكان يُعيَّن فيما بعد؛ اما اعمال المجمع فحدَّدها على الوجه الآتي : مساعدة فلسطين، واتحاد الكنائس الشرقية، واصلاح الكنيسة الداخليّ

وبدأت المفاوضات فوراً بشأن اتحاد الكنائس . فأرسل البابا الى بيزنطية سفارةً مؤلفةً من اربعة رهبان فرنسيسيين (بينهم الاخ ايرونيمس الذي صار فيما بعد البابا نقولا الرابع)، ومعهم رسائل الى الملك والى البطريرك يدعوهما بها الى المجمع المنوي عقده . وكان لدى السفراء من التعليمات ما يأتي : ان خضعت كنيسة الروم فوراً، فالكرسي الرسولي يقدّم عونه لمملكتهم؛ وإلا اضطُرَّ الى مسايرة شارل دنجو في سياسته المعادية لهم . وفي الحالة الاولى، يُجري البابا الصلح فيما بين ملك الروم وشارل دنجو، ويقدم الاكليرس البيزنطي والشعب خضوعه لكنيسة رومة امام سفراء الكرسي الرسولي المذكورين الموجودين الآن في القسطنطينية والمفوَّضين بقبول الاتحاد؛ وان لم يرغبوا في اتباع هذه الطريقة فعليهم ان يرسلوا مندوبين من قبلهم يتممون الاتحاد مع البابا قبل المجمع المسكوني او بعده، حالما يصير الصلح بين مملكة الروم ومملكة صقلية ونابولي

وكان ميخائيل الثامن عاملًا على الاتحاد بكل قواه . ولكن اغلب الاكليرس والشعب ما كانوا يؤيدونه « لخوفهم من استعباد الكنيسة الارثوذكسية » . فعقد اجتماعاً عامًّا دعا اليه الاساقفة والاشراف وكل ذوي الكلمة المسموعة؛ وعرض عليهم احتياجات المملكة وضرورة الاستعانة بالغرب؛ ثم بيَّن ان شروط البابا نظريّة اكثر مما هي عمليَّة، لانها في الواقع تترك الكنيسة الشرقية بالحالة التي هي عليها من الاستقلال . ولكن المعارضة كانت عامّة وشديدة . ومما زاد الاضطراب في كنيسة القسطنطينية انها كانت حينئذٍ منقسمة في ذاتها الى حزبين، حزب يؤيد البطريرك ارسانيوس وحزب يؤيد البطريرك يوسف . ولم يكن على رأي الملك في وجوب الاتحاد الا رجال السياسة، وبعض اللاهوتيين الصادقين، والاكليريكيين الإمَّعين الذين لا ضمير لهم ويدينون دائماً بدين ملوكهم . حينئذٍ ارتأى ميخائيل الثامن

استعمال الشدّة، فأخذ يحبس ويعذّب المعارضين؛ وبهذه الوسيلة جلب بعضهم اليه؛ منهم اللاهوتي الشهير يوحنا ڤكُس، الذي صدق واخلص في اتحاده (كما يظهر مما يلي)، وصار اكبر معاون للملك على تحقيق سياسته . وفي شهر ايار سنة ١٢٧٣ بعث الملك الى رومة سفارةً رسمية مؤلفة من بيزنطيين وبعض الفرنسيسيين؛ وعهد اليهم ان يشرحوا للبابا الغيرة التي يعمل بها على الاتحاد، ووعد بارسال سفارة اخرى عندما تهدأ الافكار المتبلبلة

٣ً مجمع ليون المسكوني سنة ١٢٧٤

كان غريغوريوس العاشر قد اصدر في ١٣ آب سنة ١٢٧٣ منشوراً عيّن فيه مدينة ليون مكاناً لاجتماع المجمع المسكوني السابق الدعوة اليه . وقد ترأسه بنفسه وافتتحه يوم ٧ ايار سنة ١٢٧٤ بحضور نحو ٥٠٠ اسقف و٧٠ رئيس دير ونحو ١٠٠٠ اكليريكي آخرين . وفي ٢٤ حزيران وصل ممثلو القسطنطينية، وكان بعضهم موفداً من قبل الملك، منهم رئيس ديوانه جاورجيوس الاكروبوليتي، وبعضهم يمثّل الكنيسة، منهم البطريرك جرمانس الثالث ومتروبوليت نيقية ثاوفانس . اما البطريرك القديم يوسف فلم يرضَ الدخول في المفاوضة وبقي في العاصمة، مصرّحاً بانه يستقيل بمجرّد حصول الاتحاد

وصار لسفراء الروم استقبال حافل، وتبادلوا قبلة السلام مع الحبر الاعظم والكرادلة . ثم انهم قدموا للبابا رسالة الملك ورسالة وليّ عهده الامير اندرونيكس ورسالة اخرى موقعة بامضاءات عدد عظيم من الاساقفة ورجال الاكليرس؛ وقرروا انهم جاءوا الى المجمع ليظهروا خضوعهم لكنيسة رومة ويتعلموا منها الايمان . ولما حضروا قداس البابا يوم عيد الرسولَين بطرس وبولس رتّلوا جميعاً قانون الايمان باللغة اليونانية مكررين ثلاث مرات جملة «وبالروح القدس المنبثق من الآب والابن» . وفي جلسة ٦ تموز تليت الرسائل المذكورة فكانت تحتوي على الامور الثلاثة الآتية، وهي : الاعتراف برئاسة البابا، وقبول مبدإ رفع الاستئناف اليه، وذكر اسمه في الليترجيا . وقد اعاد الملك صورة الايمان، التي كان البابا قد طلب منه الموافقة عليها، بعد ان وقّعها بامضائه؛ وطلب ان تستمر تلاوة قانون الايمان في كنائس الروم على الوجه الذي كانوا يتلونه به سابقاً، وان يبقوا محافظين على جميع

طقوسهم التي لا تخالف الايمان او وصايا الله او الكتاب المقدس او تعاليم المجامع المسكونية السابقة او اقوال الاباء . وصرّح الاساقفة الروم في رسالتهم انهم دخلوا في وحدة الكنيسة، وشكروا ملكهم على ما بذله من الجهود في هذا السبيل، وقالوا انه اذا كان البابا يرضى بتصريحات مندوبيهم فهم مستعدون فوراً لان يعيدوا الى الحبر الروماني كل ما كان سلفاؤهم يؤدونه له من الاكرام قبل الانفصال . ثم ان رئيس ديوان الملك حلف اليمين على ذلك باسم مولاه . حينئذٍ رنّم البابا بصلاة الشكر، وبعده رنّم اللاتين بقانون الايمان باللاتيني، ورنّم به الروم باليوناني مكرّرين مرتين عبارة « المنبثق من الاب والابن »

وفي جلسة ١٧ تموز، وهي الاخيرة خطب البابا فهنأ الاباء المجتمعين بكونهم حقّقوا غرضين من الاغراض التي التأم المجمع لاجلها، وهما اتحاد الكنيستين والشروع في تقديم الاسعاف للارض المقدسة . وفي اول تشرين الثاني سنة ١٢٧٤ نُشرت قوانين المجمع في ٣١ فصلاً[1]

٤ً بعد مجمع ليون

بعد رجوع سفراء الروم الى القسطنطينية أُعيد اسم البابا الى الذبتيخا؛ واجتمع الاساقفة فقرروا اعتبار البطريرك يوسف متنازلاً، لان الشرط الذي كان علّق عليه استقالته (وهو الاتحاد) قد تحقق . وفي ١٦ كانون الثاني سنة ١٢٧٥ أُقيمت حفلة دينية كبيرة تليت فيها الرسالة والانجيل باليونانية واللاتينية ونودي بالبابا « حبراً اعظم على جميع الكنيسة الرسولية وبابا مسكونيًّا » . وفي ٢٦ ايار من السنة نفسها انتُخب يوحنا قِسُّس السابق ذكره بطريركاً على الكرسي القسطنطيني

ولكن العلاقات مع الكرسي الرسولي لم تتيسر بسهولةٍ، بسبب صعوبة المواصلات في ذلك الزمان، وخصوصاً بسبب تعاقب اربعة باباوات على عرش رومة في زمن قصير[2] . فحالت هذه الامور دون تتميم عمل الاتحاد كما يرام . ولا يمكن

---

(١) في تلك السنة مات القديس توما الاكويني وهو ذاهب الى المجمع، والقديس بونافنتورا الذي حضر المجمع وكان له فيه تأثير على ممثلي الروم

(٢) توفي غريغوريوس العاشر في سنة ١٢٧٦، فجلس على الكرسي الرسولي في تلك السنة اينوكنتس الخامس، وادريانس الخامس، ثم البابا يوحنا الحادي والعشرون (سنة ١٢٧٦-١٢٧٧)، ثم نقولا الثالث (سنة ١٢٧٧-١٢٨٠)

اتهام الروم بالتهامل وسوء النية، فان كتابات الملك ووليّ عهده والبطريرك واعمالهم تدلّ كلها على اجتهادهم في تطبيق المبادئ المتفق عليها. وقرر سينودس القسطنطينية في نيسان سنة ١٢٧٧ «خضوعَ اعضائه للبابا، واعترافهم برئاسة الكرسي الرسولي، وتحققهم من ان ايمان الكنيسة الرومانية مطابق تماماً لايمان كنيسة الروم، واعتقادهم بانبثاق الروح القدس من الاب والابن». وكانت مساعي الباباوات في هذه المدة ترمي الى غرض واحد، وهو ان يجدد الملك وابنه والبطريرك وكبار الاكليرس، كلٌّ واحد بشخصه، امام مندوبي الحبر الاعظم في القسطنطينية، يمين الامانة التي اقسمها بالنيابة عنهم ممثلوهم في مجمع ليون. ففعل الروم ما طُلبَ منهم وكتب الملك الى البابا ينبئه بذلك

على ان حزب المعارضة في الاتحاد لم ينحلّ، بالرغم من تشديد الملك ميخائيل. فعقد الاساقفة المعارضون مجمعاً حرموا فيه البابا والملك والبطريرك. فحرمهم البطريرك يوحنا قَكّس في ١٦ تموز سنة ١٢٧٧ وظنّ الملك ميخائيل الثامن انه نال بغيته

حرم الملك ميخائيل الثامن باليولوغس

رأينا كل ما ابداه هذا الملك من حسن النية بقصد الاتحاد الحقيقي؛ لا بل نرى اليوم ان وسائل العنف التي لجأ اليها احياناً قد تجاوز بها حدود الحرية الدينية، كل ذلك خدمةً لفكرة الاتحاد. ومع هذا لم يكن حظه سعيداً في علاقاته بالباباوات، وما ذلك الا بسبب ضغط السياسة الافرنجية على هؤلاء الاخيرين، كما سترى

اجتهد البابا نقولا الثالث المشار اليه ان يحفظ التوازن بين السياستين اللتين كانتا تتجاذبان نفوذ الحبر الاعظم: سياسة ميخائيل الثامن البيزنطية، وسياسة شارل دنجو ملك صقلية. اما خلفه، مرتينس الرابع (١٢٨١ — ١٢٨٥) الذي كان فرنسياً، فجلس على الكرسي الرسولي بنفوذ شارل دنجو، ولذلك مال بسياسته الى مساعدته على البيزنطيين. فبدأ اولاً بان استقبل اسوأ استقبالٍ المطارنة الذين ارسلهم ميخائيل الثامن الى رومة لتهنئته بجلوسه. وفي ١٨ تشرين الثاني سنة ١٢٨١، مع ان الملك المذكور ما كان عمل شيئاً مخلًّا بتعهداته، حرمه البابا كمشاقّ وهرطوقي، ومنع الامراء المسيحيين من مساعدته تحت طائلة الحرم، وحلّ من يمين الامانة كلَّ الذين كانوا اقسموها له

فاحتدم الملك غيظاً وفكّر في قطع علاقة الاتحاد التي اوجدهـا مجمع ليون . ولكنه لم يفعل ذلك؛ واكتفى بأن منع من ذكر مرتينس الرابع في الصلوات الليترجية، مشيراً بذلك الى انه لا يريد الانفصال عن الكرسي الرسولي بل انما يريد قطع علاقاته بالبابا المشار اليه شخصياً، لانه اظهر نفسه عـدوّاً لليونان . لكن ذلك البابا حرمه مرةً ثانيةً في ٧ ايار سنة ١٢٨٢، ومرةً ثالثة في ١٨ تشرين الثاني من السنة نفسها، وقرّر بانه ساقط عن عرشه ومحروم من املاكه . فلم يحفـل الملك بهذه الحروم، واستمرّ الى آخر لحظة من حياته محافظاً على الاتحاد الذي عقده في ليون، ومات عليه في ١١ كانون الاول من تلك السنة، فيما كان يحارب احـد الامراء الثائرين عليه

وقد منحه الله ان يرى قبل وفاته اندحار عدوه شارل دنجو الذي لاجله انزل به مرتينس الرابع كل هذا الظلم؛ فانتصر عليه انتصاراً كبيراً في بلغراد وردّه على اعقابه الى البحر . ثم ان ملك الاراغون حليف ملك الروم، حارب شارل دنجو ايضاً وانتصر عليه في نفس مملكته؛ وعندئذٍ قام الصقليون في كل الجهات يوم اثنين الفصح من سنة ١٢٨٢ قومة رجل واحد، في الساعة التي كانت اجراس الكنائس تدعو الناس الى صلاة الغروب، وذبحوا جميع الفرنسيين الذين كانوا في بلادهم . وهكذا دالت دولة شارل دنجو ونجا البيزنطيون من أذاها

٦ً انتصار المعارضين في الاتحاد

خلف ميخائيلَ على عرش القسطنطينية ابنُه اندرونيكس، وكان عمره وقتئذٍ ٢٤ سنة . وفي الحال حصل ردُّ فعلٍ عنيف مضادّ للاتحاد . فاعتذر الملك الجديد من تصرّفه الاتحادي السابق بقوله انه كان حديث السنّ وعاملًا تحت تأثير الخوف من والده، والتمس الصفح عن زلّته . وحرم جثة والده الدفن الكنسي « لانه مات متحداً مع اللاتين » . والزم والدته ان تجحد جهراً انضمامها الى الاتحاد . واضطرّ البطريرك يوحنا فكُس الى الانسحاب في احد الديورة، وأعاد البطريرك القديم يوسف الى الكرسي القسطنطيني . وأعاد من الحبس والمنفى الاساقفة والكهنة والرهبان الذين كان والده قد غضب عليهم . وحبس ونفى بدلهم رجال الاكليرس الذين اصرّوا على الاتحاد . وعقد في كنيسة ثلاشرناس مجمعين لقبول الذين جحدوا الاتحاد او لحرم الذين استمرّوا متمسكين به

وقد ادرك خلفاء مرتينس الرابع خطأ سياسة هـذا البابا، وحاول البابا نقولا الرابع سنة ١٢٩٠ حَمْل الملك اندرونيكس على العدول عن سياسته . فذهبت مساعيه ادراج الرياح . ولم يبقَ من كبراء مملكة الروم محافظاً عـلى الاتحاد إلّا البطريرك المخلوع يوحنا ڤكس، وذلك برغم الوعد والوعيد . وقـد مات منفيًّا سنة ١٢٨٨

وفي تلك الاثناء، كان الصليبيون يخسرون آخر مراكزهم في الشرق (بسقوط عكا في ١٨ ايار سنة ١٢٩٠)؛ والمغولُ التتارُ يدينون بالاسلام بدلاً من ان يتخذوا النصرانية ديناً لهم؛ والاتراك العثمانيون يؤسسون سلطنتهم في بروصه (١٢٩٩) ويحوزون انتصارات عديدة على الروم

بعد ذلك بقليل قضت احوال السياسة عـلى الباباوات ان يغادروا رومة (١٣٠٤)، ثم ان يقيموا في اڤينيون حقبةً طويلة من الزمان (١٣٠٩ — ١٣٧٧)، عقبها « انشقاق الغرب الكبير » (١٣٧٨)

المراجع

بشأن كل ما ذكر في هذا الفصل، يمكن مراجعة المصادر الآتية :

مقالة الاب ڤاييه الصعودي في « كنيسة القسطنطينية » المنشورة في « قاموس اللاهوت الكاثوليكي »، والمشار اليها في مراجع الفصل الثالث، ص ٣٤

كتاب التاريخ الكنسي، تأليف هنريون وڤِرڤُرست، المجلد ٢٣ Histoire Ecclésiastique, par Henrion, continuée par Vervorst, tome XXIII, Paris, 1866.

كتاب تاريخ المجامع، تأليف هفله ولكلرك، الجزء الاول من المجلد السادس، ص ١٥٣ — ٢١٨ Histoire des Conciles d'après les documents originaux, par Ch.-J. Heffelé et H. Leclercq, tome VI (1re partie), p. 153-218. Paris, 1914.

الفصل الخامس

في العلاقات بين رومة والقسطنطينية في المدة التالية لمجمع ليون، من سنة ١٣٠٤ الى مجمع فلورنسا سنة ١٤٣٩

أ استمرار تهديد الغرب للروم بغزو القسطنطينية

ان حبوط المساعي التي بذلها شارل دنجو — على ما رأينا في نهاية الفصل السابق — لم تُزِل من افكار الغربيين الرغبة في فتح القسطنطينية وإعادة تسلّطهم عليها . فالبابا بندكتس الحادي عشر (١٣٠٣ — ١٣٠٤) والبابا اكلمنضس الخامس (١٣٠٥ — ١٣١٤) حاولا عبثاً اثارة حرب صليبية جديدة لاعادة مملكة الافرنج في الارض المقدسة « ولانقاذ مملكة الروم من تسلّط المشاقين عليها »، الاول تحت تأثير الكنت شارل اخي ملك فرنسا فيليب الرابع الجميل، والثاني تحت تأثير شارل دي ڤالوا ملك الاراغون . وكان الخطر التركي قد تفاقم فعلاً . ولكن الامراء والشعوب كانوا مشغولين عن الحرب الصليبية بمصالح اخرى؛ فان اهتمامهم بمصير الدعاوي المقامة لحلّ « الفرسان الهيكليين »، ولاسيما بمصير ثرواتهم العظيمة وممتلكاتهم الشاسعة، كان يهمّ الناس في اوربا اكثر من مشاكل السياسة الدينية الخارجية

على ان الاتراك كانوا كل يوم يحرزون في الشرق نصراً جديداً، مما جعل مملكة الروم في خطر جسيم . فالملك اندرونيكس الثاني، — الذي رأينا ما ابداه من الغيرة في محوِ ما كان انشأه والده من معالم الاتحاد، والذي كان البابا اكلمنضس الخامس قد رشقه بالحرم سنة ١٣٠٧ — فكّر جدّياً في إعادة الاتحاد مع رومة وأرسل السفراء في ذلك سنة ١٣٢٦ الى ملك فرنسا والحبر الروماني الذي كان في اڤينيون . وقد توصّل الايطالي مارينو سانوتو البندقي الى هزّ العالم الغربي برسائله الى البابا والملوك لتوجيه همتهم الى معضلة الاتحاد . فأرسل البابا يوحنا الثاني والعشرون (١٣١٦ — ١٣٣٤) رسولاً مفوّضاً الى اندرونيكس الثاني . فعند وصول المفوّض الى القسطنطينية وجد الملك مشغولاً بمحاربة حفيده اندرونيكس

الشاب[1] الذي كان ثائراً عليه؛ فلم يكن من المستطاع الدخول في مفاوضةٍ ما بشأن الاتحاد.

وأرسل البابا المذكور سفارةً اخرى سنة ١٣٣٣ الى الملك اندرونيكس الثالث الشاب . وكان الخطر التركي قد تفاقم حينئذٍ، وكان الغربيون يعتبرون ذلك قصاصاً الهيًّا لمملكة الروم الشرقية التي احبَّت الانفصال عن وحدة الكنيسة . ولكن لم تصل تلك السفارة الى نتيجة

٢ً الراهب برلام ومساعي الاتحاد

على ان الضرورة الجأت اندرونيكس الثالث في سنة ١٣٣٩ الى ارسال سفارة جديدة الى البابا بندكتس الثاني عشر (١٣٣٤–١٣٤٢) في اڤينيون . وكان الراهب برلام، رئيس دير المخلص في القسطنطينية، مفوَّضاً خصوصيًّا من قبل الملك. وكان النزاع بين الشرق والغرب يدور حول هذه المسألة وهي : مَن من الفريقين يجب عليه ان يخطو الخطوة الاولى ؟ فيقول الروم للاتين « ساعدونا اولاً على محاربة الاتراك، وحينئذ نتَّحد »؛ ويقول اللاتين للروم « اتحدوا اولاً، ثم نساعدكم على الاتراك » . فقال برلام للغربيين : « لو عرض التتار الوثنيون عليكم ان يحاربوا معكم المسلمين، لكنتم قبلتم عرضهم، فكيف لا يكون لكم في الروم ثقةٌ معادلة لثقتكم بالوثنيين ؟ » وقد كان استقبال برلام في اڤينيون منطوياً على شيء من التحقير؛ ولما كتب البابا الى ملك فرنسا يخبره بالواقع لم يشأ ان يعترف لاندرونيكس بلقب « ملك »، واشار الى « بطاركة القسطنطينية المزعومين » . ومع ذلك ارسل مع برلام سفراء الى اندرونيكس . الا ان مهمتهم لم تنجح، بسبب معارضة اعداء برلام[2]

٣ً الاتحاد في زمن الملك يوحنا الخامس (١٣٤١-١٣٩١)

بقيت المفاوضات مستمرة من الجانبين طول هذا القرن الرابع عشر . فمن جهة ترى الروم، وقد احرج الترك مركزهم، يلتمسون من البابا ارسال حملة صليبية

(١) الذي توصَّل بعد سنتين، اي سنة ١٣٢٨، الى خلع جدّه والجلوس مكانه على سدّة الحكم الى سنة ١٣٤١

(٢) كان برلام كاتباً مجيداً، وكان له عدوّ بين كتَّاب ذلك العصر يُدعى نيكيفورس غريغوراس . فاثار هذا الاخير حزباً بين الروم لمناوأة عدوّه واحباط سعيه

لنجدتهم ويعدون بالاتحاد؛ ومن جهة اخرى ترى البابا يطالبهم اولاً بالاتحاد ويسعى مع ذلك لاغاثتهم، ولكن بدون نجاح يُذكر، لان اهتمام الغربيين كان قد تحوّل الى جهات ومواضيع اخرى

ففي سنة ١٣٤٣ ارسل الملك الشاب يوحنا الخامس باليولوغس — الذي كان يملك تحت وصاية امه الملكة حنة الفرنسية الاصل — رسالة الى البابا اكلمنضس السادس (١٣٤٢—١٣٥٢) ممتلئة من الاحترام للكرسي البطرسي . وقد طلب هو ووالدته وقائد اساطيله جيشاً برياً واسطولاً بحرياً لمقاتلة الاتراك . فكان الجواب كالعادة : الاتحاد اولاً ... ومع ذلك ارسل البابا اسطولاً ساعد البيزنطيين على استرجاع ازمير من يد الاتراك في ٢٩ تشرين الاول سنة ١٣٤٤

وفي اواخر سنة ١٣٤٧ ارسل الملك يوحنا السادس كنتكوزينس[1] رسالةً الى البابا يعتذر فيها من تزويجه بنته من سلطان الاتراك، ويعرض اقتراحات جديدة . ولما لم يردّ البابا عليه كتب اليه ثانيةً في ايار سنة ١٣٤٩ . فاوفد اليه اكلمنضس الخامس اسقفين لمفاوضته في الامرين معاً الاتحاد والحملة الصليبية . فكان موقف كنتكوزينس يتلخص فيما يلي : ان مسؤولية الانفصال واقعة على اللاتين؛ ومع ذلك فهو مقتنع بضرورة الاتحاد وعامل له؛ ولكنه يرى ان هذا الاتحاد لا يمكن ان يحصل الّا في مجمع مسكوني يحدّد الحقائق المختلف عليها، ويحسن ان يعقد هذا المجمع في مدينة ساحلية متوسطة بين الشرق والغرب . ومع ان هذا الاقتراح كان منافياً لقرارات مجمع ليون المنعقد سنة ١٢٤٧، قد رضي البابا به وكتب الى الملك البيزنطي انه سيدعو الى عقد المجمع حالما تخفّ الانقسامات الواقعة الآن بين الملوك المسيحيين . ولكنه توفي سنة ١٣٥٢، فيما كان التزاحم على الكسب التجاري يحمل جمهوريتي جنوه والبندقية على الاقتتال في مضيق البسفور نفسه

بعد ترهّب يوحنا كنتكوزينس، بقي يوحنا الخامس باليولوغس مالكاً وحده . فأرسل سفارةً الى البابا اينوكنتس السادس (١٣٥٢ — ١٣٦٢) في اڤينيون حيث

(١) كان وصيّاً على يوحنا الخامس ثم ثار عليه بمساعدة الاتراك، وبعد ذلك زوّجه احدى بنتيه (وكان زوّج الاولى الى اورخان سلطان بني عثمان) واغتصب الملك وشارك فيه يوحنا الخامس . ثم في سنة ١٣٥٤ نزل عن العرش وترهّب في احد الاديار . وبقي يوحنا الخامس وحده الى حين وفاته سنة ١٣٩١

وصلت في شهر حزيران سنة ١٣٥٦ وكانت تحمل رسالةً الى البابا يقرُّ فيها الملك بخضوعه للكرسي الرسولي ويلتمس مساعدة اللاتين في الحرب . فبادر الحبر الاعظم الى مفاوضة الامراء المسيحيين في قبرس ورودس والبندقية؛ ولم يستطع ان يفاوض في ذلك فرنسا وانكلترا اذ كانتا حينئذٍ مشغولتين ببداءة الحرب العظيمة التي دامت بينهما مئة سنة . وعيّن راهباً كرمليًّا نائباً عنه في القسطنطينية، هو الطوباوي توما . فجمع هذا الراهب اسطولاً وقاده بذاته الى الشرق، وكان يحارب ويعظ معاً؛ وبفضائله ومحبته الاخوية عمل لاجل الاتحاد اكثر من كثيرين غيره . ولما عاد الى اڤينيون سنة ١٣٦٣ لمقابلة البابا أُربانس الخامس (١٣٦٢—١٣٧٠) وجد عنده ملك فرنسا وملك الدنمرك . فاثار فيهما النخوة والحماسة، وحرَّك الافرنج كلهم ؛ فقرروا تنظيم حرب صليبية جديدة لانقاذ الروم؛ وارسلوا اسطولاً ضرب الاسكندرية سنة ١٣٦٥ . ولكن كل هذه الاستعدادات كانت ناقصة، وكانت مصالح الدول المادية كثيراً ما تعاكس فكرة هذه الحرب وتطيل المفاوضات على غير جدوى . واخيراً جاء الملك يوحنا الخامس بذاته الى رومة سنة ١٣٦٩ وقرر رسميًّا بحضور ثلاثة كرادلة انه جحد الانشقاق وعاد الى الاتحاد، وقد حذا حذوه عدَّة أُمراء ؛ ويقال ان يوحنا كنتكوزينس نفسه ترك ديره وجاء الى رومة وانكر الانفصال، ثم عاد الى منسكه . ولكن مساعي البابا لتنظيم الحملة الصليبية ذهبت عبثاً بسبب انشغال الدول بأُمورها الخصوصية، ولاسيما بسبب انهماك جمهورية البندقة بالتجارة والارباح المادية . فان معاطاتها مع الاتراك من جهة ومع الروم من جهةٍ اخرى كانت تدرّ عليها المكاسب الطائلة؛ وكان صيارفها يسلفون المال لملوك القسطنطينية بالربا ويضاعفون رؤوس اموالهم . فعاد يوحنا الخامس من ايطاليا الى مملكته ولم يستفد من هذه الرحلة الا الخزي وخيبة الامل . فاضطرّ الى الاعتراف بسيادة السلطان مراد الاول ودفع له الجزية وسلّم اليه أحد اولاده رهينةً وعاهد على ان يخدم بنفسه في جيوش السلطان للذود عنه

فنتج من ذلك ان شوكة الاتراك قويت . فتوغلوا في فتوحاتهم في اوربا وغزوا بلاد المجر وذبحوا ثلاثة الاف اسيراً فرنسيًّا كانوا جاءوا لمساعدة الروم سنة ١٣٩٥ ؛ وكان السلطان بايزيد الاول يقول انه سيستولي على رومة ويُطعم حصانه شعيراً على المذبح الكبير في كنيسة القديس بطرس . ولكن تيمور لنك خاقان المغول حاربه واخذه اسيراً في انقرة سنة ١٤٠٢

٤ً مجمع قُسطَنسة (١) (١٤١٤ – ١٤١٨)

حدث في ذلك الزمان، سنة ١٣٧٨، عقب وفاة البابا غريغوريوس التاسع الذي كان عاد من اڤينيون الى رومة، ان الكرادلة الايطاليين انتخبوا حبراً اعظم البابا أُربانس السادس، فأقام في رومة (١٣٧٨ — ١٣٨٩)، وان الكرادلة الفرنسيين اجتمعوا بعد ذلك باربعة اشهر وانتخبوا حبراً اعظم آخر سمّوه البابا اكلمنضس السابع (١٣٧٨ — ١٣٩٤)، فأقام في اڤينيون . وكان ذلك بدء « انشقاق الغرب الكبير ». فلما مات كل من الحبرين المذكورين اجتمع كرادلته وانتخبوا خلفاً له. وهكذا انشقّت اوربا الكاثوليكية الى حزبين، فبعض الدول اعترف بهذا البابا، وبعضها اعترف بذاك . ودام الحال على هذا المنوال الى سنة ١٤٠٩، اذ عُقد مجمعٌ في مدينة پيزا بايطاليا، باتفاق كرادلة الفريقين، ولكن بدون رضى الحبرين المذكورين . فانتخب هذا المجمع حبراً اعظم ثالثاً، من غير ان يستطيع إقالة الاثنين الاولين . فصار ثلاثة باباوات وحينئذٍ زيد الطين بلّةً

فاتفق امبراطور المانيا سيجسمُند مع البابا يوحنا الثالث والعشرين المنتخَب في مجمع پيزا على عقد مجمع جديد في قسطنسة . فعُقد في سنة ١٤١٤ ودام انعقاده الى سنة ١٤١٨؛ وقيل ان عدد رجال الاكليرس الذين وفدوا اليه بلغ نحو ١٨ الفاً، وعدد العلمانيين من الامراء والعلماء نحو ١٠٠ الف ! فأقال هذا المجمع البابا يوحنا الثالث والعشرين المذكور في شهر ايار سنة ١٤١٥؛ واستقال غريغوريوس الثاني عشر بابا رومة في شهر تموز سنة ١٤١٥؛ واقال المجمع بندكتس الثالث عشر بابا اڤينيون في شهر تموز سنة ١٤١٧؛ ثم انتخب حبراً اعظم جديداً مرتينس الخامس (١٤١٧ — ١٤٣١) . وهكذا انتهى « الانشقاق الكبير » اذ اعترف الغرب كله بهذا البابا وحده

وفي ١٩ شباط سنة ١٤١٨، وصل الى المجمع المنعقد في قسطنسة وفدٌ من القسطنطينية مرسلٌ من قبل الملك مانويل الثاني (١٣٩١ – ١٤٢٣) والبطريرك يوسف الثاني (١٤١٦ – ١٤٣٩) معاً، واستُقبل بفرحٍ . ولكن وصوله جاء

---

(١) قسطنسة هي بالالمانية Konstanz ، وبالفرنسية Constance ، مدينة في اقليم بادن بالمانيا، واقعة على البحيرة المعروفة باسمها والتي تفصلها عن بلاد سويسرا

متأخراً، اذ ان البابا مرتينس الخامس كان قد قرّر حل المجمع، لاسباب طويلة لا محلّ هنا لذكرها . وقد صدر فعلاً قرار الحلّ في شهر نيسان، من غير ان يتمّ شيء كثير من مشروع اصلاح الكنيسة الذي اجتمع المجمع لاجله، ومن غير ان تُبحث مسألة اتحاد الكنيسة الشرقية[1] . ولكن مرتينس الخامس بعث سفارةً الى القسطنطينية في سنة ١٤٢٢ على رأسها احد الرهبان الفرنسيسيين، انطونيو مسّانو . فعلاوةً على صعوبة شروط البابا، كان سفيره، لسوء الحظ، من طبقة الناس الذين يريدون عمل الخير ولكن اساليبهم البعيدة عن الكياسة تُبعد الناس وتنفّرهم . فلما اجتمع بالبطريرك يوسف الثاني واساقفته ملتئمين في كنيسة القديس استفانس وتكلّم عن المهمة التي قدم لاجلها، ارتكب في اقواله متن الشطط واساءَ التعبير حتى انه غاظ جميع الحاضرين . فكان الجواب على اقتراحاته مرسوماً ملكياً بُلّغَ اليه في ١٤ تشرين الثاني سنة ١٤٢٢ جاء فيه ان لاجل الاتحاد يجب عقد مجمع مسكوني في القسطنطينية، ويجب ان يقوم البابا بجزء من نفقات هـذا المجمع؛ وبالطبع لا يمكن التئام المجمع الا بعد عقد الصلح بين الروم والترك؛ ولكن يجب على الكرسي الرسولي ان يبدأ فوراً ويمنع المسيحيين الغربيين، ولاسيما اهالي جنوه والبندقية، وذلك تحت طائلة العقوبات الشديدة، من وضع سفنهم تحت تصرّف الاتراك ليحاربوا بها البيزنطيين

ولما وصل مندوبو الكرسي الرسولي الى ايطاليـا حاملين جواب ملك الروم كان البابا في مجمع سيناً[2] . فرأى اعضاؤه ان الوقت غير ملائم للنجاح حينئذٍ في ايّ محاولةٍ من هذا القبيل، وصرفوا النظر عنه

---

(١) ليس في كتاب « تاريخ المجامع »، تأليف هفله ولكرك، شيء بخصوص سفارة الروم الى مجمع قسطنسة ؛ ولا شيء كذلك بهذا الخصوص في كتاب « تاريخ الباباوات » تأليف باستور Pastor . ولكن « قاموس اللاهوت الكاثوليكي » السابق ذكره يذكر هذه السفارة في المقالة الخاصة بكنيسة القسطنطينية، المجلد الثالث (الجزء ٢)، العمود ١٤٠٠

(٢) كان مجمع قسطنسة قد قرر ان تُعقَد مجامع كل خمس سنوات . بناءً عليه عقـد البابا مرتينس الخامس مجمعاً سنة ١٤٢٣ في مدينـة بافي Pavie ونقله منها الى سِينّاً Sienna – راجع تاريخ المجامع، لهفله ولكلرك، الجزء الاول من المجلد السابع، ص ٦٢٣ – ٦٢٤

٥ بعض حوادث اخرى ذات علاقة بالاتحاد

في سنة ١٤٢٥ توفي الملك مانويل الثاني، الذي كان تنزّل عن العرش وترهب في احد الديورة . اما وصيته الاخيرة لابنه الملك يوحنا الثامن (١٤٢٣ — ١٤٤٨) فكانت : « لم يبقَ لنا من وسيلة للنجاة من الاتراك الا تخويفهم باتحادنا مع اللاتين . فاذا شعرتَ بضغط الاتراك لوّح امامهم بهذا الخطر، واقترحْ على اللاتين عقد مجمع، وابدأ بالمفاوضة، ولكن طاوِلْ وسوّفْ دائماً، وتجنّبْ الدعوة الى هذا المجمع، لانه لا يكون لك منه ادنى فائدة . وذلك لان كبرياء اللاتين وعناد الروم لا يتفقان ابداً، وقد عمّ الفساد كل البلاد . فباجتهادك في عمل الاتحاد لا تتوصّلُ الا الى توطيد الانشقاق، وهكذا تعرّض نفسك للسقوط بين ايدي البربر بلا شفقة »

وفي سنة ١٤٢٧ سقطت مملكة قبرس الصليبية اذ اعترف ملكها بسلطة سلطان مصر ودفع له الجزية

ومن سنة ١٤٢٩ الى سنة ١٤٣١ حاربت بطلةُ فرنسا القديسةُ جانّ درك فأخرجت الانكليز من فرنسا ولكنهم احرقوها حيةً في روان . اما هي فكانت نيّتها بعد إخراج الانكليز من بلادها ان تسير معهم ومع الفرنسيين لمقاتلة المسلمين[1] . . .

وفي سنة ١٤٣٢ سقطت مدينة تسالونيكي (سالونيك) في ايدي الاتراك بعد حصار دام سبع سنين؛ فاعملوا فيها السيف والنار والنهب واخذوا سكانها عبيداً . وكانت حينئذٍ من ممتلكات البنادقة الذين كانوا اشتروها من ملوك الروم قبل ذلك بسنوات قليلة

وكان الملك يوحنا الثامن الپاليولوغس قد ارسل سفارةً في سنة ١٤٣١ الى البابا مرتينُس الخامس . ولكنها علمت في اثناء السفر ان الحبر الاعظم قد توفي فعادت ادراجها الى الشرق . ولما ارتقى افجانيوس الرابع (١٤٣١ — ١٤٤٧) الكرسي الرسولي، أوفد الملك المذكور سفارةً اخرى اليه، فعادت حاملةً اليه الدعوة لحضور المجمع المسكوني الذي عُرف في التاريخ باسم المجمع الفلورنسي او الفلورنتيني

(١) المجلد ٢٤ من التاريخ الكنسي لهنريون في تاريخ السنوات المذكورة

الفصل السادس

في المجمع الفلورنسي واعلان الاتحاد

١ً الرغبة في عقد مجمع كبير للاصلاح . بدء انعقاده في مدينة بال سنة ١٤٣١

كانت النصرانية في حالةٍ يرثى لها في هـذا القرن الخامس عشر، رغم زوال « انشقاق الغرب الكبير » على اثر مجمع قسطنسة، على ما روينا في الفصل السابق . فبينما كان الشرق منفصلاً عن سائر النصرانية والاتراك يغزونه اقليماً اقليماً، كانت الحالة السياسية والادبية في الغرب سائرةً من سيّئٍ الى اسوأ. لذلك كانت الافكار كلها متّجهة الى ضرورة الاصلاح « اصلاحاً عاماً يشمل الرأس والاعضاء » كما كانوا يقولون، ويضمّ شتات الكنيسة الى الوحدة، ويسمح للنصرانية ان تدفع عن ذاتها خطر الاتراك . هذه هي الغايات الثلاث التي من اجلها قرّر البابا مرتينُس الخامس، بالاتفاق مع اباء مجمع سِينَا سنة ١٤٢٤، عقد مجمع مسكوني في مدينة بال[1] سنة ١٤٣١

وقد توفي البابا مرتينس الخامس قبل افتتاح المجمع . فخلفه افجانيوس الرابع (١٤٣١ — ١٤٤٧)، وفي عهده افتتح المجمع في شهر تموز من السنة الاولى لحبريته

٢ً المفاوضات مع القسطنطينية

كان الملك يوحنا الثامن پاليولوغُس قد أرسل في سنة ١٤٣٠ سفارةً الى البابا مرتينس الخامس للمفاوضة في شروط الاشتراك في المجمع . وكان يشايع الملك على رغبته في الاتحاد اكبر الناس نفوذاً في القسطنطينية من اهل الدنيا والدين[1] . وكان الملك قد أنفذ رسولاً من قبلـه الى بطاركة المشرق، اي بطاركة الاسكندرية وانطاكية واورشليم الملكيين، والى ديورة جبل اثوس، ليسبر غورهم ويقف على ارائهم في الاتحاد؛ فكانت الاجوبة على وجه الاجمال موافقةً . فلذلـك جعلت

---

(١) بال Bâle ، وبالالمانية باسل Basel ، مدينة في سويسرا واقعة على نهر الرين، يبلغ عـدد سكانها اليوم نحو مئة وخمسين الفاً، وهي عاصمة احد الاقاليم التي تتكون من اتحادهـا حكومة سويسرا او الجمهورية الهلفيتية

(١) ترى اسماء بعضهم في « قاموس اللاهوت الكاثوليكي » السابق ذكره، الجزء ٢ من المجلد الثالث، العمود ١٤٠٠

كنيسة فرّارا الكاتدرائية
التي بدأت فيها جلسات مجمع الاتحاد سنة ١٤٣٨ - ١٤٣٩
(ص ٥٢)

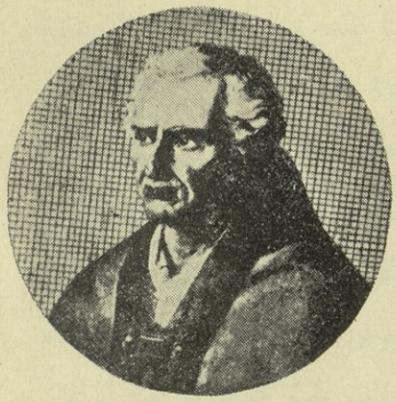

البابا افجانيوس الرابع
الذي دعا الى مجمع الاتحاد ثم اعلن قراراته
سنة ١٤٣٩

كنيسة السيدة والدة الاله الكاتدرائية في فلورنسا
التي تمّ فيها توقيع الاتحاد سنة ١٤٣٩
(ص ٥٥)

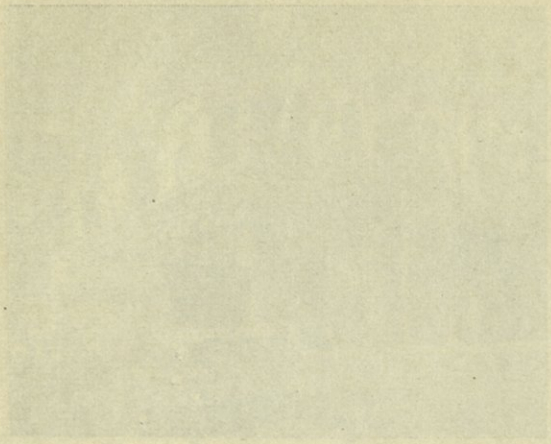

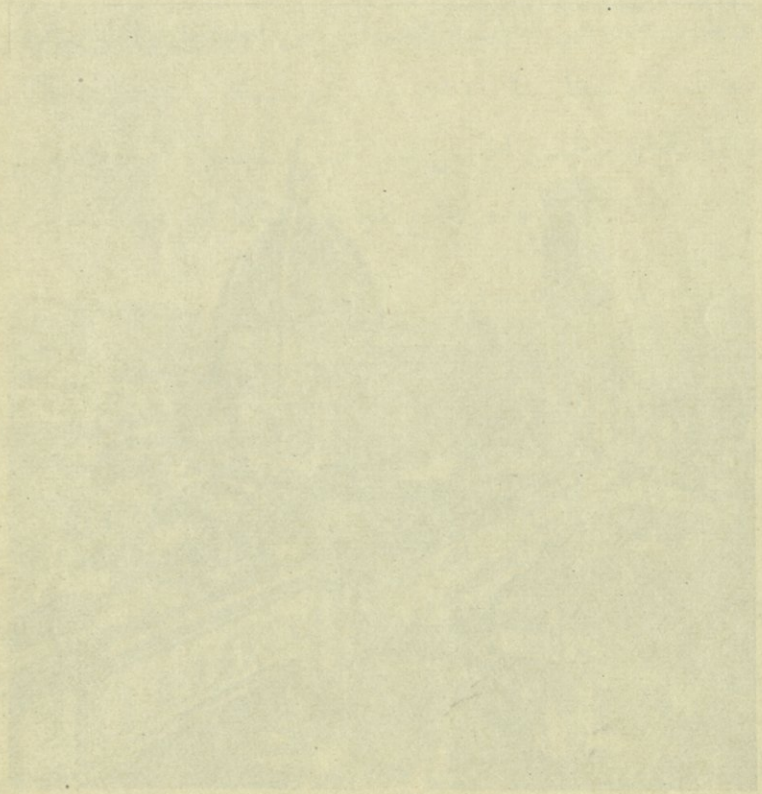

السفارة البيزنطية اساساً لمفاوضاتها حضور الملك يوحنا نفسه مع البطاركة الاربعة وعدد كبير من اساقفة مملكته وامرائها، نحو سبع مئة نفس . ولما كانت خزينة الدولة عاجزةً عن القيام بنفقات هذا الوفد العظيم[٢]، طلب سفراء الملك من البابا تقديم السفن اللازمة لنقلهم، ونفقات السفر والاقامة والعودة، وارسال اسطول لحراسة مدينة القسطنطينية من غارات الاعداء مدة غياب الملك عن عاصمته . وقد رضي مرتينس الخامس بذلك، ولما توفي اتخذ خليفته افجانيوس الرابع على نفسه ان يقوم بكل عهود سالفه من هذا القبيل، واستمرّت المفاوضات بغيةَ الوصول الى الاتفاق على سائر شروط الاشتراك في المجمع

في هذه الاثناء كان المجمع قد بدأ جلساته في بال . ومن المشهور في التاريخ ان الاغلبية بين الاباء اتخذت في ذلك المجمع موقفاً معاكساً لسلطة البابا . فبينما كان افجانيوس الرابع يفاوض سفراء الملك يوحنا الثامن، أرسلت تلك الفئة المناوئة للبابا مندوبين الى الملك المذكور يعرضون عليه شروطهم آملين ان ينحاز الشرق اليهم . ودامت المفاوضات بضع سنوات على هذا المنوال . ولكن الامر الذي يشرّف الشرق هو ان ذوي الشأن في مملكة الروم كانوا دائماً يجيبون على اقتراحات اباء بال المشار اليهم ان الروم اذا ارادوا الاتحاد لا يمكن ان يعقدوه الا مع البابا، لان الفئة الغربية المناوئة لسلطته لا يمكن اعتبارها الا عاملة على شقّ الوحدة، فلذلك لا يستطيعون الاتفاق معها . وبناء عليه قررت القسطنطينية ان تعتبر اقلية ذلك المجمع المتحدة مع البابا انها هي المجمع الشرعي الحقيقي، دون الاكثرية فيه

اما الشروط النهائية التي تمّ الاتفاق عليها، فيمكن معرفتها من ثلاث وثائق تركها لنا التاريخ وهي : مضبطة الجلسة التاسعة عشرة من جلسات مجمع بال المنعقدة في شهر ايلول سنة ١٤٣٤، والمعاهدة المعقودة بين البابا ومندوبي الملك في شهر تموز سنة ١٤٣٧ في مدينة بولونيا بايطاليا، والمعاهدة المعقودة بين البابا والملك

---

(٢) بلغ العجز من خزانة المملكة البيزنطية في ذلك الزمن مبلغاً عظيماً، وقد روى التاريخ قبل ذلك بعدة سنين ان جمهورية البندقية التي كانت اكبر الدائنين حجزت يوماً في مينائها ملك الروم نفسه الذي كان راجعاً من اوربا الى الشرق ومنعته من العودة الى عاصمته قبل ايفاء ما عليه . فاضطرّ ابنه مانويل ان يستسلم ليُحبَس مكان ابيه . وهكذا تمكّن الملك من الرجوع الى القسطنطينية واعادة الامن اليها ثم دفع ما عليه للافراج عن ابنه

في اول حزيران سنة ١٤٣٩ في فلورنسا[1]؛ وتتلخص تلك الشروط في ما يلي :

— لا يرضى الروم عقد المجمع الا في احدى المدن الايطالية التي يختارها ملكهم بالاتفاق مع البابا

— يحضر مجمعَ الاتحاد هذا ملكُ الروم وبطريرك القسطنطينية وبطاركة المشرق الثلاثة الآخرون والمطارنة والاساقفة والاكليريكيون والسفراء من جميع البلاد التابعة لنفوذ كنيسة بيزنطية

— يعقد الروم في القسطنطينية مجمعاً تمهيدياً قبل سفرهم الى ايطاليا

— يتحمّل اللاتين نفقات سفر الملك والاعضاء السبع مئة المسافرين معه، ذهاباً واياباً، على سفن من عند البابا . ويتحملون كذلك نفقات اقامتهم في ايطاليا مدة انعقاد المجمع

— يرسل البابا اربع سفن حربية وثلاث مئة جندي من الرماة . ينضمّون الى حامية القسطنطينية للدفاع عنها في غياب الملك . فاذا هاجمها الترك يعاهد البابا ايضاً على ان يدفع عشرة الاف دوكة[2]، ويرسل عشرين سفينة حربية اخرى مع رجالها، ويعمل على اثارة حملة صليبية في اوربا على الاتراك

— يقرّر الروم انهم يعترفون بسلطة البابا على مجمع بال . ويجب ان يوافق البابا والبطاركة على قرارات مجمع الاتحاد المزمع عقده

— يُعطى الروم ملءَ الحرية للتعبير عن ارائهم في المجمع . وتُقدَّم للملك وللاساقفة كل الكرامة التي كانت العادة جاريةً على تقديمها لهم قبل الانشقاق

٣ً نقل المجمع من بال الى فرّارا سنة ١٤٣٨

رأينا ان اكثرية مجمع بال اتخذت موقف المناوأة لسلطة البابا . فصارت تتحدّاه في عدّة امور، مما اضطرّه اخيراً الى حلّ ذلك المجمع في سنة ١٤٣٧ والدعوة

---

(١) عقدت هذه المعاهدة الاخيرة في اثناء انعقاد المجمع، مدة وجود الملك في ايطاليا، وقبيل صدور قرار الاتحاد النهائي

(٢) الدوكة ducat عملة ذهبية بدأت جمهورية البندقية بضربها في القرن الثالث عشر وتساوي قيمتها ١٠ الى ١٢ فرنكاً ذهباً

الى مجمع آخر يُعقد في السنة التالية في مدينة فرّارا[1] التي كان اتفق عليها مع ملك الروم يوحنا الثامن پاليولوغس . ففتح المجمع اعماله في ٨ كانون الثاني سنة ١٤٣٨ للنظر في المسائل الثلاث التي كانت تشغل حينئذٍ جميع الافكار: اتحاد الكنائس، والاصلاح الكنسي، وتوطيد السلم بين الممالك المسيحية

ركب الروم السفن البابوية في شهر تشرين الثاني سنة ١٤٣٧ من القسطنطينية فوصلوا الى البندقية في ٨ شباط سنة ١٤٣٨ ومنها سافروا برًّا الى فرّارا فوصل الملك اولاً في ٤ اذار ثم وصل البطريرك يوسف وحاشيته في ٩ منه . وقد استُقبلوا جميعاً بحفاوة عظيمة . وكان اول اشتراكهم في المجمع بجلسة ٩ نيسان . واذ كان البطريرك يوسف مريضاً تُليت في تلك الجلسة رسالةٌ منه قرَّر فيها اعترافه بصحة انعقاد المجمع آملًا ان ينضمّ اليه جميع الغربيين ولاسيما اباء مجمع بال وحارماً كل من لا يعترف بمجمع فرّارا . وبعد ان اتفق الفريقان على ان انعقاد المجمع قانونيّ شرع آباؤه يبحثون في معضلة الاتحاد

٤ المسائل المختلفة التي عرضت حينئذٍ

(المسألة المالية) : وقد رأينا كيف حُلَّت بأن تحمَّل الكرسي الرسولي جميع النفقات . وكان البابا افجانيوس الرابع مستعدًّا لجميع التضحيات في سبيل تحقيق الاتحاد

(مسألة التشريفات، اي البروتوكول) : من المعروف ان الغربيين يقبّلون في حفلاتهم الرسمية قدم البابا؛ لكن افجانيوس الرابع لم يطلب ذلك من البطريرك يوسف والاساقفة الشرقيين واكتفى بان يسلّموا عليه بالطريقة التي توافقهم . وكان

---

(١) فرّارا Ferrare مدينة في اقليم اميليا في اواسط ايطاليا، يبلغ اليوم عدد سكانها نحو مئة وعشرين الفًا . وكانت بلدة زاهية بكل انواع التمدن في القرنين الخامس عشر والسادس عشر تحت حكم الامراء من آل استي Este

هذا ولما نُقل المجمع اليها، اظهرت اغلبية بال العصيان واستمرَّت توالي جلساتها كأن المجمع لم يُحَلّ . فقررت عزل البابا افجانيوس الرابع زاعمة انه هرطوقي وانتخبت بدله فليكس الخامس . لكن الدول المسيحية التي كانت قد عانت كثيرًا من الشرور بسبب « انشقاق الغرب الكبير » لم تلتفت الى تلك الفئة ولا الى باباها . فاستقال هذا الاخير في سنة ١٤٤٩، وخضع اباء مجمع بال هم انفسهم للبابا نقولا الخامس خليفة افجانيوس الرابع

الروم يطالبون بالكرسي الاول لملكهم يوحنا؛ ولكن الاتفاق تمّ على ان يجلس الروم في الكنيسة من جهة الرسائل واللاتين من جهة الانجيل[1] ويكون للبابا في هذه الجهة عرش اعلى من سائر المقاعد . ويكون في الجهة المقابلة عرشان متماثلان احدهما لملك الروم والآخر لملك جرمانيا[2] . اما عرش البطريرك فيكون مزيناً كعرش البابا ولكنه اقل ارتفاعاً منه

(مسألة المناقشة) : كانت هذه المسألة من ادقّ المسائل . وقد اتفق الفريقان على اطلاق الحرية لكل من يريد الاشتراك في الجدال حول ايّ موضوع من المواضيع المرغوب في الاتفاق عليها . وفي الواقع بلغت حدّة الجدال الى حدّ ان اضطروا ان يوقفوا الجلسات احياناً، ويتهدّدوا بعضهم بعضاً بقطع المفاوضات . لكن الرغبة الصادقة في الاتحاد التي كان يكنّها البابا والملك وزعماء مملكته الدينيون والمدنيون تغلّبت على كل الصعوبات . فتمكن المعارضون من ابداء جميع ما عنّ لهم من الاراء بكل جرأة، ووجدوا من يقارع حجتهم بالحجة

وكانوا قد نظّموا الجدال على الوجه الآتي : عيّن كلُّ فريق لجنةً من عشرة اعضاء تقوم بالابحاث اللازم عرضها على المجمع، وكلّفوا بعض اعضائها المناقشة في الجلسات العامة . فكانت لجنة الروم مؤلفة من مرقس افجانيكُس[3] رئيس اساقفة افسس ووكيل بطريرك انطاكية؛ وبيساريون[4] رئيس اساقفة نيقية؛ وثلاثة اساقفة اخرين؛ والخرتوفيلكس بلسامون؛ والاكليسيارخس سيروبولس[5]؛ ورئيسين من

(١) « جهة الرسائل » في الكنائس اللاتينية هي يمين الهيكل بالنسبة الى الحاضرين، و« جهة الانجيل » هي عندهم شمال الهيكل

(٢) كانوا يعتبرون نظرياً ان الامبراطورية الرومانية القديمة لم تزل قائمة، وانها منقسمة الى الامبراطورية الشرقية (التي يحكمها ملك الروم في القسطنطينية) والامبراطورية الغربية (التي يحكمها ملك جرمانيا) . هذا ولم يحضر مجمع فرارا الّا ملك الروم يوحنا الثامن . اما عرش جرمانيا فكان شاغراً بوفاة ملكه . فالعرش المنصوب له في الكنيسة كان شرفياً فقط

(٣) سترى في ما يلي ان مرقس هذا (١٣٩١-١٤٤٤) كان اكبر العاملين على إحباط الاتحاد ليس فقط في اثناء انعقاد المجمع بل على الخصوص عقب رجوعه الى الشرق

(٤) يوحنا بيساريون (١٣٩٥-١٤٧٢) كان من اكبر انصار الاتحاد . وهو عالم مشهور من اهالي طرابزون . وعاش في ايطاليا حيث كان له تأثير عظيم في نهضة الآداب

(٥) ترك سيروبولس هذا مذكرات مطولة لاعمال مجمع فلورنسا . مذكراته من اهمّ الاصول التي يُرجَع اليها . وكان هو ايضاً من الذين غيّروا رأيهم ونبذوا عهودهم عقب عودتهم الى الشرق

رؤساء الديورة، وراهب آخر . وقد اضاف الملك الى هؤلاء الاكليريكيين العشرة اميراً من امراء بلاطه وهو مانوئيل يَغاريس . اما اللاتين فكانت لجنتهم مؤلفة من الكردينال شيزاريني ، والكردينال أَلبِرغاتي ، واسقفٍ ثالث ، والراهب الدومينيكي الاسباني تُركوِمادا (الذي صار فيما بعد كردينالاً)، وستة آخرين . وعلاوةً على هاتين اللجنتين اتفقوا ايضاً على تعيين الكتبة والتراجمة

وفي الواقع قد قتلوا بحثاً جميع المسائل التي من شأنها الانفصال والتي من شأنها الاتحاد : كمسؤولية الشقاق التي رماها مرقس الافسسي على اللاتين وحدهم، وانبثاق الروح القدس، والتقديس على الفطير، ومسألة المطهر، ورئاسة البابا، ومسألة الابيكليز (وهي الابتهال الى الروح القدس الذي يُتلى بعد كلام التقديس في القداس الشرقي)، وامتيازات الكنائس

٤ً نقل المجمع الى فلورنسا سنة ١٤٣٩

في هذه الاثناء تفشى الطاعون في فرّارا واهلك عـدداً عظيماً من الاهالي . وأُصيب بـه كثيرون من اعضاء المجمع، منهم ديونيسيوس اسقف سردة وكيل البطريرك الاورشليمي ففكّر البابا في نقل المجمع الى مدينة اخرى . ولما كانت مالية الكرسي الرسولي في ضيق بسبب نفقات المجمع، قبِلَ الحبر الاعظم ما عرضته عليه مدينة فلورنسا[1] من الانتقال اليها في مقابل اشتراكها في تلك النفقات . وقبل الروم ايضاً الذهاب اليها، فوصلوا في اواسط شهر شباط سنة ١٤٣٩، وكان اڤجانيوس الرابع قد سبقهم اليها في اواسط كانون الثاني . فعقدوا اول اجتماع فيها بتاريخ ٢٤ شباط، وكان ذلك الاجتماع هو الجلسة السابعة عشرة من مجمع الاتحاد

وفيها انتقل الى رحمته تعالى يوسف بطريرك القسطنطينية يوم ١٠ حزيران سنة ١٤٣٩، بعد ان كتب في اليوم السابق رأيه الاخير في الاتحاد . وقد حاول بعضهم

---

(١) فلورنسا، وبالايطالية فيرنزه Firenze ، وباليونانية فلورنديا Φλωρεντία ، وبالفرنسية فلورنس Florence ، مدينة عظيمة في ايطاليا الوسطى يبلغ عدد سكانها اليوم ثلاث مئة وعشرين الف نفس . كانت اذ ذاك عاصمة امارة تسكانا الغنيَّة ومركزًا للتجارة والصناعة والفنون والآداب . والنسبة اليها « فلورنسي » . ولكن جرى كثيرون على القول « الفلورنتيني » او « الفيورنتيني » بحسب النسبة باللغة اللاتينية او اليونانية او الايطالية

انكار هذه الكتابة، لكن المؤرخين الثقاة يعتبرونها صحيحةً صادقة . وهـذا تعريبها[1] :

« يوسف برحمة الله رئيس اساقفة القسطنطينية رومة الجديـدة والبطريرك المسكوني . بما انني بلغت آخر حياتي، وعمّا قريب اقوم بدفع الدين الواجب على جميع الناس، اكتب بنعمة الله بكل وضوح، واوقع ايماني الاخير الذي احيط به علماً جميع ابنائي الاعزاء . اصرّح اذن ان كل ما تؤمن به وتعلمه الكنيسة المقدسة الجامعة الرسولية، اي كنيسة سيدنا يسوع المسيح التي هي كنيسة رومة القديمة، انا ايضاً أومن به، وأقبل قضايا ايمانها كلّها، واعترف بان بابا رومة القديمة هو ابو الآباء، الحبر الاعظم، نائب سيدنا يسوع المسيح الكلي الطوبى، الذي من وظيفته ان يجعل ايمان المسيحيين وطيداً، وأومن بتطهير النفوس . وإثباتاً لذلك وقعت في ٩ حزيران سنة ١٤٣٩ »

• صكّ الاتحاد . كيفية وضعه واعلانه

طال البحث والجدال في جميع المسائل . وقرروا اخـيراً وضع النصّ النهائي للصكّ الذي يُعلن اعادة الاتحاد . فتداوله الاباء اللاتين والاباء الروم، واكثروا من الاجتماعات الخصوصية والعمومية، وبذل كلّ من البابا والملك مجهوداً صادقاً، وكذلك بعض الاعضاء الظاهرين من الفريقين ولاسيما الروم بيساريون وايسيذورس مطران كياف وذوروثاوس مطران ميتيلين . واخيراً استخرجوا من مختلف الاقتراحات نصّاً واحـداً وافق عليه الجميع وقُرئَ في المجمع في جلسة السبت ٤ تموز باللغتين اليونانية واللاتينية . ويوم الاحد ٥ تموز وقّعـه الروم في قصر الملك بحضور ثلاثة اساقفة من اللاتين ومُسَجِّلٍ، ثم وقّعه اللاتين في قصر البابا بحضور عشرة شهود من الروم . ويوم الاثنين ٦ تموز أُعلن رسمياً في القـداس الحبري الذي اقامه البابا افجانيوس الرابع، فتلاه احـد الكرادلة باللاتينية، ثم تلاه بيساريون باليونانية . وأعلن جمهور الاساقفة الشرقيين والغربيين انضمامهم اليـه، بما فيهم ممثلو المسكوب والكرج والقلاخ وملك طرابزون

(١) كما ورد في منشور غبطة البطريرك كيرلس التاسع المغبغب الكلي الطوبى الذي اصـدره بتاريخ ٣١ آذار سنة ١٩٣٩، بداعي الذكرى المئوية الخامسة للمجمع الفلورنسي . راجع « المسرة »، جزء ايار (مايو) سنة ١٩٣٩، ص ٣٠٧ – ٣٠٨

يوحنا الثامن پاليولوغس
ملك الروم الذي وقع الاتحاد في مجمع
فلورنسا سنة ١٤٣٩

البطريرك القسطنطيني يوسف الثاني
الذي توفي في اثناء انعقاد مجمع فلورنسا
بعدما كتب صورة ايمانهِ واعترافه بالاتحاد
(ص ٥٦)

بسّاريون
رئيس اساقفة نيقية ومن اهمّ الاعضاء الروم ممثلي الكنيسة
الشرقية في مجمع فلورنسا
(ص ٥٤)

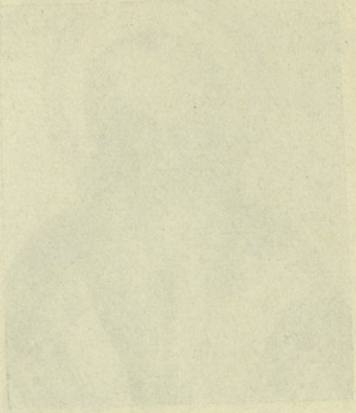

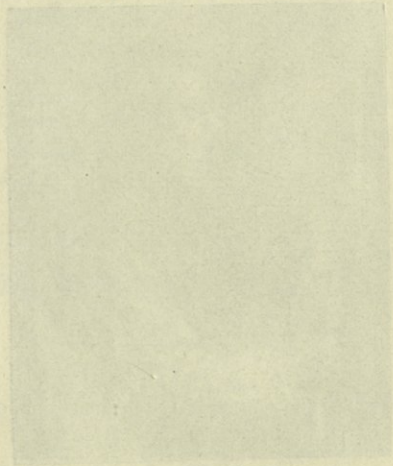

وفي ١٤ تموز بدأ الاساقفة الروم واللاتين يغادرون مدينة فلورنسا . وفي ٢٦ آب سافر الملك يوحنا الثامن پاليولوغس عائداً الى القسطنطينية عن طريق البندقية

على ان اعمال المجمع لم تنتهِ بذلك . اذ ان البابا وسائر الاباء رجعوا الى رومة واستمرّوا يتفاوضون في باقي الامور التي عُقد المجمع لاجلها، واستقبلوا وفود الكنائس الشرقية الاخرى غير البيزنطية التي ارادت هي ايضاً الاتحاد كالنساطرة واليعاقبة . ولم ينحلّ المجمع الّا سنة ١٤٤٥

اما صكّ الاتحاد، فهذا تعريبه عن الاصل اللاتيني واليوناني المحفوظ في فلورنسا حتى الآن[1] :

« الجانيوس الاسقف خادم خدام الله

« اكتبُ هذا للذكر المؤبد :

« برضى ولدنا الاعز بيسوع المسيح يوحنا باليولوغس امبراطور الروم، ورضى ممثلي اخواننا البطاركة الشرقيين وبقية اخواننا الاساقفة الحاضرين هنا بالاصالة عن نفوسهم وبالنيابة عن الكنيسة الشرقية جمعاء : لتفرح السماوات وتبتهج الارض ! فقد انهدم الحائط الفاصل بين الكنيسة الشرقية والغربية، وأُقيم السلام والاتفاق ثانية على حجر الزاوية يسوع المسيح، الذي ضم الشعبين الى واحد، جامعاً كلا الحائطين برباط السلام والمحبة الذي لا ينحل . وقد اضمحلّت غيوم الحزن المديد، وتبدد ظلام الخصومة المزمن، واضاء لنا كوكب الاتحاد البهي الشهي . فلتفرح الكنيسة أُمنا، فان ابناءها الذين كانت تشاهدهم متخاصمين تراهم اليوم راجعين الى الوحدة والسلام . وتلك التي كانت تذرف دموعاً سخينة على انفصالهم، لتشكر الآن بفرح لا يوصف الالهَ القدير على اتفاقهم العجيب . ليفرح به المؤمنون في العالم أجمع، وليهنئ المسيحيون اسمهم الكنيسة الكاثوليكية . فها ان آباء الغرب والشرق، بعد مرور حقبة طويلة من الاختلاف والشقاق، قد ركبوا اخطار البر والبحر، وتغلبوا على المتاعب، وبادروا بسرور الى هذا المجمع المسكوني المقدس راغبين في تجديد الاتحاد المقدس والمحبة القديمة . ولم تخب آمالهم . لانهم بعد الابحاث الطويلة

(١) اخذنا هذا التعريب عن المنشور البطريركي السابق ذكره، ص ٣١٠–٣١٤ من « المسرة »، جزء ايار سنة ١٩٣٩

الشاقة بلغوا برأفة الروح القدس الى الاتحاد المقدّس المرغوب فيه . فمن يستطيع ان يرفع للقدير الشكر الوفيّ على هذا الإحسان، ومن لايتعجب من كل قلبه من غنى مراحم الله ؟ هل من قلب صخري لا تليّنه مشاهدة رأفة الله هذه غير المتناهية ؟ حقًّا انها لافعال الهية، لا اختراعات الضعف البشري . اذن يجب علينا قبولها بالاحترام العظيم والاعتراف بها بالترانيم المقدسة . لك المديح، لك المجد، لك الشكر يايسوع المسيح، يا ينبوع المراحم، الذي أوليت عروسك الكنيسة الكاثوليكية هذا الخير العظيم، واظهرت في جيلنا عجائب حنوك حتى يتحدث الجميع بمعجزاتك، فقد رأينا بعيوننا ما طالما تاق السلف اليه، فلم يروه . فان اللاتين واليونان التأموا في هذا المجمع المسكوني المقدس، وبحثوا بمنتهى الجهد والتدقيق قضية انبثاق الروح القدس، موردين آيات الكتب الالهية ونصوصاً كثيرة لملافنة الغرب والشرق الآباء القديسين، الذين منهم من يقول ان الروح القدس منبثق من الآب والابن، ومنهم من يقول انه منبثق من الاب بالابن، انما كلهم يرمون الى مقصد واحد بالفاظ مختلفة . وبالواقع أكّد الروم انهم بقولهم ان الروح القدس ينبثق من الآب لا ينفون انبثاقه من الابن، ولكن بما انهم كانوا يظنون ان اللاتين بقولهم عن الروح القدس انه ينبثق من الاب والابن يسلمون بمبدأين ونفختين، امتنعوا عن القول بان الروح القدس ينبثق من الآب والابن . على ان اللاتين اكّدوا انهم، بقولهم عن الروح القدس انه ينبثق من الاب والابن، لا ينفون كون الاب ينبوع كل اللاهوت ومبدأً للابن والروح القدس، ولا ينكرون ان الابن يأخذ من الاب بَثْقَ الروحِ القدس، ولا يجعلون مبدأين او نفختين، بل يعتقدون بمبدإ واحد فقط وبنفخة واحدة باثقة للروح القدس كما اعتقدوا على الدوام . وبما ان مرجع هذه التعابير كلها الى معنى واحد، قد اتفقوا اخيراً وأقرُّوا، برضى شامل، الاتحاد التالي المقدس المحبوب من الله :

« باسم الثالوث القدوس الاب والابن والروح القدس، وبتصديق هذا المجمع المسكوني المقدس، المنعقد في فلورنسا، نوجب على المسيحيين بأجمعهم ان يقبلوا حقيقةَ ايماننا هذه ويؤمنوا بها معترفين كلهم ان الروح القدس هو منذ الازل من الاب والابن، وانه يأخذ جوهره وكيانه الخاص من الاب والابن معاً، منبثقاً انبثاقاً ازليًّا من كليهما كمن مبدإٍ واحد ونفخة واحدة . ونصرح بان الآباء القديسين الملافنة الذين يقولون عن الروح القدس انه ينبثق من الاب والابن لا يقصدون

سوى هذا المعنى اي ان الابن مثل الاب علّة اقنوم الروح القدس، كما يقول الروم، او مبدأه، كما يقول اللاتين، كما ان الاب هو علة الابن ومبدأه. وبما ان الاب، عند ولادته لابنه الوحيد، منحه كل ما يملك ما عدا الابوّة، هكذا أخذ الابن ازليًّا من الاب ان يبثق الروح القدس

« ونحدد ان زيادة لفظة « والابن » في قانون الايمان، هي حسنة وشرعية وصوابية، لانها توضح حقيقة من حقائق الايمان وقد اقتضتها الضرورة اذ ذاك

« نحدّد ان جسد يسوع المسيح يُقدَّس حقًّا في خبز الحنطة سواء أكان فطيرًا او خميرًا، وعلى الكهنة ان يستعملوا هـذا او ذاك بحسب طقس كنيستهم، غربية كانت او شرقية

« نحدّد ان نفوس الذين تابوا توبة حقيقية وماتوا في حال محبة الله قبل ان يكفّروا عما اجترموه او اهملوه بأفعال توبة لائقة، تتطهر بعد الموت بعذابات المطهر، وتتخلص منها باسعافات المؤمنين الاحياء، كذبيحة القداس والصلوات والصدقات وغير هذه من افعال المحبة التي اعتاد المؤمنون ممارستها لاجل المؤمنين، حسب اصول الكنيسة . وان نفوس الذين بعد قبولهم سرّ المعموديـة لم يتدنسوا قط بادناس الخطيئة، او نفوسَ المؤمنين الذين بعد ارتكابهم الخطيئة قد تطهروا منها اذ كانوا في الجسد او بعد الموت على النحو المتقدم اعلاه، تدخل حالاً السماء لتشاهد بوضوح الالهَ الواحد المثلث الاقانيم كما هو، انما تتفاوت درجة هذه المشاهدة بحسب اختلاف درجات الاستحقاق؛ وان نفوس الذين يموتون في حال الخطيئة المميتة، مفعولة كانت او اصلية فقط، تهبط حالاً الى الجحيم لتتعذب بعذابات مختلفة متفاوتة

« ونحدد ايضاً ان الكرسي الرسولي المقدس والحبر الروماني له اولية التقدم في المسكونة كلها، وهو خليفة الطوباوي بطرس هامة الرسل، ونائب المسيح الحقيقي، ورأس الكنيسة كلها، وابو المسيحيين بأجمعهم ومعلمهم . وقد اعطاه سيدنا يسوع المسيح في شخص الطوباوي بطرس ملء السلطان ليرعى ويدبر ويسوس الكنيسة الجامعة، كما تتضمن ذلك اعمال المجامع المسكونية والقوانين المقدسة . ثم نجـدد النظام الذي رسمته القوانين لبقيـة البطاركة المكرمين وهو ان الثاني بعد الحبر الروماني الاقدس بطريرك القسطنطينية، والثالث بطريرك الاسكندرية، والرابع

بطريرك انطاكية، والخامس بطريرك اورشليم . على ان تحفظ كل امتيازاتهم وحقوقهم

اعطي في فلورنسا في ٦ يوليو (تموز) سنة ١٤٣٩ »

٦ً بعض اعمال مُلحَقة بصكّ الاتحاد

١ — لا يشير صكُّ الاتحاد الى الاستحالة الجوهرية التي تحصل في سرّ الافخارستيا، ولا الى الرأي القائل بان قوّة تقديس الخبز والخمر انما هي قائمة في الابتهال الذي يوجّهه الكاهن بعد الكلام الجوهري الى الله تعالى طالباً الروح القدس . والسبب في سكوت الصكّ عن هذا الرأي هو انه ليس رأي الكنيسة البيزنطية الرسمي، فانهم قبل وضع الصيغة النهائية للصك، في جلسة ٢٦ حزيران سنة ١٤٣٩، صرّح الآباء الروم بما يأتي : « انكم لكي تطمئنوا الى ايماننا اتمّ الاطمئنان، ما لكم الّا ان تراجعوا القديس يوحنا فم الذهب الذي يتكلم بكل وضوح على هذا الامر[1] . وعلى كل حال نحن مستعدون للاعتراف بان التقديس يحصل بكلمات السيد المسيح دون سواها » . وفي يوم ٥ تموز اجتمع الروم لدى البابا، بدعوة خاصة منه، فألقى بيساريون باسمهم تصريحاً مشابهاً للتصريح المشار اليه قائلًا : « ان كنيسة الروم تعلّم عقيدة الاستحالة الجوهرية وتقول ان هذه الاستحالة تحصل بكلمات السيد المسيح، طبقاً لتعليم القديس يوحنا فم الذهب »

٢ — بعد اعلان الاتحاد ببضعة ايام، وجّه الاباء اللاتين الى الاباء الروم عدّة اسئلة استوضحوا فيها معنى بعض العوائد الطقسية البيزنطية، وهي : لماذا يضع الروم في صينية التقديس قطعاً من الخبز غير الاجزاء المعدّة للتقديس، — لماذا يحنون رؤوسهم عند نقل المواهب من مذبح التهيئة الى الهيكل اي في طواف الشاروبيكون، — لماذا يضيفون ماء سخناً الى الكأس قبل التناول، — لماذا يقولون « ان واحداً من الجند طعنه بحربةٍ في جنبه » قبل التقديس، — لماذا يمنح الكهنة عادةً سرّ التثبيت بدلاً من الاساقفة، — لماذا يدهنون الموتى بالزيت المقدس قبل دفنهم، — لماذا لا يتلو الاساقفة والكهنة فعل الاعتراف (انا اعترف لله الخ) قبل القداس، — لماذا يقولون بعد كلام التقديس « واصنع، أمّا هذا الخبز، فجسد مسيحك المكرّم الخ »، — لماذا

(١) اي يصرح بان الاستحالة تحصل بكلمات السيد المسيح

يحلّون من الزواج خلافاً لتعليم المسيح، — لماذا لا ينتخبون بطريركاً في فلورنسا قبل رجوعهم الى الشرق خليفةً للبطريرك يوسف المتوفى في المجمع . فردّ الروم على هذه المسائل كلها واقتنع اللاتين بردودهم، ما عدا المسألتين الاخيرتين

حينئذٍ طلب البابا من الملك ان يرسل اليه بعض علماء الروم؛ فمثلوا لديه ولكنهم قالوا انه غير مأذون لهم في الاجابة عن السؤالين المذكورين . وفي ١٤ تموز دعا البابا جميع الاساقفة الروم الذين كانوا باقين في فلورنسا وقال لهم : «لمّا اصبحنا الآن متحدين في الايمان وانا رئيسكم، أرى من واجبي ان أُبدي لكم بعض تنبيهات ونصائح من شأنها ان تثبّت التقوى والكنيسة : فاولاً يجب ان تعدلوا عن الطريقة التي سرتم عليها بشأن حلّ الزواج؛ وثانياً يجب ان تعاقبوا مرقس افجانيكس لعصيانه على الاتحاد؛ وثالثاً يجب ان تنتخبوا هنا بطريركاً بدل البطريرك المتوفى، وحينئذٍ أستدعي من القسطنطينية البطريرك اللاتيني المعيَّن لها ولا يبقى هناك الّا بطريرك واحد يخضع له الروم واللاتين المقيمون في ولايته» . فاجاب الاساقفة انه غير مأذون لهم في الجواب رسمياً عن هذه المسائل ولكنهم يبدون رأيهم بصفة شخصية كافرادٍ عاديين، فيقولون : اولاً ان حلّ الزواج لا يكون الّا لاسباب صوابية؛ ثانياً ان مرقس رئيس اساقفة افسس لا يمكن قصاصه قبل استدعائه واستماع دفاعه عن نفسه؛ ثالثاً ان العادة جرت على انتخاب البطريرك في القسطنطينية نفسها وعلى اتمام المراسيم الخاصة بذلك في كنيسة اجيا صوفيا . واضافوا ان الملك غير مستعدّ لقبول ايّ شرط آخر

٣ — بعد ذلك لم يطلب البابا شيئاً من الروم، ولم يقل بتعديل شيء من عوائدهم الكنسية وطقوسهم الليترجية وترك للكهنة الشرقيين ما درجوا عليه من استعمال الزواج . اما الروم، فاثباتاً لاتحادهم، ادرجوا اسم البابا في الذبتيخا؛ وطلبوا من البابا ان يسحب الاساقفة اللاتين من الابرشيات التي يوجد فيها اساقفة روم (اي الجزر اليونانية والبلاد الشرقية التي كان البنادقة قد اخضعوها لسلطانهم) . واخيراً اتفقوا على ان تلك الابرشيات تكون تابعة لبطريركية القسطنطينية اذا مات اسقفها اللاتيني اولاً، او لبطريركية رومة اذا مات اسقفها اليوناني اولاً

٧ً في سلطة المجمع الفلورنسي

تعتبر الكنيسة الكاثوليكية مجمع فلورنسا « مجمعاً مسكونياً » وتُعطي لتحديداته من القيمة والسلطة ما لتحديدات سائر المجامع المسكونية . ولكن الكنيسة الارثوذكسية لا تعتبره الآن كذلك . فلهذا وجب علينا ان نبيّن هنا الاسباب التي تؤيد هنا وجهة النظر الكاثوليكية

ان مجمع فلورنسا قد هُيّئ وحُقّق في احوال من شأنها ان تكفل له اكبر سلطة قانونية وادبية :

اولاً — ليس هذا المجمع عملاً منفرداً وقع عرضاً في تاريخ العلاقات بين رومة والقسطنطينية منذ انفصال ميخائيل كيرولاريوس سنة ١٠٥٤؛ بل كان ثمرة جهود صادقة متواصلة، ورغبات حارّة متواترة، وشوقٍ حميم متأصل في قلوب المسيحيين المخلصين شرقاً وغرباً . فمن حين وقوع الانفصال المشؤوم دامت الاماني المتبادلة تظهر نحو الاتحاد مدة اربعة قرون تقريباً . فالكنيسة الرومانية لم تتعزّ قط عن ابتعاد الشرق عنها ودام حنينها الى رؤيته عائداً اليها . والكنيسة البيزنطية لم تعدم قط رجالاً يعملون على هذا الاتحاد، من ملوك وبطاركة واساقفة ولاهوتيين . وقد سار المشرق والمغرب طويلاً في السبيل المؤدي الى الاتحاد؛ وظن المخلصون احياناً انه قد تمّ، كما حصل في مشروع سنة ١٢٥٣[1]؛ ثم في مجمع ليون سنة ١٢٧٤[2]؛ ثم في اتحاد الملك يوحنا الخامس سنة ١٣٦٩[3]؛ فكل هذه المساعي من قبل الفريقين كانت نتيجتها عقد مجمع فلورنسا . فليس هو اذن امراً عارضاً في التاريخ

ثانياً — كانت دعوة الكنيسة الرومانية لكنيسة القسطنطينية الى مجمع مسكوني معبّرةً عن الرغبة العامّة التي كانت تختلج في صدر كلٍّ من الكنيستين . فجميع المفكّرين في الغرب وآباء المجامع السابقة كانوا يقولون بضرورة هذه الدعوة الى المجمع . وكذلك الحال في الشرق حيث نرى السفراء والملوك يعرضون على الباباوات الفكرة نفسها، كما فعل برلام سنة ١٣٣٩ والملك مانويل الثاني سنة ١٤٢٢ . وقد وجّه البابا افجانيوس الرابع الدعوة سنة ١٤٣٣ الى ملك الروم يوحنا الثامن وبطريرك القسطنطينية يوسف الثاني، والى ملك طرابزون، وبطاركة الاسكندرية

(١) راجع قبلاً ص ٣٣ (٢) ص ٣٨ (٣) ص ٤٤

وانطاكية واورشليم، وكذلك الى كنائس الاقباط والاحباش والسريان والارمن، والى الكنيسة النسطورية . وكان في ذلك على اتفاقٍ مع ملك الروم لان المفاوضات بينهما بدأت منذ سنة ١٤٣٠ ودامت اعواماً طوالاً قبل الوصول الى تمام الاتفاق .

ثم ان الملك يوحنا الثامن، قبل الذهاب الى ايطاليا، عقد في القسطنطينية نفسها مجمعاً تمهيدياً دعا اليه الاساقفة الاكبر شأناً وعدداً كبيراً من عظماء المملكة وعلمائها، لبحث جميع المسائل المتعلقة بالاتحاد، وجَمْعِ الكتب اللازمة للجدال، وتعيين الخطباء، واتخاذ كل ما تقتضيه اعمال المجمع من التدابير والمعدّات . وكان قد فاوض في ذلك ملك طرابزون وامراء الروس والڤلاخ، والبطاركة الملكيين، ورهبان جبل آثوس

ثالثاً — قد ترأس البابا بنفسه المجمع طبقاً لرغبة الروم، ولم يدع لغيره البتّ في المسائل المبحوث فيها . اما تمثيل الكنيسة الشرقية فقد كان كاملاً، اذ حضره ملك القسطنطينية وبطريركها بنفسهما، ومندوبون مفوّضون من قبل سائر البطاركة[1]، وعددٌ عظيم من المطارنة والاساقفة ورؤساء الديورة، وكثير من العلماء[2] والامراء.

رابعاً — فُتح المجمع وتمّت اعماله في جوّ مشبع بالاحترام المتبادل والحرية الكاملة . فقد قال كلُّ واحد كلَّ ما اراد في كل مسألة من المسائل التي بحثوها . ووُضع الصك النهائي بتمام الحرية، بعدما قُتل المشروع درساً وعدّل غير مرّة في أخذ وردّ بين الروم واللاتين مدّة ايام عديدة . ولم يوقعه الاباء الا بعد ان اجمع الكل على وجه التقريب على إقراره . وقلَّ ان أتخذت قراراتٌ مجمعيةٌ بمثل الإجماع الذي اتخذت به قرارات المجمع الفلورنسي . ولم يمتنع عن التوقيع الا مرقس افجانيكس واسقفٌ آخر ترك فلورنسا خلسةً في اثناء المجمع وعاد الى الشرق

وقد زعم بعضهم، عقب رجوعهم الى بلادهم، ان الملك يوحنا ضغط عليهم والزمهم بتوقيع اعمال المجمع . ولكن هذا الزعم، اذا صحّ قبوله بالنسبة الى

---

(١) ناب عن فيلوثاوس الاول بطريرك الاسكندرية كلٌّ من انطونيوس مطران هيرقلية وغريغوريوس ممّاس بروتوسنجلس القسطنطينية . وناب عن ذوروثاوس الاول بطريرك انطاكية، مرقس افجانيكس مطران افسس وايسيذورس مطران كياف (يُلاحَظ ان الاول كان اشدّ المعاكسين للاتحاد والثاني من اكبر المحبّذين له) . وناب عن يواكيم بطريرك اورشليم، ديونيسيوس اسقف سردة، وبعد وفاته بالطاعون في فرّارا حلّ محله ذوسيثاوس مطران موغبازيا

(٢) امثال جورج سكولاريوس الذي صار بطريركاً على القسطنطينية باسم جناديوس عقب فتحها على يد السلطان محمد الثاني . ولا ننسَ ان الوفد كان مؤلفاً من ٧٠٠ نفس

بعض افراد من صغار النفوس، لا يمكن البتة اطلاقه على جمهور الاباء الروم الذين كانوا حاضرين المجمع واشتركوا بكل حرية في المناقشة ووضع النصوص، وجلُّهم من فحول العلماء واللاهوتيين المعروفين بالاستقلال وسموّ الاخلاق

فالمجمع الفلورنسي حائز اذن كلّ الشروط اللازمة لاعتباره مجمعاً مسكونياً . فان نظرنا اليه من الوجهة الطبيعية البشرية، لا يسعنا ان ننكر صفة كونه مسكونياً بسبب كيفية إعداده، والدعوة اليه، وشخصية اعضائه وعددهم وصفتهم، وادارة اعماله، ومدّتها، ودراستها، وكيفية اتخاذ القرارات، الخ . كذلك الامر اذا نظرنا اليه من الوجهة الفائقة الطبيعة؛ فان النعمة التي يجود بها الله تعالى على من يعملون على تحقيق رغبة السيد المسيح في ان يكون جميع تلاميذه واحداً، والأيد العلوي الذي وعد به كنيسته ان يكون معها الى انقضاء الدهر، وإجماع احبار الكنيسة شرقاً وغرباً، واستجابته تعالى ابتهالات من يدعونه بايمان وثقة، كل ذلك يحمل على الاعتقاد ان صكّ الاتحاد بالمجمع الفلورنسي كان في الحقيقة صوت الله

وان لم نقل ان صوت الله تعالى كان صوت المجمع، وجب ان نقول ان صوته تعالى كان الصوت المعارِض لذلك، اي صوت اسقفٍ يؤيّده رهبانٌ وعلمانيون ليسوا من الكنيسة المعلِّمة، وهذا يخالف ما يعتقده اللاهوتيون عامةً من ان صوت الشعب لا يُعتبر صوت الله الا اذا كان متحداً بصوت الاساقفة

في الواقع لم يدم اتحاد المجمع الفلورنسي طويلاً . ولا تزال نرى الشقاق مستحكماً بين المسيحيين حتى اليوم . فهل نستطيع ان ننسب ذلك الى العناية الالهية ؟ كلا . بل يجب ان نرى السبب الكافي لهذه الحالة المؤلمة في الاعتبارات البشرية التي تغلّبت على كل شيء. وجرّت وراءها عواطف الشعب؛ وكم تُقاوَم رغباتُ الله تعالى ومشيئاتُه المقدسة بمثل تلك الاعتبارات ! بيد ان هذه الاحوال لا تنقص قيمة المجمع الادبية وسلطته الدينية في نظر من يتطلع الى الامر من الوجهة الفائقة الطبيعة، وهي الجوُّ الخليق بان تُبحث فيه معضلة الاتحاد

المراجع

اتخذنا، في كتابة هذا الفصل، مرجعنا الوحيد كتاب « تاريخ المجامع » تأليف هفله ولكلرك، الجزء الثاني من المجلد السابع Héfélé et Leclercq, Histoire des Conciles, tome VII, 2e Partie, — Paris, 1916.

الفصل السابع

استمرار مجمع فلورنسا بعد سنة ١٤٣٩ الى سنة ١٤٤٥

لم تنتهِ اعمال مجمع فلورنسا بمجرّد اعلان الاتحاد في ٦ تموز سنة ١٤٣٩ بين الروم واللاتين . فقد استمرّت جلساته تُعقد في المدينة المذكورة حتى شهر نيسان سنة ١٤٤٢؛ ثم انتقل المجمع الى رومة حيث صار يعقد اجتماعاته في كنيسة القديس يوحنا المعمدان اللاترانية حتى سنة ١٤٤٥

فبعد ما اذاع البابا اجانيوس الرابع نبأ الاتحاد مع الروم في جميع البلاد المسيحية وحضّ امراءها على النهوض لمساعدتهم في محاربتهم الاتراك، عمل على الاتحاد مع سائر الطوائف المسيحية

الارمن : وكان جاثليق سيس (كيليكيا) قسطنطين قد ارسل وفداً الى فلورنسا « لاعادة السلام والمحبة والاتحاد، كما كان الحال فيما مضى بين البابا القديس سلفسترس والقديس غريغوريوس المنوّر، او بين قسطنطين ملك الروم وتيريدات ملك الارمن » . فوصل اعضاء الوفد بعد صدور صك الاتحاد مع الروم . ثم عيّن المجمع بعض اعضائه للمباحثة معهم . وفي ٢٢ تشرين الثاني سنة ١٤٣٩ اعلن البابا صكّ الاتحاد معهم في الجلسة السابعة والعشرين، شاكراً الله تعالى على هذه النعمة؛ مثنياً على الارمن لمبادرتهم الى تلبية الدعوة الى المجمع؛ وذاكراً الامور التي يجب عليهم الاعتقاد او العمل بها لاجل استمرار الاتحاد، واخصّها : اضافة « والابن » الى قانون الايمان الذي وُضع في مجمعَي نيقية والقسطنطينية؛ — قبول ما حدّده المجمع الخلقيدوني وجدّد تحديده المجمعان الخامس والسادس بشأن طبيعتي السيد المسيح في اقنومه الواحد، ومشيئتَيه وفعلَيه؛ — قبول جميع المجامع المسكونية؛ — القول بما تقوله الكنيسة الجامعة بشأن اسرارها السبعة[1]؛ — قبول رسائل القديس كيرلس

---

(١) ان نصوص هذا الصك، المعروف في كتب اللاهوت باسم « المرسوم الصادر الى الارمن »، تحتوي على اكمل تعليم بشأن اسرار الكنيسة السبعة

الاسكندري والقديس لاون الكبير بشأن تجسُّد الكلمة الالهيـة، وقانون الايمان المنسوب الى القديس اثناسيوس الاسكندري، وصك الاتحاد مع الروم؛ — اقامة بعض الاعياد التي تعيّدها كنيستا الروم واللاتين

وفي ١٥ كانون الاول سنة ١٤٣٩ اصدر البابا تعليمات الى الاساقفة والكهنة اللاتين يمنعهم من اعادة تعميد الارمن والروم والصقالبة، ويحظر عليهم ما جرى عليه بعضهم من مضايقة الارمن في استعمال سلطتهم الكنسية التامة

الاقباط والاحباش : لما ارسل البـابا اجانيوس الرابع رسولاً الى فيلوثاوس بطريرك الاسكندرية الملكي يبلّغه صك الاتحاد، بعث مع الرسول المذكور برسالة الى يوحنا بطريرك الاسكندرية القبطي داعياً اياه الى الاتحاد . فقام الرسول بمهمته وزار ايضاً نجاشي الحبشة ومَن كان من الاقباط في اورشليم . فلبّوا الدعوة بسرور واوفدوا الى فلورنسا ممثليهم، حيث وصلوا في شهري آب وايلول سنة ١٤٤١ حاملين رسائل الاعتماد مظهرين الابتهاج العظيم بالاتحاد . وقد حفظ التاريخ نصوص تلك الرسائل ودُوّن في اعمال المجمع ما القوه من الخطب[1] . وعيّن المجمع لجنةً للمفاوضة معهم . وفي ٤ شباط سنة ١٤٤٢ اعلن البابا صك الاتحاد معهم، وفيه تفصيل للحقائق التي يجب الاعتقاد بها فيما يختص بالامور الآتية : سرّ الثالوث الاقـدس، وخلق العالم، واسفار العهدين العتيق والجديد، وطبيعتا السيد المسيح وحقيقـة تألمه وفداء الجنس البشري، وقبول المجامع المسكونية كلها بما فيها مجمع فلورنسا، والكلام الجوهري، وسرّ الزواج

وقد تُلي الصك احتفالياً في المجمع باللغتين اللاتينية والعربية وصار توقيعه . وكتب البابا رسالةً الى نجاشي الحبشة في هذا الداعي، ولكن التاريخ لم يحفظ لنا نصها

المانيّون البشناق : وفي سنة ١٤٤٣ اوفد توما ملك البشناق او البوسنة سفيراً الى المجمع . فرفض السفير باسم ملكه وأُمّته تعاليم ماني القائل بمبدأين ازليين،

(١) كنّا نودّ ان ننقل هذه النصوص ونشير الى سائر تفاصيل مـا جرى مع الوفد القبطي المشار اليه . ولكنّ ضيقَ المقام ورغبتنا في حصر كلامنا في ما يتعلق على الخصوص بالروم، يضطرنا الى صرف النظر عن ذلك . ومن اراد زيادة الاطلاع فعليه مراجعة المصادر التي سنذكرها في نهاية هذا الفصل

مبدإ الخير ومبدإ الشر، وصرّح بالانضمام الى الكنيسة الجامعة. وقد حفظ التاريخ رسالةً من البابا اجانيوس الرابع الى الملك المذكور كتبها اليه في سنة ١٤٤٥ ليهنئه على ثباته في الايمان القويم ويمنحه بعض امتيازات

سريان ما بين النهرين: وفي سنة ١٤٤٤ ارسل اغناطيوس بطريرك السريان مفوضاً من قبله الى المجمع طالباً الاتحاد. وكان هذا المفوَّض عبدالله رئيس اساقفة الرها. فقوبل بكل عطف في رومة حيث كان المجمع قد انتقل، وعيّن المجمع لجنةً بحثت معه مسائل الايمان. وفي ٣٠ ايلول سنة ١٤٤٤ اعلن البابا صكّ الاتحاد معهم في الجلسة الحادية والثلاثين، مبيناً فيه على الخصوص ما يجب الاعتقاد به بشأن انبثاق الروح القدس وطبيعتَي السيد المسيح ومشيئتَيه. وقد قبلها عبدالله باسم كنيسته وصرّح بقبوله ايضاً كل ما جاء في صكوك الاتحاد الخاصة بالروم والارمن والاقباط

نساطرة قبرس وغيرهم: ثم ان اجانيوس الرابع ارسل اسقفاً من قبله ليطوف في الكنائس الشرقية التي اتحدت بالكرسي الرسولي وليعمل ايضاً على اتحاد الطوائف التي كانت لا تزال منفصلة. وكان للنساطرة جالية في قبرس[1] لها اسقف يسمّى تيموثاوس الطرسوسي، وكان فيها من بواقي المونوثيليّة (القائلين بان في المسيح مشيئة واحدة) طائفةٌ لها اسقف يسمّى الياس. فبعد مفاوضات طويلة مع المندوب البابوي، رضي الاسقفان المذكوران وشعبهما بالاتحاد مع الكرسي الرسولي؛ وأُقيمت لذلك حفلة عظيمة في كنيسة اجيا صوفيا التي في عاصمة تلك الجزيرة؛ وارسلت كلُّ طائفة مندوباً من قبلها الى رومة. وبعد البحث والمفاوضة، صرح المندوبان بقبول كنيستيهما العقيدة الارثوذكسية بشأن انبثاق الروح القدس وطبيعتَي المسيح ومشيئتَيه والاسرار السبعة ورئاسة الحبر الروماني؛ ووعد مندوب النساطرة ان لا يضيف كهنتهم زيتاً الى مادة سرّ الاخارستيا. وفي ٧ آب سنة ١٤٤٥، في الجلسة الثانية التي عقدها المجمع في الكنيسة اللاترانية عقب انتقاله من فلورنسا الى رومة، اعلن البابا اجانيوس الرابع صك الاتحاد مع الطائفتين المذكورتين ومنع تسمية اتباعهما هراطقةً. وبهذا خُتمت اعمال مجمع الاتحاد

(١) كانت هذه الجزيرة في ذلك الحين تابعة لجمهورية جنوى الايطالية. وبقيت خاضعة لها الى سنة ١٤٨٥ اذ حلَّ البندقة محلَّها، الى ان استولى عليها الاتراك في القرن السادس عشر

وفاة البابا افجانيوس الرابع

وقد انتقل افجانيوس الرابع الى رحمة الله في ٢٣ شباط سنة ١٤٤٧، وقال وهو على فراش الموت « انه يموت متعزياً، لان عينيه قبل ان تُغمضا الإغماض الاخير قد رأتا الكنيسة متحدّةً »

وخلفه على الكرسي الروماني البابا نقولا الخامس (١٤٤٧ — ١٤٥٥)، الشهير بفضيلته وعلمه، وذو الايادي البيض على نهضة العلوم والآداب والفنون في ايطاليا منذ كان كردينالاً ومطراناً على مدينة بولونيا . وبعد انتخابه بسنتين، اذ رأى اعضاء مجمع بال الذين كانوا يوالون اجتماعاتهم غير القانونية ان مساعيهم ذاهبة ادراج الرياح، استقال البابا غير الشرعي الذي كانوا قد انتخبوه (فليكس الخامس)؛ وفي ٢٥ نيسان من السنة المذكورة (١٤٤٩) انتخب اعضاء ذلك المجمع نقولا الخامس نفسه حبراً اعظم، وأدوا له الطاعة والخضوع، واعلنوا انحلال مجمعهم . وهكذا ساد الاتحاد الكنيسة الغربية بعد ان كان مجمع بال يهدّدها بالانقسام

المراجع

اعتمدنا على مصدرين فقط وهما : ١ً « تاريخ المجامع » تأليف هفله ولكلرك، الجزء الثاني من المجلد السابع، طبعة سنة ١٩١٦، ص ١٠٧١ ـ ١٢٠٦) ٢ً « تاريخ الكنيسة الكاثوليكية الجامع » تأليف روهرباخر، المجلد الحادي والعشرون، ص ٥٥٥ — ٥٩١

محمد الثاني الفاتح
استولى على القسطنطينية سنة ١٤٥٣
(ص ٧٢)

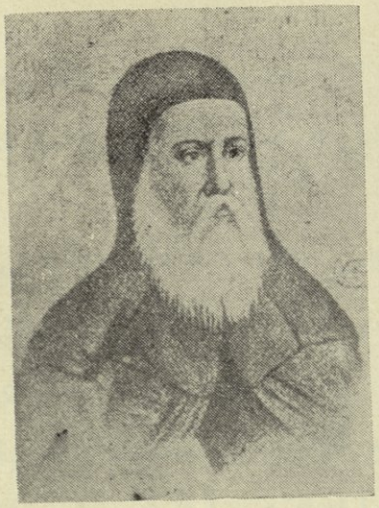

البطريرك القسطنطيني كيرلس الاول
لوكاريس المتوفى سنة ١٦٣٨
وقد حاول ان يدخل تعاليم المذهب
الكلوبني في الكنيسة الارثوذكسية
(ص ٧٦)

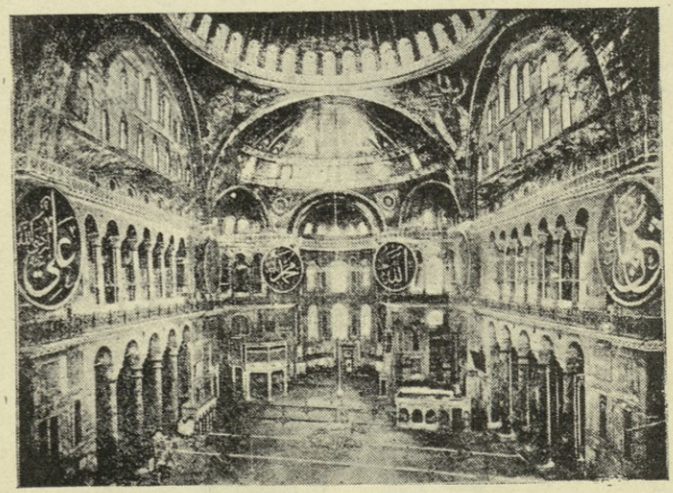

منظر اجيا صوفيا من الداخل
بعد تحويلها الى جامع في العهد العثماني

الفصل الثامن

اتحاد فلورنسا وكنيسة القسطنطينية

قد يخيَّل للمرء ان اتحاداً كالاتحاد الذي عُقد في مجمع فلورنسا، — في مثل الاحوال الملائمة التي تمَّ فيها، في جوٍّ عامٍ من المحبة المتبادلة لم يعكّر صفاءه الا بعض اصواتٍ معارِضة، وعن رغبة صادقة من قِبَل جميع المسيحيين في إزالة الانقسام بينهم، وعن شعور عمومي كانوا يشعرون به بحاجات الكنيسة والعالم اجمع الى مثل هذا الاتحاد — ان اتحاداً كهذا كان ينبغي ان يقابَل بمثل الابتهاج والرجاء اللذين عبّر عنهما صك المجمع الفلورنسي الذي صدر في ٦ تموز سنة ١٤٣٩

لكنّ الواقع ان هذا الصك — وسائر الصكوك التي صدرت في المجمع المذكور — كانت كأن لا أثر لها : لأن الاتحاد الذي اتفقوا عليه كتابةً لم يتمّ فعلاً. واذا كنا نرى اليوم كنائس شرقيةً متحدةً، فليس اتحادها نتيجة المجمع مباشرةً، اذ انه حصل بعد اجتماعات فلورنسا بقرنين او ثلاثة قرون . اما العدد الاكبر من ابناء الكنائس الشرقية، فلم يرضوا بالاتحاد؛ ويمكن ان يقال ان حالة الانفصال اليوم بينهم وبين الكنيسة الكاثوليكية اشدّ وأبعد اثراً مما كانت عليه حينئذٍ

وسنرى في ما يلي ما آل اليه الاتحاد في مختلف الكنائس الشرقية، بادئين اولاً بالكنيسة العظمى، كنيسة القسطنطينية

كيف قوبل صك الاتحاد في كنيسة القسطنطينية

عقب توقيع صكّ الاتحاد عجّل الملك يوحنا الثامن پاليولوغس في الرجوع الى عاصمته لتدارُك الحالة هناك تجاه الاتراك الذين كان قد استفحل امرهم . وكان في نفسه رغبةٌ صادقة في الاتحاد وعزمٌ ثابت على تنفيذ عهوده . ولكنه صودم في القسطنطينية بمعارضة شديدة من الرأي العام، الذي كان أثاره الرهبان وبعض الاساقفة، وعلى رأسهم مرقس الجانيكس مطران افسس . فكانوا يوجّهون قوارص الكلام الى الروم المتحدين وينعتونهم «بالفطيريين واللاتين والخونة والهراطقة»؛ ولم يتورّعوا من استعمال الكذب والبهتان في محاربة الاتحاد . وبعض الذين وقّعوا صكّ الاتحاد

في فلورنسا انقلبوا عليه لما عادوا الى الشرق، منهم سلفستروس سيروبولس مؤرخ المجمع وجاورجيوس سكولاريوس الذي صار بطريركاً على القسطنطينية باسم جناديوس بعد فتح المدينة واستيلاء محمد الثاني عليها . وامتدت حركة المعارضة من مملكة الروم الى البطريركيات الملكية، فاجتمع فيلوثاوس بطريرك الاسكندرية[1] الى يواكيم بطريرك اورشليم وربما الى دوروثاوس ايضاً بطريرك انطاكية[2] في سنة ١٤٤٣ في المدينة المقدسة واصدروا قراراً مجمعياً، اعتبروا فيه مجمع فلورنسا « غير قانوني واستبدادياً وكاذباً » . وقد زعم بعضهم ان مجمعاً عُقد في القسطنطينية سنة ١٤٥٠ بحضور البطاركة الثلاثة المذكورين فرفض صراحةً الاتحاد الذي تقرر في فلورنسا وعزل غريغوريوس ممّاس البطريرك القسطنطيني . لكن الابحاث التاريخية العصرية اثبتت ان هذا المجمع لم يُعقد قط . على ان الوثائق التي كان يُبنى عليها القول بحصوله تدل على كل حال على شدة المعارضة للاتحاد الفلورنسي، وعلى ان المعارضة لم يكن لديها اسباب جوهرية كالتي بُني عليها صك الاتحاد، بل انما حججها هي الاختلافات الطقسية العرضية او مسلك بعض اللاتين في معاملة الروم

ومع ذلك عمل الملك على توطيد الاتحاد . وساعده على هذا نخبة من الاكليريس اليوناني وعلى رأسهم البطريرك مطروفانس الثاني[3]، ثم البطريرك غريغوريوس الثالث ممّاس[4] . وقد انتقل الملك المذكور الى رحمة الله في ٣٠ تشرين الاول سنة ١٤٤٨، وقد خاب امله في مساعدة الافرنج له[5] واصبح مكروهاً لدى شعبه بسبب ثقته

---

(١) كان هذا البطريرك قد اظهر عظيم الابتهاج بحصول الاتحاد وكتب في ذلك رسالةً الى البابا لا تزال محفوظة . ولكن رُسل مرقس الافسسي غيّروا رأيه

(٢) لكن التاريخ لا يؤكّد اشتراك البطريرك الانطاكي في اجتماع اورشليم المذكور

(٣) من سنة ١٤٤٠ الى سنة ١٤٤٣

(٤) من سنة ١٤٤٣ الى سنة ١٤٥١ حيث ترك القسطنطينية منسحباً الى رومة وعاش ومات فيها بعرف القداسة سنة ١٤٥٩

(٥) ليس معنى ذلك ان البابا افجانيوس الرابع نكث بوعده، ولكنه لم ينجح في مساعيه لدى دول اوربا . ولما حاصر الاتراك بلغراد سنة ١٤٤٢ ارسل البابا مندوبه شيزاريني ينادي بحربٍ صليبية في البلاد المهدَّدة بالخطر . فقام الارناؤطي جاورجيوس اسكندر بك يقاتل الاتراك غرباً، فيما المجري يوحنا كُرفين (من أُسرة هُنيادي الشهيرة) قام يقاتلهم شمالاً باسم لادسلاس ملك بولونيا . وفي سنة ١٤٤٤ عقد الفريقان هدنةً واقسما على الانجيل والقرآن ان يمتنعا عن القتال مدة عشر سنوات . ولكن شيزاريني حمل الافرنج على نقضها . فقاتلهم مراد الثاني وحمل

بهم . وترك المملكة في حالة يرثى لها من اليأس والضعف؛ وخلّف ولدين، قسطنطين وديمتريوس، اخذا يتنازعان الملك واتخذا السلطان مراد الثاني حكماً بينهما فقضى بالملك لقسطنطين

قسطنطين الحادي عشر ذراغاسيس والاتحاد

لما استقلّ السلطان محمد الثاني بالملك بادر الى نزال اسكندر بك الارناؤطي وقهره . فدبّ الرعب في قلب قسطنطين الحادي عشر والتجأ من جديد الى البابا، وكان حينئذٍ نقولا الخامس (١٤٤٧—١٤٥٥) . وكان ديمتريوس اخو الملك قائماً على رأس الحزب المعارض في الاتحاد . فحصل في هذه المرّة ما حصل مرّاتٍ فيما مضى : كتب ملك الروم يستغيث طالباً النجدة سريعاً وواعداً بالعمل بعد ذلك على توطيد الاتحاد . فأجابه البابا ان مثل هذه المواعيد لم تعد تُقنع احداً وضرب له اجلًا ثلاث سنوات يعود فيها الملك والاكليرس والشعب الى الاتحاد، فان فعلوا في اثنائها وجدوا الكنيسة الغربية مستعدّة لمساعدتهم . وأرسل البابا الى القسطنطينية سفيراً من قبله ايسيذورس رئيس اساقفة كياف فتمكن هذا السفير في ١٢ كانون الاول سنة ١٤٥٢ من إقامة حفلة دينية في كنيسة آجيا صوفيا بحضور الملك والاعيان ونحو ثلاث مئة اكليريكي للتدليل على الاتحاد . فلما شاع خبر هذه الحفلة قامت المدينة وثار الشعب في حالةٍ شديـدة من الغضب واظهر من الكراهة والضغينة للاتين ما يعجز وصفه؛ فالرهبان والعسكر وغيرهم من العلمانيين والراهبات انفسهنّ نزلوا الى الميدان وحرّضوا الامة على الهيجان، ونعتوا الذين حضروا حفلة ١٢ كانون الاول بانهم « جاحدون » اي منكرون للديانة، وحضّوا الناس على معاملتهم معاملة الجاحدين، وقالوا ان كنيسة اجيا صوفيا قد دُنست بتلك الحفلة فلا يجوز للمستقيمي الرأي دخولها . فقامت تظاهرة عظيمة امام دير بندوكراتور (الضابط الكلّ) حيث كان جاورجيوس سكولاريوس . فزاد هذا الاخير في تهييجهم وقال لهم انهم في اليوم الذي ينكرون فيه دين ابائهم يسقطون في عبودية العدوّ الاجنبي . وقد

المعاهدة التي نقضوها على رأس رمحٍ في مقدمـة جيشه ونازلهم في وارنه ببلغاريا وقطع رأس لادسلاس ملك بولونيا وحمله على رمح وكسرهم شرّ كسرة . وكان شيزاريني بين قتلى هـذه الموقعة . ويرى علماء التاريخ ان انكسار الافرنج في وارنه سبّب انكسار الروم في القسطنطينية

ذكر احد مؤرخي ذلك العهد ان واحداً من كبار الروم قال انه خير للقسطنطينية ان ترى عمامة الاتراك من ان ترى برنيطة الكرادلة[1]

سقوط القسطنطينية في يد الاتراك سنة ١٤٥٣ م. – الاتراك واوربا

ان تفاصيل هذا الحادث مشهورة . ففي ٦ نيسان سنة ١٤٥٣ بدأ السلطان محمد الثاني يحاصر « المدينة المتملكة » بجيش عرمرم واسطول مؤلف من ثلاث مئة سفينة حربية . وقد أبدى الروم ومن ساعدهم من البنادقة آيات باهرة من ضروب الشجاعة والاستبسال؛ كما ان الاتراك ابدوا من الجلد والحزم والإقدام ما يعجب له التاريخ . وفي ٢٩ ايار سقطت المدينة في يد المحاصرين، وقُتل الملك قسطنطين الحادي عشر والسيف بيده، ولم ينجُ ايسيذورس رئيس اساقفة كياف الا بالهرب خفيةً، وقد وضع برنيطته الحمراء على رأس جندي مقتول فحزّ الاتراك ذلك الرأس وألبسوه البرنيطة وطافوا به على رأس رمح . ونهبوا كل ما وقع تحت يدهم مدّة ثلاثة ايام، وقتلوا من الناس عدداً لا يُحصى، واستعبدوا عشرات الالوف من النساء والرجال والاطفال . وهكذا بادت مملكة الروم الشرقية بعدما حملت لواء النصرانية مدة احد عشر قرناً، وقام على انقاضها مملكة الاتراك العثمانيين

ولا نقصد هنا وصف ما حدث بعد ذلك من الحروب بين الاتراك والدول الاوربية . فكان السلاطين دائماً في حالة حربٍ إمّا لضبط الشعوب المسيحية التي اخضعوها، واما للدفاع عن فتوحاتهم، واما لغزو بلاد اخرى . وفي القرنين التاليين لسقوط القسطنطينية، كانت « الحرب الصليبية » من اهمّ المسائل التي شغلت الباباوات . فما زالوا ينادون بها ويعملون على تنظيم حملاتها، ولكن نجاحهم كان ضئيلاً[2] . قال احد الخطباء في مجمع ڤينا بفرنسا سنة ١٥١٣ : « ما الفائدة من الدعوة الى الحرب الصليبية ما دام الامراء المسيحيون مستمرّين على التناحر وعلى تمزيق بعضهم بعضاً ؟ اننا لا نرى بينهم الا الضغائن والاحقاد، إلّا المذابح والملاحم

(١) وصف المؤرخ الرومي ميخائيل ذوكا شيئاً مما حصل حينئذٍ في القسطنطينية من فظائع الاقوال والافعال : راجع « تاريخ الكنيسة الكاثوليكية الجامع »، تأليف روهرباخر، المجلد ٢٢، ص ١٩٣–١٩٥

(٢) راجع في ذلك ما دوّنه روهرباخر في « تاريخ الكنيسة الكاثوليكية الجامع » المجلد ٢٥، ص ٦٣٧ وما بعدها

التي تسيل فيها دماء النصارى . هذا هو الشرّ الفظيع الذي يجب معالجته اولاً . . . »

واستمرّ نجم الاسلام في صعودٍ حتى بلغ الأوج وشرع في النزول عند قيامهم بحصار ثينًا عاصمة النمسا سنة ١٦٨٣ واندحارهم تحت اسوارها امام جيوش يوحنا الثالث سوبيسكي ملك پولونيا، ثم اندحارهم سنة ١٦٨٧ في سهول موهاچ ببلاد المجر امام الجيوش الاوربية التي كان يقودها شارل دي لورّين

وبعد ذلك بقليل قامت مملكة شرقية جديدة، مملكة القياصرة الموسكوفيين، تحت امرة بطرس الاكبر (١٦٨٢–١٧٢٥) . فقالت انها تكمّل مملكة الروم، وانها حامية الارثوذكسية، وان موسكو هي رومة الثالثة . وفي الوقت نفسه لم تعد أُمة بني عثمان أُمّةً غازيةً بل اصبحت مملكة اوربية ودخلت في مصفّ الدول الغربية

كنيسة القسطنطينية تحت الحكم العثماني

لما استولى الاتراك على القسطنطينية كان بطريركها غريغوريوس الثالث مماّس في رومة . وبما انه لم يتنازل عن كرسيه ولم يُعزَل عنه، كان الكرسي الرسولي يعتبرهُ بطريركاً شرعياً . ولما مات سنة ١٤٥٩ عيّن الكرسي الرسولي بدله ايسيذورس رئيس اساقفة كياف († ١٤٦٣) ثم بيساريون († ١٤٧٢)

على ان هؤلاء البطاركة المتحدين كانوا مقيمين في رومة . فلما لم يحضر رئيس الملة المسيحية ليقدم احترامه للسلطان، استفهم محمد الفاتح عن السبب فقيل له ان الكرسي البطريركي شاغر . حينئذٍ امر باجراء انتخاب قانوني فوقع الاختيار على جاورجيوس سكولاريوس السابق ذكره وصار تنصيبه بطريركاً باسم جناديوس الثاني (١٤٥٤–١٤٥٧) ومنحه السلطان فرماناً او براءةً بتعيينه بهذه الصفة . ودوّن في هذه الوثيقة الرسمية الامتيازات التي اعترف بها له؛ وصار ذلك الفرمان فيما بعد اساساً لكل البراءات التي صدرت لمختلف الطوائف غير الاسلامية في الممالك العثمانية . واذا نظرنا من الوجهة البشرية الى النظام الجديد الذي وضعه الفاتحون الاتراك لبطريركية القسطنطينية نرى انه يفضل النظام السابق الذي كان معمولاً به في عهد الملوك المسيحيين « المعادلين الرسل[1] » . فالبطريرك اضحى رئيس

(١) هذا لقب من القاب ملوك الروم، بسبب ما كانوا يقومون به من الاعمال الرسولية لنشر الديانة المسيحية والدفاع عنها

الكنيسة الوحيد : فمن جهةٍ انقطعت كل علاقة بالسلطة الدينية العليا الرومانية؛ ومن جهةٍ اخرى لم يبقَ هناك ملك مسيحي يُسمّي نفسه « اسقف الخارج[1] »، ويتدخل في ادقّ المسائل الكنسية ويصدر ما يراه من المراسيم والقوانين الخاصة بالامور الدينية، ويضايق البطريرك في كل شيء. وهذا البطريرك الذي اضحى الرئيس الوحيد قد امتدت سلطته الى جميع البلدان التي أخضعها سيف بني عثمان[2]، فأصبح ذا نفوذ عظيم لم يكن يحلم به البطاركة البيزنطيون السابقون عندما كانوا يطلبون من البابا الاعتراف لهم بلقب « البطريرك المسكوني » . وعلاوةً على ذلك أعفاهم السلطان من الضرائب هم وكل الاكليرس، وضمن لهم حرية الاعتقاد والاحتفاظ بكنائسهم[3] فلم يبقَ لهم اية مصلحة، من الوجهة البشرية، في الاتحاد

وعلاوةً على ذلك، كان السلاطين يخشون نفوذ الباباوات الذين ما زالوا من قديم الزمن يحرّضون الافرنج على مقاتلة الاتراك[4]. ولذا ما كانوا يرون بعين الرضى احداً من رعاياهم يعترف بسلطة الحبر الروماني . وهذا ما حدا البطاركة القسطنطينيين على زيادة الابتعاد عن رومة. ولما جلس البطريرك سمعان الطرابزوني

---

(١) هذا لقب آخر اخذه ملوك الروم من عهد قسطنطين الكبير، بسبب ما كانوا يقومون به من تقديم الحماية الخارجية للكنيسة وتنفيذ احكامها

(٢) يُلاحَظ ان السبب الذي ترتّب عليه امتداد سلطة البطاركة القسطنطينيين انما هو اتساع اقاليم الدولة العثمانية . فلما اضطر الاتراك الى الانسحاب شيئاً فشيئاً من الاقاليم التي كانوا فتحوها نجم عن ذلك انكماش سلطة هولاء البطاركة ايضاً . وهكذا نشأت الكنائس الارثوذكسية المستقلة في رومانيا والصرب والبلغار واليونان الخ

(٣) مسألة حرّية الاعتقاد والاحتفاظ بالكنائس لا يمكن قياسها الا نسبياً . فالتاريخ طافح باخبار الشهداء المسيحيين واخبار الذين اضطُرّوا اضطراراً الى الاسلام في كل جهات السلطنة العثمانية

(٤) كان السلطان محمد الثاني، قبل فتحه القسطنطينية، يجاهر بعدائه للدين المسيحي، وفي اثناء محاربته اسكندر بك الارناؤطي كان يتوعد المسيحيين بإبادة اسمهم من الارض . ولما فتح القسطنطينية وعلم بالحرب الصليبية التي نادى بها البابا نقولا الخامس كتب اليه رسالة مملوءة « سياسةً » ودهاءً يُهدّئ فيها روعه، ويطلب منه ان لا يقيم العراقيل في وجه الاتراك لكي لا يزيد سفك الدماء، ويقول انه عازم على اعادة رومة الى مجدها القديم، وانه بعد فتح العالم قد ينتهي يوماً باعتناق الدين المسيحي . . .

على الكرسي البيزنطي للمرة الثالثة (١٤٨١–١٤٨٦) دعا اساقفته الى مجمع عُقد سنة ١٤٨٤ في العاصمة[1] ونقض فيه صراحةً صكّ الاتحاد الفلورنسي

العلاقات مع رومة الى اواخر القرن الثامن عشر

رغم انقطاع العلاقات الرسمية بين رومة والقسطنطينية، لم تكن الحالة النفسية فيهما، في القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، على ما نراها عليه من الفتور والضعف في القرنين التاسع عشر والعشرين . ففي الغالب ما كانوا ينظرون بعضهم الى بعض كالاخوة المتعادين الذين لا يتكاتبون الا نادراً وبشكل رسمي؛ بل نرى كثيراً من آثار المراسلات الاخوية بين الفريقين، يستعملون فيها عبارات الودّ والمحبة المسيحية، ويتواصون بالكهنة المسافرين من بلاد الى بلاد؛ ونرى ايضاً الباباوات يتدّخلون في بعض الشؤون الداخلية الشرقيـة، ونرى بعض البطاركة يرسلون الى رومة صورة ايمانهم الكاثوليكي . وكان المرسلون اللاتين اليسوعيون والكبوشيون ينالون بسهولةٍ الاذنَ من البطاركة والاساقفة ورؤساء الديورة في القـاء المواعظ والتعليم المسيحي في كنائس الروم وسماع الاعترافات والارشاد الروحي . وكان البطاركة والاساقفة يرسلون اولاد اقاربهم الى رومة ليتخرجوا في مدارسها اللاهوتية، وقد برَّز بعض اولئك التلامذة في الفضائل والعلوم . وبنى البابا غريغوريوس الثالث عشر « مدرسة القديس اثناسيوس اليونانية » في رومة سنة ١٥٧٧ لقبول الطلبة الروم

ويجدر بنا ان نشير هنا بكلّ اختصار الى بعض الحوادث التي لها علاقـة بموضوعنا :

فالبطريرك ديونيسيوس الثاني (١٥٤٦ – ١٥٥٥) دخل في مفاوضة مع الحبر الروماني بقصد الوصول الى المصالحة وأوفد رسوله الى ايطاليا . ولكن يظهر ان هذا الرسول تجاوز حدود مهمته . فانكر البطريرك عملـه؛ ثم عزله عن كرسي قيصرية المتروبوليتي، وجعله يوقّع اقراراً يعاهد فيه على ان لا يقبل في المستقبـل الجلوس على الكرسي البطريركي . على ان هذا العهد لم يحُل دون جلوسه على

(١) المؤرخون غير متفقين على تاريخ هذا المجمع . فهو عندهم ما بين سنة ١٤٧٢ وسنة ١٤٨٤ . لكن العلماء العصريين الذين يُعوَّل عليهم يميلون الى هـذا التاريخ الاخير كما اثبتناه في المتن

الكرسي المذكور مرّتين باسم مطروفانس الثالث (١٥٦٥ ـ ١٥٧٢ و١٥٧٩ ـ ١٥٨٠)، مع محافظته على حسن العلاقة بالكرسي الروماني

والبطريرك ارميا الثاني الذي جلس ثلاث مرات على الكرسي القسطنطيني (١٥٧٢ ـ ١٥٧٩ و١٥٨٠ ـ ١٥٨٤ و١٥٨٦ ـ ١٥٩٥) كان في سنة ١٥٨١ على اتصال بالبابا غريغوريوس الثالث عشر (١٥٧٢ ـ ١٥٨٥) بواسطة سفير البندقية لدى الباب العالي، بقصد الوصول الى الاتفاق. وكان علماء اللاهوت بمدرسة توبنجن البروتستانية في المانيا يودّون ان يروا كنيسة الروم تؤيد تعاليمهم اللوثرية كما هي مدوّنة في الوثيقة المعروفة « باعتراف أوغسبورج » . فكتبوا في ذلك الى ارميا الثاني . فألّف في الردّ عليهم رسائل طويلة طافحة بالتعاليم الصحيحة التي تؤيد التعاليم الكاثوليكية (ما عدا مسألة انبثاق الروح القدس) . فخيّب املهم واثبت وحدة الاعتقاد بين الكنيستين الشرقية والغربية في كل ما ينكره اللوثريّون[1]

وقد عُزل البطريرك رفائيل الثاني (١٦٠٣ ـ ١٦٠٨) بسبب ميله الى الكثلكة

وكان البطريرك ناوفيطس الثاني (١٦٠٢ ـ ١٦٠٣ و١٦٠٨ ـ ١٦١٢) والبطريرك تيموثاوس الثاني (١٦١٢ ـ ١٦٢٠) معروفين بعطفهما على الكاثوليك، ويظهران محبةً خاصةً للمرسلين اليسوعيين في القسطنطينية

وفي سنة ١٦٢٢ أسس البابا غريغوريوس الخامس عشر (١٦٢١ ـ ١٦٢٣) الديوان او المجمع الروماني المعروف بالبروبغندا او نشر الايمان . وكان في الاصل يرمي الى العمل على اتحاد الكنائس . ثم اضيفت اليه فيما بعد مسائل الرسالات في غير البلاد المسيحية

وقد دخلت الكنيسة الارثوذكسية في نضال جدّي للدفاع عن عقائدها التقليدية تجاه المبادئ البروتستانية سنة ١٦٢٠، عندما جلس كيرلس الاول لوكاريس على الكرسي القسطنطيني . فان هذا البطريرك، الذي كان قبلاً بطريرك الاسكندرية، قد تشرّب التعاليم الكلوينية وحاول ان ينشرها في الكنيسة الارثوذكسية . فكان عهده عهد اضطراب في جميع كنائس الشرق الارثوذكسية . وقد جلس على العرش

(١) راجع المجلد ٢٥ من كتاب روهرباخر السابق ذكره، ص ٦٣٨

سبع مرات، مما لا مثيل له في التاريخ (١٦١٢، و١٦٢٠ – ٢٣، و١٦٢٣ – ٣٠، و١٦٣٣ – ٣٤، و١٦٣٤ – ٣٥، و١٦٣٧ – ٣٨) . واهم من جاهده مدافعاً عن الارثوذكسية كيرلس مطران حلب الذي جلس هو ايضاً ثلاث مرات على كرسي القسطنطينية (١٦٣٣، و١٦٣٥ – ٣٦، و١٦٣٨ – ٣٩)؛ وكان يساعده سفراء الدول الكاثوليكية لدى الباب العالي، فيما كان سفراء الدول البروتستانية يساعدون كيرلس لوكاريس . وقد كتب كيرلس الثاني المشار اليه في ١٥ كانون الاول سنة ١٦٣٨ اعترافاً كاثوليكياً بايمانه

وكان البطريرك كلّينيكُس الثاني، الذي جلس ثلاث مرات على الكرسي القسطنطيني بين سنة ١٦٨٨ و١٧٠٢، يقول للاباء اليسوعيين ان الحبر الروماني ابوه، وانه هو لا رئاسة له الا بعد رئاسة البابا . وكان يشكو من ان الحكم العثماني يمنعه من التصرّف بحرّية في اعماله وابداء ارائه

وقد يتساءل المرء عن السبب في قلّة العلاقات الحقيقية بين عاصمتي الشرق والغرب الدينيتين في مدّة القرون الثلاثة التي نحن في صددها . فلا شكّ في أنّ كُره السلاطين للكرسي الرسولي الذي ما زال يثير الحروب الصليبية عليهم، كان من الاسباب العاملة على هذا التجافي بين الكنيستين[1] . ولم يكن الضغط التركي امراً يستهان به . فقد شنق السلاطين خمسةً من بطاركة العاصمة . وكانوا يعزلونهم ويعيدونهم الى كرسيهم بكل سهولةٍ وبطرق استبدادية مرتين وثلاثاً واربع الى سبع مرات[2] وكان الوزراء والمقرّبون يمتصون اموال الكنيسة، ويبيعون الوظيفة البطريركية لاكبر المزايدين كما كانوا يفعلون بمناصب الولاة وسائر وظائف الدولة . فمن سنة ١٤٥٣ الى سنة ١٦٢٠ فقط اجلسوا على السدة البطريركية ٤٣ بطريركاً، لم يمت منهم على كرسيه الا ثلاثة عشر والباقون ماتوا معزولين . فكيف يستطيع البطاركة في مثل تلك الاحوال ان يهتموا بأمر كأمر الاتحاد

---

(١) راجع « مجلة الشرق المسيحي » Revue de l'Orient Chrétien ، سنة ١٨٩٦، ص ١٣٤–١٣٥

(٢) قال المؤرخ مورّه Fernand Mourret في كتابه « تاريخ الكنيسة العام » Histoire générale de l'Eglise (المجلد السادس، ص ٥٢٥) انه في القرنين السابع عشر والثامن عشر جلس على الكرسي القسطنطيني ٥٢ بطريركاً ولكن عدد حبرياتهم بلغ ٩٠، اي ان كثيرين منهم تبوّأوا الكرسي مرتين او اكثر

في القرن التاسع عشر

و يمكن ان يقال انه من اواخر القرن الثامن عشر قد زالت تقريباً كل صلة بين القسطنطينية ورومة؛ فلم يصعد على الكرسي القسطنطيني من فكّر يوماً في اعادة تلك الصلة او في فتح الباب الذي قرعه الباباوات غير مرّةٍ . ويمكن تعليل ذلك باسباب مختلفة . منها ان الثورة الفرنسية الكبرى (١٧٨٩) قضت على اكثر الرسالات الفرنجية في الشرق، وكان قد سبقها حلّ الرهبانية اليسوعية (١٧٧٣) وانسحابُ اعضائها من مراكزهم العديدة؛ فلما عاد المرسلون في النصف الاول من القرن التاسع عشر كانت قد انقطعت التقاليد ونسي الفريقان علاقاتهما السابقة . فبدأ العمل الجديد في جوّ يسوده الحذر والتجاهل

ومن الاسباب الداعية الى التجافي ايضاً، ان اليونان التابعين الطقس اللاتيني الذين في جزر الارخبيل وغيرها لم يشتركوا مع اخوانهم الارثوذكس في الثورة الوطنية الكبرى في الربع الاول من القرن التاسع عشر، عندما هبَّ اليونان في وجه الاتراك يطالبون باستقلالهم، فكان تأخرّهم هذا داعياً الى اثارة الاحقاد القديمة ضد اللاتين[1]

ومن جهة اخرى، « أخذ المرسلون اللاتين، من كلّ رهبانية وكلّ جنسية، يتشدّدون في تنفيذ ما اصدره مجمع نشر الايمان المقدس من التعليمات بشأن الاشتراك في القدسيات[2] . ولم يجعلوا دائماً بينهم وبين اكليرس الروم علاقة حُسن الجوار

(١) راجع في ذلك « مجلة الشرق المسيحي » السابق ذكرها، سنة ١٨٩٦، ص ١٠٣

(٢) تمنعُ كلُّ كنيسةٍ بنيها من الاشتراك مع الكنائس الاخرى في « الاشياء المقدسة » او « الاشياء الالهية »، ولاسيما في ما هو من قبول الاسرار وتنفيذ وصايا الكنيسة . ولكن القواعد الخاصّة بهذا الموضوع ليست كلُّها من التشديد والتدقيق والصفة العمومية بحيث يجب تطبيقها في كل الاحوال بلا تمييز؛ بل ان هناك احوالاً كثيرة تحتمل التخفيف ومراعاة المكان والزمان والاشخاص، بحسب مقتضيات الفطنة وخير النفوس . فحضرة الاب العالم سيمون فاييه S. Vailhé الذي اخذنا عنه العبارة المذكورة في المتن (راجع « قاموس اللاهوت الكاثوليكي »، الجزء الثاني من المجلد الثالث، العمود ١٤٥٨) يقول ان المرسلين اللاتين لم يراعوا تلك الاحوال . نقول : بل انهم احياناً تجاوزوا الحدود في ذلك الى درجة لا تطاق، فامتنعوا عن السجود امام القربان في الكنائس غير الكاثوليكية، وامتنعوا عن دخول تلك الكنائس ولو لحضور جنازة، وامتنعوا عن قبول رجال الاكليرس غير الكاثوليكي في كنائسهم وعن إظهار علامات الاحترام الخارجية التي يقتضيها لهم مجرد الذوق وآداب المعاشرة فضلاً عن المحبة المسيحية

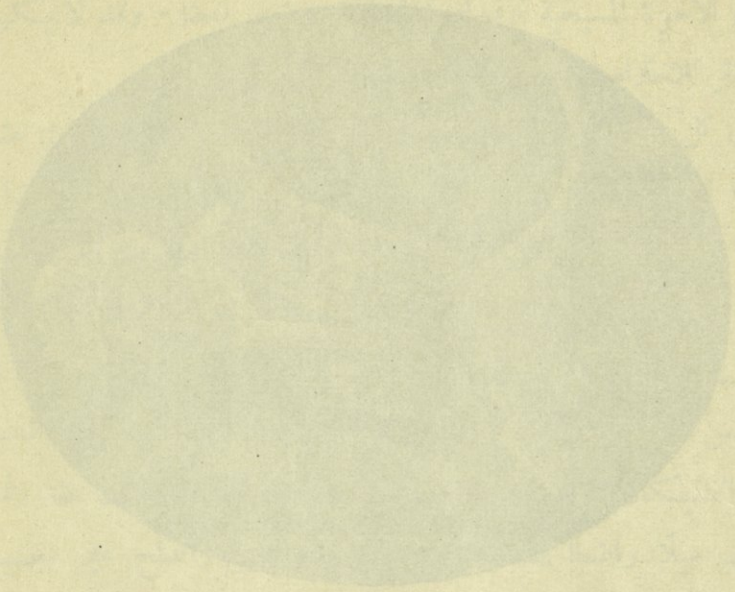

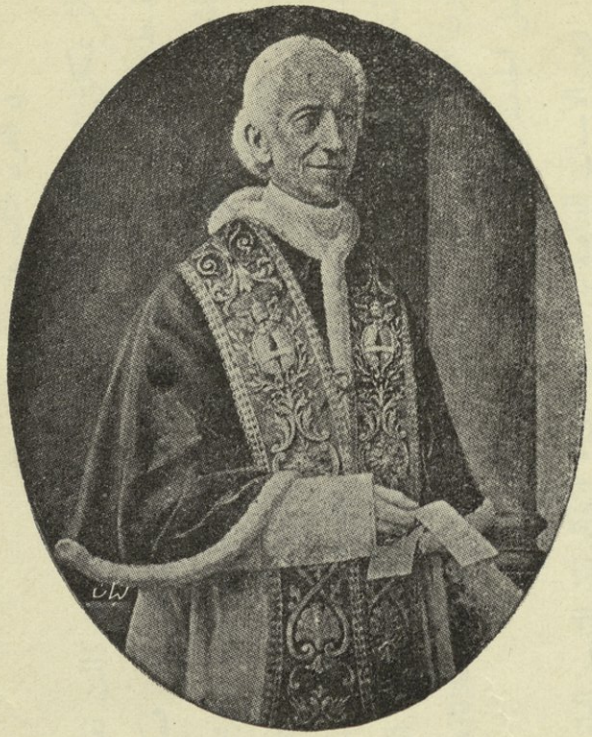

البابا لاون الثالث عشر

رسول الاتحاد في القرن التاسع عشر

برج الساعة

في دير فاتوبيدي وهو من الاديار الرئيسية في جبل آثوس

التي يتطلّبها روح الاخوّة المسيحية . فصاروا يجهلون بعضهم بعضاً . وقد لا يكون ذلك اضمن وسيلةٍ للاحترام المتبادل او للاتحاد »

وقد حاول كلّ من بيوس التاسع (١٨٤٦ - ١٨٧٨) ولاون الثالث عشر (١٨٧٨ - ١٩٠٣) ان يعيدا الاتصال بالشرق الارثوذكسي . فكتب الاول رسالةً عامةً سنة ١٨٤٨ موجّهةً الى الكنائس الشرقية . فردّ عليه البطريرك القسطنطيني انثيمس السادس[1] رداً ناشفاً، وحذا حذوه البطريرك السابق المعزول قسطنطين الاول[2] . ولما كلّف البابا المذكور قاصده الرسولي في القسطنطينية ان يزور بطريركها غريغوريوس السادس (في بطريركيته الثانية، ١٨٦٧ - ١٨٧١) ويسلّم اليه الدعوة الى حضور مجمع الفاتيكان، رفض البطريرك تسلّمها[3] . اما لاون الثالث عشر فمنذ مطلع حبريته اظهر ميلاً واضحاً للكنائس الشرقية، وأسّس وأصلح غير معهدٍ لخيرها، وحافظ بغيرة على طقوسها وحقوقها وعمل على اصلاح عقلية كثيرين من المرسلين اللاتين وما كانوا يلجأون اليه من الاساليب غير الموافقة للاتحاد؛ واخيراً وجّه في شهر حزيران سنة ١٨٩٤ رسالته الشهيرة Præclara يدعو الشرق دعوةً ودية صريحة الى الاتحاد مستنداً في كلامه الى اسمى الافكار والشعور . ولكن سينودس كنيسة القسطنطينية، برئاسة البطريرك انثيمس السابع (١٨٩٥-١٨٩٦)، اجابه في شهر آب سنة ١٨٩٥ جواباً بعيداً عن كل سموٍّ في الفكر او في العاطفة، قال عنه بعض المؤرخين انه « جواب وقح »

---

(١) جلس مرتين على الكرسي البطريركي، ١٨٤٥-١٨٤٨، و١٨٥٣-١٨٥٥

(٢) كان سابقاً رئيس اساقفة سينا، وكان ممتازاً بكثير من الصفات الحسنة

(٣) نشرت مجلة « ايرينيكون » Irénikon التي يصدرها الاباء البندكتيون في آمي Amay ببلجيكا مقالةً بشأن الدعوة التي وُجّهت الى البطاركة واساقفة الكنائس الشرقية لحضور المجمع الفاتيكاني . والغرض الذي رمى اليه كاتب تلك المقالة (وهو حضرة الاب فرنكو دي فيلس Dom Franco de Wyels) إظهار ما وقع من الاخطاء في كيفية الدعوة لكي تُتجنَّب في المستقبل . فالاعتراضات التي قدّمها حينئذ البطاركة الشرقيون وبنوا عليها الرفض يمكن تلخيصها في ما يلي : (اولاً) كان يجب ان يتشاور الحبر الروماني واياهم في امر الدعوة الى مجمع مسكوني ولا يدعو اليه الا بعد الاتفاق معهم . (ثانياً) الدعوة التي أُرسلت من رومة لتسليمها اليهم كانت اوراقاً مطبوعةً خالية من التوقيع الحقيقي باليد . (ثالثاً) ان نصّ هذه الدعوة قد نُشر في الجرائد في اوربا قبل ان تصل الدعوة الى اصحابها في الشرق . (رابعاً) ان دعوة الاساقفة الشرقيين الى المجمع يجب ان تكون بواسطة بطاركتهم . - راجع مجلة « ايرينيكون » المذكورة، سنة ١٩٢٩، ص ٣٦٦، و٤٨٨، و٦٥٥

في القرن العشرين

جلس يواكيم الثالث على الكرسي القسطنطيني في مطلع القرن العشرين (١٩٠١ – ١٩١٣) . وفي ١٢ حزيران سنة ١٩٠٢ كتب الى رؤساء الكنائس الارثوذكسية المستقلة يستطلع رأيهم في هل يرون من الموافق العمل على تقارُب الكنائس المسيحية : الكاثوليكية والارثوذكسية والبروتستانية . فكان سعيه هذا هو الاول من نوعه من قبل البطاركة القسطنطينيين منذ عدّة قرون . وقد جاءته الاجوبة بعدم الموافقة على مشروعه؛ ولذا قد صرف النظر عنه . نعم ان المبادئ التي كان ذلك المشروع مبنيًا عليها هي غير المبادئ الكاثوليكية والارثوذكسية؛ ولكنها كانت تدل على الشعور بضرورة الاتحاد والشوق اليه . وما « الحركة المسكونية »، القائمة اليوم في العالم بين الكنائس البروتستانية والتي انضمت الكنائس الارثوذكسية اليها، الا دليلٌ ايضاً على ذلك الشعور وذلك الشوق، وهي مبنية على مثل المبادئ التي اشار اليها يواكيم الثالث

وقد ظهرت تلك « الحركة المسكونية » خصوصاً عقب الحرب العظمى (١٩١٤–١٩١٨) . واجلى مظاهرها المؤتمرات العالمية التي عقدتها الكنائس الانكليكانية والبروتستانية واشتركت فيها الكنائس الارثوذكسية . وهي : مؤتمر ستوكهولم سنة ١٩٢٥ ومؤتمر اكسفورد سنة ١٩٣٧ اللذان نظّمتهما جماعة « الحياة والعمل »، ومؤتمر لوزان سنة ١٩٢٧ ومؤتمر أدنبره سنة ١٩٣٧ اللذان قام بهما جماعة « الايمان والنظام[1] » . وما عدا هذه المؤتمرات التي دعوها « عالمية » و« مسكونية »، عُقدت اجتماعات عديدة بين البروتستان والارثوذكس، ولكنها اقلّ اهميةً . نذكر

---

(١) بشأن الحركة المسكونية واشتراك الكنيسة الارثوذكسية فيها، راجع المقالات الآتية في مجلة « المسرة » :

١ً المؤتمرات المسكونية والمجامع المسكونية . سنة ١٩٢٧، ص ٤٦٥–٤٨٠

٢ً حول مؤتمر لوزان . سنة ١٩٢٧، ص ٥٤٧–٦٠٤

٣ً رسالة البابا بيوس الحادي عشر بشأن اتحاد الكنائس . سنة ١٩٢٨، ص ١٠١ وص ١٣٧

٤ً الحركة المسكونية وموقف الكنيستين الكاثوليكية والارثوذكسية تجاهها . سنة ١٩٣٧، ص ٤٦٥–٤٧٧

٥ً الحركة المسكونية . بين مؤتمرَي اكسفورد وأدنبره . سنة ١٩٣٨، ص ١ – ١٣

على الخصوص الجلسات التي دعت اليها « الجمعية العامة لاجل سلام الشعوب بواسطة صداقة الكنائس »

ومنذ بدء الحركة المسكونية رأى بطاركة القسطنطينية الاشتراك فيها . ففي مطلع سنة ١٩٢٠ ارسلت البطريركية رسالةً عامةً الى كل الكنائس تدعوها الى توحيد جهودها للتقارب في الاعتقاد وللعمل الاجتماعي[١] . هذا وفي الاجتماعات الاولى، عند بدء الحركة، قد تسرَّع بعض احبار الكنيسة الارثوذكسية الى الاعتقاد بقرب الاتحاد وظهرت عليهم مظاهر المستعدّ للتنازل عن شيء من العقائد للتقرّب من البروتستان عموماً ولاسيما الانكليكان . ولكن، بعد سنواتٍ، شعر اللاهوتيون والكهنة الاتقياء بالخطر الذي تتعرَّض له كنيستهم . ومما يُسرّ له قلب كلّ كاثوليكي ان التصريحات الرسمية التي فاه بها المندوبون الارثوذكس الرسميون في الاجتماعات السابق ذكرها تتمسك بالعقائد التقليدية ولا تنمّ عن الاستعداد للتنازل عن شيء منها، بخلاف البروتستان الذين يودون إجراء إتحاد مبني على اقل ما يمكن من العقائد الاساسية وترك الحرية التامة في الباقي

وفي السنتين اللتين جلس فيهما ملاتيوس الرابع متكساكي على الكرسي القسطنطيني (١٩٢١—١٩٢٣) بادر الى الاعتراف بصحة الرسامات الكهنوتية في الكنيسة الانكليكانية وذلك بقصد التقرّب منها[٢]، وقرر اتباع التقويم الغريغوري بدلاً من اليوليانى القديم[٣] . ومع ان هذا الاصلاح لا يشمل الآن تعييد الفصح المجيد وما يتعلّق به، كالصوم الاربعيني والصعود والعنصرة، قد ازال مع ذلك فرقاً من الفروق الظاهرية التي يعتبرها الناس من علامات الانقسام

(١) قبل ذلك بسنتين كان المطران جناديوس عربجي اوغلو ألّف كتاباً في الاصلاحات، ومنها تكثير العلاقات مع الكاثوليك والبروتستان لاجل خير الدين عامّةً ولاجل مكافحة اللادينية . طبعته مطبعة البطريركية القسطنطينية سنة ١٩١٨

(٢) اسرعت كنيسة اورشليم وكنيسة قبرس الى الاقتداء بمثل الكنيسة العظمى واعترفتا بصحة الرسامات عند الانكليكان . ولما عيّن ملاتيوس المذكور بطريركاً على الاسكندرية اعترفت كنيسة الاسكندرية ايضاً بصحتها . واعترفت بها كنيسة رومانيا سنة ١٩٣٦، وغيرها ايضاً من الكنائس الارثوذكسية

(٣) لم يتم فعلاً مشروعه في ذلك الا على عهد خلفه سنة ١٩٢٤ . هذا وقد حذت اكثر الكنائس الارثوذكسية حذوه واصلحت تقويمها على الاساس نفسه، ما عدا انطاكية واورشليم واكثر ديورة جبل آثوس

وفي عهد البطريرك فوتيوس الثاني (١٩٢٩ – ١٩٣٥) عقد مندوبو الكنائس الارثوذكسية اجتماعات تمهيدية في جبل آثوس سنة ١٩٣٠ وقرروا الدعوة الى اجتماعات اخرى ليهيئوا فيها المواد اللازم عرضها على « مجمع مسكوني ارثوذكسي » يُدعى اليه فيما بعد . ولكن تلك الاجتماعات لم تحصل الى الآن . ومن المواضيع التي يريدون بحثها في المجمع المسائل المتعلقة باتحاد الكنائس

كنيسة اليونان الكاثوليك

في منطقة البطريركية القسطنطينية اليوم عدد من الروم الذين عادوا الى الاتحاد . فمنهم من اتبع الطقس اللاتيني منذ اجيالٍ، إما في المدينة نفسها واما في جزر الارخبيل؛ ومنهم من استمرّوا على طقسهم البيزنطي ونظامهم الشرقي، وهؤلاء هم الذين يهمّونا على الاخص . وقد بدأت حركتهم سنة ١٨٦١ ولا يتجاوز عددهم اليوم الالفين والمائتين نفساً . ومنذ سنة ١٩١١ أُقيم لهم اسقفٌ خاص مركزه في القسطنطينية . ودعت الاحوال السياسية الى انشاء مركز اسقفي آخر لهم في اثينا على اثر تبادل السكان بين تركيا واليونان بعد الحرب الكبرى والحرب التركية اليونانية التي عقبتها

المراجع

قد ذكرنا في بعض المواضع المصادر التي استقينا منها معلوماتنا وعلاوةً عليها، قد رجعنا بصفةٍ عامة الى المصادر الآتية :

١ً « تاريخ المجامع المسكونية » السابق ذكره، تأليف هفله ولكلرك، الجزء الثاني من المجلد السابع، ص ١٢٢٧ – ١٢٣٩

٢ً « قاموس اللاهوت الكاثوليكي » السابق ذكره، كلمة « كنيسة القسطنطينية » في الجزء الثاني من المجلد الثالث، العمود ١٣٠٤ – ١٥١٩

٣ً مجلة « اصداء الشرق » Les Echos d'Orient ، الاجزاء الصادرة منذ مطلع القرن العشرين، ولاسيما التي صدرت بعد الحرب العظمى

كاتدرائية صوفيا الارثوذكسية ببلغاريا
(ص ٨٨)

كنيسة القديس ڤلاديمير الكاتدرائية
في كياڤ
(القديس فلاديمير اول من تنصَّر من
امراء الروس وحمل شعبه على انتحال
الدين المسيحي سنة ٩٨٨)
(ص ٨٤)

كنيسة بطريركية ايپك الصربية

الفصل التاسع

اتحاد فلورنسا والكنائس التي كانت تابعةً للبطريركية القسطنطينية

نرى في هذا الفصل بكل اختصار مصير الاتحاد بعد مجمع فلورنسا في الكنائس التي كانت يوماً تابعةً للبطريركية القسطنطينية ثم استقلّت عنها، وهي : الكنيسة الروسية وفروعها، — الكنيسة الصربية، — الكنيسة الرومانية، — الكنيسة البلغارية، — كنيسة الكرج، — كنيسة الارنأوط

الاتحاد في روسيا

تطورت الحالة الدينية في روسيا تطوراً كبيراً . فبعدما كان اتحادها وثيق العرى مع الكرسي الروماني في القرن العاشر، اصبح معدوماً او في حكم المعدوم في مطلع القرن العشرين . وقد لخّص الاستاذ مَكلاكوف[1] هذا التطور، قال ما معناه : « في القرن العاشر لم تكن الوحدة الدينية مفصومةً بين روسيا والكرسي الرسولي، وبقي الاتحاد مع رومة الى ما بعد فتح المغول التتار الذين غزوا روسيا في القرن الثالث عشر . وفي سنة ١٢٥٣ نرى الامير دانيال واكليرسه وشعبه يقبلون بلا تردُّد رئاسة الحبر الاعظم . وقد ذهب ايسيذورس مطران كياف الى مجمع فلورنسا مع بعض الاساقفة برضى الحكام . ولكنه لما عاد الى روسيا وأعلن صكّ الاتحاد الفلورنسي في موسكو سنة ١٤٤١ كان الرأي قد تغيّر تماماً؛ فقام عليه الامراء والاكليرس والشعب وحبسوه الى ان هرب من روسيا ولجأ الى رومة . وبعد ذلك بزمن قليل ظهر مذهب القائلين بان موسكو هي رومة الثالثة . وفي آخر القرن السابع عشر كانت روسيا قد انقلب رأيها في الاتحاد رأساً على عقب اذ اصبحت اكبر عدوٍّ له . وهذا خطأٌ من قبلها، ولكنها ليست وحدها المسؤولة عنه، بل ان

---

(١) هو من اقارب الكاتب الروسي الشهير لاون تولستوي، وكان والده سفير روسيا بباريس . وقد انضمّ الى الكنيسة الكاثوليكية بعد الحرب الكبرى ١٩١٤ — ١٩١٨؛ وهو الآن استاذ في جامعة ليلّ الكاثوليكية بفرنسا . نأخذ اقواله من المقالة « الكثلكة في روسيا » المنشورة في مجلة « الحياة العقلية » La Vie Intellectuelle الصادرة بباريس في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٩٣٨

نصيباً كبيراً من هذه المسؤولية يعود على جيرانها الكاثوليك[1] . فان تصرفاتهم وعلاقاتهم مع الشعب الروسي منذ القرن الثالث عشر كان من شأنها ان تثير في قلوبهم الحذر من الكثلكة الرومانية وكراهة الاتحاد معها . ومهما تغيّرت الاحوال الآن، فتأثير الماضي لا يزال عالقاً بالاذهان وذكراه تحرّك الاحقاد »

في عهد المجمع الفلورنسي، كانت كياف مركزاً لمطرانية واسعة الاطراف، تشمل اسقفيات واقعةً في حكم ڤاسيلي غرندوق موسكو واسقفياتٍ واقعةً في حكم كازيمير الرابع ملك پولونيا . فلما هرب ايسيذورس من حبسه في موسكو أقام الغرندوق ڤاسيلي مطراناً آخر ليخلفه في موسكو ؛ ثم اتفق مع كازيمير الرابع على تقسيم المطرانية الى اثنتين، لتكون في حكم كلٍّ منهما واحدة . فكانت مطرانية كياف والاسقفيات الثماني التابعة لها (وهم الاكرانيون او الروثان) متحدةً بالكرسي الرسولي الروماني اتحاداً لم يكن وثيق العرى، فيما كانت مطرانية موسكو منفصلة عنه

ولما رُفعت مطرانية موسكو الى درجة البطريركية سنة ١٥٨٩، بالغَ الروس في دعواهم مطالبين بالسيطرة السياسية والدينية على جميع الشعوب ذوي الطقس الصقلبي . وحينئذٍ اراد الاساقفة الروثان توثيق ذلك الاتحاد لكي لا يقعوا تحت النفوذ الموسكوفي؛ فعقدوا مجمعاً في مدينة برسْت ليتوڤسك سنة ١٥٩٥ وقرروا صراحةً اتحادهم بالكنيسة الكاثوليكية بشرط احتفاظهم بطقسهم الشرقي وقوانينهم التهذيبية الخاصة . فوقعوا اذ ذاك تحت ضغط نوعين من الاضطهاد : احدهما اضطهاد الروس الارثوذكس، والآخر اضطهاد البولونيين اللاتين : فالاضطهاد الارثوذكسي امتاز بالاضطرابات السياسية وسفك الدم[2]، ثم بانشاء ابرشيات منفصلة

(١) يشير الكاتب الى العداء الطويل المتأصل بين البولونيين الكاثوليك ذوي الطقس اللاتيني والروس والاكرانيين ذوي الطقس البيزنطي سواء كانوا من الكاثوليك ام من الارثوذكس . فالتاريخ حافل باخبار ما اوقعه كل فريق من هذين الفريقين من الاضطهادات الادارية او الدموية بمؤمني الفريق الآخر، حتى سنة ١٩٣٩ — والكتب والمقالات في ذلك كثيرة . راجع مثلاً ما كتبته اخيراً مجلة « المباحث » Les Etudes بقلم فيليب دي رجيس في الجزء الصادر في ٥ كانون الاول سنة ١٩٣٩، ولاسيما ص ٤٩٥

(٢) هو الوقت الذي امتاز فيه رُتسكي رئيس اساقفة كياف الكاثوليكي ، ويوشافاط كُنسفيتش اسقف بولوتسك الذي قُتل شهيدَ الاتحاد سنة ١٦٢٣ ، واندراوس بوبولا اليسوعي الذي استشهد سنة ١٦٥٧

عن الكثلكة وتعيين اساقفة لها تجاه الاساقفة المتحدين بالكرسي الروماني[1]؛ والاضطهاد اللاتيني امتاز بالتحقير والامتهان والحط من كرامة الروثان الكاثوليك وحرمانهم المساواة في الحقوق الدينية والاجتماعية مع سائر المواطنين . فكانت النتيجة ان كثيرين من الروثان المتحدين اضطرّوا إما الى الانفصال عن الكثلكة والخضوع للاساقفة الارثوذكس؛ وإما الى هجر طقسهم البيزنطي واتباع الطقس اللاتيني، وهذا ما جرى خاصةً لاعيان القوم ومتقدميهم

وما كان كرور الايام الا ليزيد تلك الحالة سوءا . فكان بطرس الاكبر (١٦٨٢ – ١٧٢٥) « جلّاداً للمتحدين » على ما نعته به بعض المؤرخين . ثم حصل تقسيم پولونيا الاول (١٧٧٢) والثاني (١٧٩٣) والثالث (١٧٩٥) بين جيرانها الروس والنمساويين والبروسيين؛ فكان نصيب الروثان الكاثوليك الوقوع إما تحت الحكم الروسي[2] واما تحت الحكم النمساوي[3] . وسيأتي الكلام فيما بعد على هؤلاء الاخيرين . اما الاولون فتاريخهم عبارةٌ عن انقراض مستمرّ تحت تأثير الحكومة القيصرية، تارةً بالاضطهاد العنيف وتارةً بالاساليب السياسية والمطامع المادية، الى ان ألغت الحكومة آخر اسقفية روثانية كاثوليكية سنة ١٨٧٥ . على ان الحركات الثورية اضطرت القيصر نقولا الثاني في سنة ١٩٠٥ الى اصدار مرسوم في الحرية الدينية يجيز فيه تغيير المذهب . ففي الحال قام نحو ثلاث مئة الف من الروثان وطلبوا العودة الى الكثلكة . ولما لم تسمح لهم القوانين الروسية بالبقاء في طقسهم الشرقي التزموا ان ينتحلوا الطقس اللاتيني . ومع ذلك قد استطاعت فئةٌ منهم ان تكوّن كنيسةً روسية كاثوليكية صغيرة؛ لكن الحكومة، بعدما تمكنت من قمع الحركة الثورية، ابادت تلك الكنيسة سنة ١٩١٣– ١٩١٤ وعادت فحظرت على الارثوذكس تغيير مذهبهم

شبَّت بعد ذلك الثورة الكبرى سنة ١٩١٧ واعلنت الحكومة الجديدة الحرية الدينية . ولما كان السيد اندراوس شپتتسكي مطران لڤوف الروثاني مكلفاً العناية بجميع الكاثوليك الشرقيين في روسيا قد عيّن اكسرخساً نائباً عنه فيها . لكن

(١) فعلوا ذلك سنة ١٦٢٠ واضطروا ملك بولونيا الى الاعتراف بتلك الاسقفيات

(٢) هي اقاليم روثانيا البيضاء وروثانيا الجنوبية

(٣) هي اقاليم روثانيا الحمراء او غاليسيا مع بلاد خُلْم او خِلم

تسلُّم البلشفيك الحكم في تلك البلاد خرَّب كلّ نظام ديني فيها . ومع ذلك نرى الكنيسة الروسية الكاثوليكية تتكوّن رويداً رويداً في وسط الاضطهاد متغذية من دم شهدائها . اما الكنيسة الروسية الارثوذكسية التي تعدّ عشرات الملايين من المؤمنين، فان حياتها الدينية العميقة والاضطهادات الدموية الواقعة عليها واستشهاد الالوف من رعاتها وابنائها الابطال، كل ذلك قد اثار اعظم شعائر العطف والمحبة والإعجاب في قلب الحبر الاعظم وكل الرأي العام الكاثوليكي في العالم اجمع

الكنيسة الروثانية في شرق اوربا

١ً رأينا في ما سبق (ص ٨٥) ان بعض الاقاليم الروثانية في مملكة پولونيا كانت من نصيب الدولة النمساوية على اثر تقسيم پولونيا في القرن الثامن عشر . ففي بدء الامر خضع الروثان الكاثوليك للاساقفة اللاتين . لكن البابا بيوس السابع أحيا لهم مطرانية غاليتس[1] القديمة وضمّ اليها كرسي لڤوف[2] سنة ١٨٠٨ وانشأ لهذه المطرانية ثلاث اسقفيات تابعة لها في پرمويشل واستانسلاڤوف ولوتسك[3] . — وما عدا هؤلاء الروثان المقيمين في بلادهم والبالغ عددهم ثلاثة ملايين وست مئة وعشرة الاف، قد هاجر نحو ست مئة الف روثاني الى الولايات المتحدة الاميركية حيث انشأ لهم الكرسي الرسولي ابرشيتين من طقسهم، واكثر من ثلاث مئة الف الى كندا حيث انشأ لهم ابرشية اخرى، ونحو سبعين الفاً الى الارخنتين، الخ

وبعد الحرب الكبرى سنة ١٩١٤—١٩١٨ وتقسيم مملكة آل هَبسبورغ كانت ابرشيات لڤوف وپرمويشل واستانسلاڤوف من نصيب پولونيا . ولكن الخلاف القديم بين المؤمنين التابعين للطقس البيزنطي والاكثرية الساحقة المؤلفة من اللاتين عاد الى الظهور، وعادت الحكومة البولونية تضطهد هؤلاء الاكرانيين ولاسيما

---

(١) تُكتَب Halicz وتُلفظ Galitz

(٢) لفوف Lvow بالبولونية، او ليوبول Léopol بالروسية، او لمبرغ Lemberg بالالمانية، ومعناها « مدينة ليم او لاون »

(٣) كتابتها بالحروف الاوربية هكذا : Przêmysl (Pérémouïchl), Stanislavow اي « مدينة استانسلاس »، Luck (Loutsk)

الارثوذكس منهم[1]. ودام الحال على هذا المنوال الى ان غزا الالمان والروس پولونيا من جديد في شهر ايلول سنة ١٩٣٩ واقتسموها مرةً اخرى . فكانت الابرشيات الروثانية من نصيب الروس . ففي بدء احتلالهم صبّوا جام نقمتهم على اصحاب الاملاك، ولم يبادروا الى اضطهاد الكنائس . ولكن هناك من المقدمات ما يدلّ على انهم لا بدّ من ان يشرعوا في « بلشفة » تلك الابرشيات[2]

٢ً ان الاتفاقات السابق ذكرها التي قسّمت مملكة آل هبسبورغ سنة ١٩١٩ لم تجمع الروثان كلهم في پولونيا، بل وزّعتهم فيما بين بعض الدول الاخرى وهي :

تشيكوسلوڤاكيا — او بالحري « سلوڤاكيا » فقط، وفيها ابرشيتان للروثان الكاثوليك[3] مع نحو ٥٥٧ الفاً من المؤمنين . اما عودتهم الى الكثلكة فكانت سنة ١٦٤٩، اذ قام رئيس احد الاديار زعيماً فيهم وطلب باسمهم الاتحاد بشرط الاحتفاظ بالطقس البيزنطي وتعيين اسقفٍ لهم . وهناك ايضاً وقع بينهم وبين اللاتين من الخلاف ما وقع في الابرشيات البولونية، الى ان فصل الكرسي الروماني فيما بينهم باستقلال ابرشيتهم تماماً عن الابرشيات اللاتينية سنة ١٧٧١ وسنة ١٨١٨

المجر او هنغاريا — بناءً على اتفاق مع حكومة النمسا والمجر القديمة، انشأ الكرسي الرسولي سنة ١٩١٢ في هذه البلاد اسقفية بيزنطية كاثوليكية في هجدو دوروغ Hajdu-Dorogh تكون لغتها الطقسية اللغة اليونانية القديمة . ولكن المؤمنين الشرقيين الذين في المجر ليسوا من العنصر اليوناني، بل من اصلٍ سلوڤاكي او من اصل روماني، وانما ارادت الحكومة ان تُبعدهم عن لغتهم الاصلية لتُبعدَ عنهم النفوذ الصقلبي او الروماني . ويبلغ عددهم، بعد ما جرى من الانقلابات في البلاد، نحو ٧٧ الفاً من النفوس تابعين للابرشية المذكورة . ويصلّون الآن باللغة المجريّة . وما عدا هؤلاء يوجد ايضاً في المجر نحو ٢٢ الفاً من الروثان الكاثوليك؛ ولهم ادارة كنسية خاصة

---

(١) راجع « المسرة »، شهر ت ١ (اكتوبر) سنة ١٩٣٩، ص ٥٥٠-٥٥١

(٢) راجع « مجلة المباحث » Les Études السابق ذكرها، ٥ كانون الاول سنة ١٩٣٩، ص ٥٠٦-٥٠٩

(٣) هاتان الابرشيتان هما : اولاً مُنكَتش (وتسمّى Ungwar و Munkacz (Muncatch و Munkatchevo ؛ ثانياً برياشيف (وتسمّى Prjasev, Presov, Eperies, Fragopolis في مختلف لغات البلاد)

رومانيا — كان من نتيجة الحرب الكبرى (١٩١٤ — ١٩١٨) ان ضُمَّ اقليم بسارابيا الى مملكة رومانيا، وفيه يمتزج العنصر الروماني والعنصر الأكراني. ومن هؤلاء نحو ٦٥ الفاً من الروثان. ولكن المعلومات الدقيقة تنقصنا بشأنهم. لذلك نكتفي بالاشارة فقط الى وجودهم في هذه البلاد وفي كل القسم الذي كان يتاخم پولونيا

الاتحاد في الكنيسة الصربية

نزل الصرب من جبال الكرپاث نحو الجنوب الى بلاد البلقان. وقد اهتدوا الى الديانة المسيحية في القرن الحادي عشر على يد مرسلين من كنيسة القسطنطينية. فلما انفصلت هذه الكنيسة عن الكرسي الروماني انفصلوا معها. ولكن ملكهم استفان دوشان اعلن في سنة ١٣٥١ استقلال كنيسة الصرب، واعترف البطريرك القسطنطيني بذلك سنة ١٣٧٦. ثم غزا الترك البلاد عام ١٤٥٣ (سنة سقوط القسطنطينية). على ان ملك المجر متياس كُرْڤين استخلص منهم اقاليم البوسنة سنة ١٤٦٣، وأسكن فيها عدداً كبيراً من مهاجري الصرب، وحملهم على الاتحاد مع الكرسي الروماني[1]. وكان ذلك بدء الكنيسة الصربية الكاثوليكية. ثم ازداد عددهم في مطلع القرن السابع عشر عندما انضمّ الى حزب الاتحاد الراهب سمعان ڤراطانيا مع جمهور كبير من الصرب المقيمين في اقليم الكروات. وفي سنة ١٦١١ أُقيم لهم اسقفٌ من جنسهم يسوسهم بصفة كونه نائباً عاماً لمطرانية زَغرِب او أغرام اللاتينية

ومن جهةٍ اخرى، لما ثقلت يد الاتراك على الصرب، مما حمل الامراء وذوي اليسار واصحاب الاملاك على انتحال الاسلام، قامت بينهم ثورةٌ في القرن السابع عشر. ولكنهم لم يفلحوا في محاربتهم الاتراك، فهاجر نحو اربعين الف أُسرة منهم الى النمسا مع بطريركهم الارثوذكسي ارسانيوس الثالث تشرنوڤتش وأسسوا هناك بطريركية كرلوڤتس او كرلوڤتشي وست ابرشيات تابعة لها. فضغط هؤلاء

(١) كان هذا الاتحاد ظاهرياً في بدء الامر. ولم تتوثق عراه الا في القرن السابع عشر. راجع «تاريخ الكنيسة العام» تأليف مورّه F. Mourret (المذكور سابقاً)، المجلد الرابع، الفصل الخاص بالكنيسة الشرقية في القرنين السابع عشر والثامن عشر

دير للرهبان الرومانيين في جبل آثوس
(ص ٨٩)

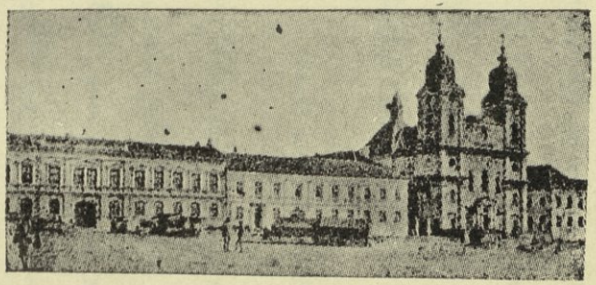

الكنيسة والمدارس الرومانية الكاثوليكية في مدينة بلاج Blaj
(ص ٩٠)

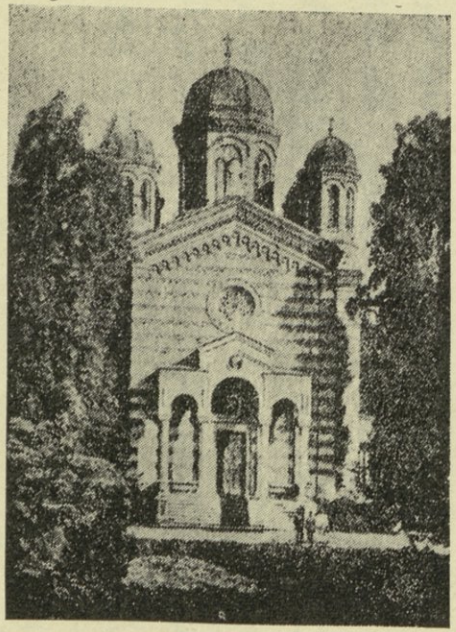

احدى كنائس بوخارست الرومانية الارثوذكسية
(ص ٨٩)

كثيراً على الفئة الكاثوليكية واضعفوها . وسنة ١٧١٧ انشأ البابا بيوس السادس اسقفيةً للصرب المتحدين في كريجفتسي[1]، لا تزال حتى اليوم، ويتبعها ٤٣ الفاً وخمس مئة من الكاثوليك، منهم[2] :

١٠٠٠٠ صربي او كرواتي، من نسل المتحدين الاول

٣١٠٠٠ روثاني، هاجروا الى بلاد الصرب في اوقات مختلفة

٢٠٠٠ بلغاري وغيرهم من المكدونيين الذين كانوا تابعين لنيابة بلغاريا الرسولية

٥٠٠ روماني كانوا قبلًا تابعين لابرشية لوغوج الرومانية

الاتحاد في كنيسة رومانيا

اول من بشر البغدان والفلاخ بالدين المسيحي الكهنة والمؤمنون من المستعمرين الرومانيين الذين اسكنهم ترايانس قيصر في تلك البلاد في مطلع القرن الثاني بعد الميلاد . وكان طقسهم طقس الكنيسة اللاتينية، الى ان اخضعهم البلغار في اواخر القرن التاسع وفرضوا عليهم الطقس الشرقي في اللغة الصقلبية . فتبعوا كنيسة أخريدة البلغارية الارثوذكسية الى ان امتدت يد البطاركة القسطنطينيين عليهم في اواخر القرن الخامس عشر بواسطة الحكم العثماني . فاستولى حينئذٍ العنصر اليوناني على المدارس والوظائف الرئيسية في الابرشيات والاديار، وحوّلوا اللغة الطقسية من الصقلبية الى اليونانية . ولكن العنصر الوطني تغلّب رويداً رويداً، وفي نهاية الامر صارت الرومانية هي لغة الطقس في اثناء القرن الثامن عشر

وقد بدأت حركة الاتحاد في القرن السادس عشر، على يد المرسلين اليسوعيين الذين كانوا يعملون في ترنسِلْفانيا على مكافحة المذهب الكلويني، فانه كان انتشر بين اشراف البلاد وحكامها . ولكن حركة الاتحاد كانت ضئيلة في بدء الامر . وفي شهر شباط سنة ١٦٩٧ عقد ثاوفيلُس مطران فاغاراس مجمعاً حضره اكثر من الفي كاهن للبحث في التخلص من الكلوينية؛ فقرروا ان خير وسيلة لذلك هي الاتحاد بكرسي رومة الرسولي، وكلفوا اكبر اساقفة المجر[3] ان يكون الوسيط بينهم وبين

(١) يقال لها Krijevtsi بالصربية، وKreutz بالالمانية، و Koros بالمجريّة

(٢) هذه البيانات مأخوذة من كتاب الاب جانين Janin في الكنائس الشرقية، ص ٣٥٨

(٣) كانت ترنسلفانيا خاضعة لآل هبسبورغ منذ سنة ١٦٨٨

الحبر الاعظم . لكن ثاوفيلس قد توفي في هذه الاثناء، وخلفه المطران انستاس الذي تردّد اولاً بين الارثوذكسية والكاثوليكية، ثم عقد مجمعين سنة ١٦٩٨ وسنة ١٧٠٠ قررا الاتحاد . ولما توفي سنة ١٧١٣ كان عدد الرومانيين الكاثوليك اكثر من مئتي الف نفس . وما زال هذا العدد يزداد حتى اصبح الآن نحو مليون وسبع مئة الف كاثوليكي، موزّعين في خمس ابرشيّات[1] . واساقفتهم اعضاء في مجلس الشيوخ الروماني

ويقول العارفون ان الشعب الروماني يعيش في جوٍ ملائم للاتحاد . فالارثوذكس يريدون ان ينضمّ اخوانهم الكاثوليك اليهم لتكمل وحدة المملكة، والكاثوليك يريدون ان ينضم اخوانهم الارثوذكس اليهم لتكمل وحدة الكنيسة؛ والامران غير متنافرين . وفي حفلة تنصيب السيد ميرون كريستيا بطريرك بوخارست الاول سنة ١٩٢٥، خطب السيد بيساريون احد الاساقفة الارثوذكس في الوظيفة البطريركية فقال في خطابه، بغير ان يعترضه احد او يحتجّ عليه، ان بابا رومة هو وحده بطريرك الكنيسة الجامعة

الاتحاد في الكنيسة البلغارية

تسلّط العنصر اليوناني على هذه الكنيسة بواسطة الحكم العثماني . وفي القرن التاسع عشر، لما بدأ العنصر البلغاري يفكّر في الاستقلال خطر ببال بعض قادة الرأي فيه الاتحاد مع الكرسي الرسولي لكي يسهل عليهم الوصول الى الاستقلال الديني اولاً ثم الاستقلال السياسي . ففي سنة ١٨٦٠ انضمّ منهم في بدء الامر اكثر من الفي نفس . وعيّن لهم البابا بيوس التاسع اسقفاً منهم في السنة التالية . فعمل هذا الاسقف على نشر الاتحاد؛ فانضمّ حوله اكثر من ستين الفاً من مواطنيه في زمن قصير . حينئذٍ خافت روسيا على نفوذها اذا صارت بلغاريا كاثوليكية؛

---

(١) الكرسي المتروبوليتي هو كرسي فاغاراس Fagaras، او Alba Julia ، وباللغة المجرية Balaczfalva ؛ ومركزه مدينة بلاج Blaj . والكراسي الاسقفية التابعة له هي :

اورادياماز Oradea-Mare ، وبالمجرية Nagy-Varad ، وبالفرنسية Gran-Varadin

غِرلا Gherla، وبالمجرية Szamos-Ujvar

لوغوج Lugoj

ماراموريش Maramures وبالمجرية Maramaros-Sziget

وسبب استعمال الاسماء المجرية هو ان هذه الابرشيات واقعة في ترنسلفانيا التي كانت خاضعة لبلاد المجر قبل تحريرها في نهاية الحرب الكبرى ١٩١٤-١٩١٨

فعملت على خطف الاسقف المذكور . والاقوال متضاربة في شأنه؛ فالكاثوليك يقولون انه حُبسَ في روسيا وعُذّبَ ونُفيَ ومات كاثوليكيًا؛ والارثوذكس يقولون انه ندم على ما فعله وعكف في احد الاديار الروسية على اعمال التوبة ومات ارثوذكسيًا

ومهما يكن من امره، فقد توقفت حركة الاتحاد بعده. وكان للحروب البلقانية (١٩١٢ – ١٩١٣) ثم للحرب العمومية (١٩١٤ – ١٩١٨) تأثير كبير في حالة الكاثوليك البلغار ونظامهم الكنسي . لان اكثرهم كان يقيم في تراقيا ومكدونيا، ثم كانوا ضمن من شملتهم المعاهدات الخاصة بتبادل السكان سنة ١٩٢٠ . ويظهر ان عددهم الآن لا يتجاوز ستة الاف نسمة مقيمين داخل المملكة البلغارية ولهم اسقف منهم بوظيفة مدير رسولي

الاتحاد في ايطاليا الجنوبية

كان العنصر اليوناني متأصلًا في جنوب ايطاليا من قبل الفتح الروماني بقرون. وبعد تقسيم المملكة الرومانية الى شرقية وغربية في القرن الرابع الميلادي، ثم انهيار المملكة الغربية في القرن السادس، اعاد ملوك المملكة الشرقية نفوذهم واحكامهم على تلك البلاد حتى القرن الحادي عشر . وفي كل هذه الاثناء كان في صقلية وجنوب ايطاليا عدد عظيم من المؤمنين ذوي الطقس اليوناني الشرقي؛ وكانوا طبعاً متحدين بالكرسي الروماني . بعد ذلك احتل النرمنديون تلك البلاد وعملوا على « لَيْتَنتها » تماماً لكي يُبعدوا نفوذ القسطنطينية السياسي عنها . على ان البابا اسكندر الثالث اعترف رسميًا سنة ١١٦٥ بوجود الطقسين اليوناني واللاتيني في تلك الاصقاع . ولكن كثرة الشعب الايطالي وانقطاع العلاقات مع الشرق قلّلتْ عدد الجاليات اليونانية . وهكذا تضاءلت هناك الابرشيات البيزنطية حتى كادت تمّحي في القرن الخامس عشر

ففي المدة بين ١٤٦٧ و١٤٧٠ هاجر عدد عظيم من الارنأوط (الالبانيين) الى صقلية وجنوب ايطاليا تابعين اميرتهم ابنة البطل اسكندر بك الشهير. وكانوا من ذوي الطقس الشرقي . فكان مجيئهم باعثاً على تقوية العنصر البيزنطي هناك . يضاف اليهم ايضاً الروم الذين هاجروا بعد فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣. فالارنأوط

كانوا من الكاثوليك، اما الروم فكانوا في الغالب من الارثوذكس . وقد نظم الباباوات الكنيسة البيزنطية المتحدة في تلك البلاد في تواريخ مختلفة، على حسب الحاجة . وهي تتألف الآن من نحو مئة الف نفس؛ لهم ابرشيـة لنغرو Lungro في كلبرية، وابرشية پيانا دي غرتشي Piana - dei - Greci في صقلية، ودير غروتا فراتا Grotta Ferrata في جوار رومة، وكنيسة في ليفورنو . وكثيرون منهم مُشتَّتون في اقاليم اخرى ايطاليَّة او في بلاد المهجر

الاتحاد في كنيسة الكرج

بدأ التبشير بالدين المسيحي في بلاد القفقاس في القرن الرابع بواسطـة اسيرة مسيحية حملت الملك وشعبه على التنصر . ولكن انعدام الصِلات بسائر العالم المسيحي جعل ذلك الاهتداء الاول لا تأثير له . وفي القرن السادس ذهب المبشرون من سوريا وأعادوا تأسيس الدين المسيحي هناك؛ ولذلك خضعت الابرشيات الكرجية لبطريرك انطاكية حتى القرن التاسع[1] . على ان الحروب مع الفرس والروم والعرب والترك والمغول اضعفت هذه البلاد وجعلتها تحت النفوذ البيزنطي ابتداء من القرن السابع . وهكذا اتخذت كنيستها الطقس البيزنطي وصارت تحتفل به بلغتها الوطنية اي الكرجية او الجيورجية

ولم تنفصل كنيسة الكرج عن الكرسي الروماني انفصالاً عنيفاً، ولم يقع بينهما مشادّة او نزاع على امرٍ ما . ولكن انعدام الصِلات في ذلك الزمان أدّى رويداً رويداً الى حالة الانفصال التي اصبحت تامةً منذ القرن الثالث عشر . وقد ارسل الباباوات بعد ذلك عدّة مرسلين الى الكرج من الرهبان الفرنسيسيين والدومنيكيين وغيرهم، فكانوا واسطةً لاعادة الاتحاد في ازمنة مختلفـة بين الكرسي الرسولي وبعض الامراء او الجثالقة او الاساقفة . من ذلك ان ملكهم قد طلب سنة ١٧٢٢

(١) كان بطريرك انطاكية يعيّن « جاثليق » catholicos الكرج؛ وهذا الجاثليق يعين اساقفة الابرشيات ويرأس كنيسة البلاد كلها . بيد ان العلاقات بين البطريرك والجاثليق كانت نادرة، فلم يكن اتحادها وثيق العرى . ولما خضعت البطريركية الانطاكية لحكم العرب المسلمين، بدأت كنيسة الكرج تتحرر منها الى ان استقلّت تماماً . ومن آثار خضوعها القديم للبطريركية الانطاكية ان من الالقاب الكثيرة لبطاركتنا في الذبتيخا حتى اليوم، لقب بطريرك « ايبيريا » Ibérie وهو احد الاسماء المعروفة به تلك البلاد : (بلاد القفقاس او القوقاز، او جيورجيا، اوايبيريا، او الكرج)

من البابا اينوكنتس الثالث عشر إرسال مساعدةٍ له لمحاربة الاتراك في مقابل انضمام بلاده الى الوحدة المسيحية؛ ومن ذلك ايضاً صورة الايمان الكاثوليكي التي ارسلها الجاثليق يسى سنة ١٧٥٢ الى البابا بندكتس الرابع عشر . ولكن مجموع الأمة بقي في حالة الانفصال . ومما زاد هذه الحالة تأصلاً فتح الروس لبلاد الكرج في مطلع القرن التاسع عشر؛ فان الحكومة القيصرية اجهزت على استقلال الكنيسة الجيورجيَّة، وفي سنة ١٨١٧ عزلت جاثليقها وعيَّنت بدلـه اكسرخساً روسيًّا تابعاً لسينودس الكنيسة الموسكوفية

وعلى أثر الحرب العظمى، اعلنت « الجمهورية الكرجية » استقلالها في ٢٨ ايار سنة ١٩١٨ وعادت الكنيسة الوطنية ايضاً الى استقلالها وعيَّنت لذاتهـا جاثليقاً كرجيًّا . وقد بعث البابا بندكتس الخامس عشر زائراً رسوليًّا[1] من قبله الى تلك البلاد سنة ١٩١٩ فقوبل باعظم مجالي الاكرام والمحبة؛ ولكن احوالاً كثيرة مختلفةً لم تدع لتلك الزيارة اثراً مستديماً . فان اتحاد الجمهوريات السوفياتيـة الروسية قضى على الجمهورية الكرجية وضمَّها اليه قسراً وقمع بالحديد والنار ثورة الكرج سنة ١٩٢٤؛ واصبحت كنيستها تحت الحكم البلشفي

وفي بدء القرن التاسع عشر كان بضع عشرات الالوف من الكاثوليك في تلك البلاد، بعضهم لاتين وبعضهم ارمن وبعضهم من ذوي الطقس البيزنطي باللغـة الكرجية . وفي سنة ١٨٤٨ اخضعتهم الحكومة الروسية جميعهم لاسقف تيرازپول اللاتيني؛ والزمت ذوي الطقس البيزنطي منهم إما ان يصيروا لاتينيين واما ان يتبعوا الكنيسة الروسية الارثوذكسية . اما الآن فقد زال الخطر المذكور وصار يجوز لذوي الطقس البيزنطي ان يتحدوا مع الكرسي الرسولي بغير ان يهجروا طقسهم . ولذلك عاد بعضهم الى الكثلكة، مع كل الصعوبات والاضطهادات الدينية القائمة في بلاد روسيا

---

(١) كان هـذا الزائر الرسولي المرحوم الاب انطوان دلبوش من الاباء البيض الذي صار رئيساً على المدرسة الصلاحية (اكليريكية الروم الكاثوليك) بالقدس (سنة ١٩٢٤–١٩٢٩) وتوفي في رومة سنة ١٩٣٦؛ وكان يرافقه في تلك الزيارة حضرة الارشمندريت باسيليوس حمصي من اكليرسنا البطريركي، وهو اليوم خوري كنيسة القديس نقولاوس الملكية بمرسيليا

الاتحاد في كنيسة البانيا

ان الزمن الذي عقد فيه مجمع الاتحاد الفلورنسي، اي القرن الخامس عشر، كان عهد الابطال الارنأوط الذين حاربوا الاتراك مدة طويلة دفاعاً عن استقلالهم . وكانوا اذ ذاك متحدين بالكرسي الروماني . ولما جاء محمد الثاني بنفسه يحاصر عاصمة البانيا، لجأ اميرها اسكندر بك الشهير الى البابا بولس الثاني، فقدّم له البابا ما امكنه من المساعدة . لكن اسكندر بك مات سنة ١٤٦٥ قبل ان يتمكن من اخراج الاتراك من بلاده، فاستأثر العثمانيون بالحكم فيها، وتثبّت معهم تسلُّط العنصر اليوناني القسطنطيني على الكنيسة . فالارنأوط الذين هاجروا الى ايطاليا استمروا على اتحادهم بالكرسي الرسولي؛ اما الذين بقوا في بلادهم فبعضهم أسلم، وبعضهم خضع بطبيعة الحال لكنيسة القسطنطينية المنفصلة . وبقيت كنيسة البانيا في حالة الخضوع هذه الى ان استقلّت في سنة ١٩٣٧

اما الكنيسة الكاثوليكية، فتعدّ في البانيا نحو ١٠٥ الاف نسمة، منهم نحو ثمانية الاف فقط من الطقس الشرقي، والباقون لاتين

المراجع

ان المعلومات المُدرجة في هذا الفصل مستقاة من مصادر متعدّدة ذكرنا بعضها في ذيل بعض الصفحات

ويلاحظ ان هذه المعلومات تختصّ بالفروع الكاثوليكية من الكنائس البيزنطية في اوربا . اما الفروع الارثوذكسية – وهي اهمّ بكثير – فانك تجد معلومات وافية عنها (وعن الفروع الكاثوليكية ايضاً) في المصدرين الآتيين :

بالفرنسي : كتاب الاب جانين الصعودي في « الكنائس الشرقية والطقوس الشرقية » Les Eglises Orientales et les Rites Orientaux, par le R. P. Raymond Janin, A. A., 2e édition, Paris, 1926.

بالعربي : كتاب الاب الياس اندراوس البولسي في « الكنائس الشرقية البيزنطية »، وهو هدية « المسرة » عن سنة ١٩٣١

الفصل العاشر

الاتحاد والكنائس الملكية

(الاسكندرية وانطاكية واورشليم)

لما كان موضوع هذا الفصل يتعلق مباشرةً بكنيستنا وبطريركياتنا، فلا بدَّ لنا من اطالة الشرح فيه اكثر مما فعلنا بشأن الكنائس والبطريركيات الاخرى . ومع ذلك لا نقصد ان نجمع في هذا الفصل كل الحوادث الخاصة بموضوع الاتحاد، اذ يقتضي ذلك كتاباً قائماً بذاته؛ بل انما نجتهد ان نذكر هنا اهمّ ما يختصّ باتحاد البطريركيات الاسكندرية والانطاكية والاورشليمية مع الكرسي الرسولي الروماني، مبتدئين بعهد فوتيوس في القرن التاسع . اما في المدة السابقة له فلا احد ينكر ان هذه البطريركيات كلها كانت متحدة مع الكرسي الروماني

١

موقف البطريركيات الملكية في معضلة فوتيوس[1]

رأينا في الفصل الاول من هذا الكتاب، ص١ — ١٠، ان فوتيوس جلس مرتين على كرسي القسطنطينية البطريركي، وان انشقاقه حصل في بطريركيته الاولى (٨٥٨ — ٨٦٧)، وانه كان متحداً مع الحبر الروماني في بطريركيته الثانية (٨٧٧ — ٨٨٦) . فما كان موقف البطريركيات الشرقية تجاه تصرفاته ؟

في اثناء بطريركية فوتيوس الاولى (٨٥٨-٨٦٧)

من المعلوم ان اعتلاء فوتيوس الكرسي البطريركي سنة ٨٥٨ صادف مقاومةً عنيفةً من أتباع « حزب المحافظين » اصحاب البطريرك اغناطيوس المعزول . وكان

---

(١) تنقل في هذا الموضوع اقوال حضرة الاب فيلبس نبعة البولسي عن مقالته المنشورة في « المسرة » ايار وحزيران سنة ١٩٣٧، ص ٢٧٣ و ٣٥٩ ؛ وفيها الاشارة الى المصادر التاريخية الوثيقة التي استقى حضرته معلوماته منها

فوتيوس اول من ادرك حَرَج موقفه . فرأى انه ما دام اغناطيوس مصرًّا على عدم التنازل له لا يمكنه ان يستقر في عرشه ما لم يؤيده الحبر الروماني والبطاركة الشرقيون ويرسلوا اليه رسائل شركتهم . ولذا انفذ الى بابا رومة نقولا الاول رسلًا يحملون اليه هدايا ثمينة ورسالة الشركة، وفيها يقول انه لم يرتقِ الى المنصب البطريركي الا بعدما تنحّى عنه اغناطيوس واذعاناً لامر الملك ومجمع الاساقفة . اما البابا نقولا فلم يشأ ان يبتّ في الامر قبل استقصاء حقيقة هذه المسئلة كلها . فأرسل نواباً الى القسطنطينية ليستقوا الحقيقة من مصادرها . الا ان دهاء البلاط غرَّهم، فعادوا الى رومة بعد ان حكموا لفوتيوس على اغناطيوس . وما عتم اغناطيوس ان رفع الى البابا كتاباً مسهباً بيّن فيه كل ما وقع له من بعد تنزيله، واحتجّ فيه على النواب الرسوليين الذين نقضوا عهودهم وخانوا الحقيقة . وللحال عقد البابا نقولا الاول مجمعاً رومانياً سنة ٨٦٣ الغى فيه حكم نوابه ورشقهم بالحرم، وأنكر على فوتيوس البطريركية وحرمه، واعلن ان اغناطيوس هو البطريرك الشرعي وحده

ذلك باختصار كل موقف الكرسي الرسولي بازاء فوتيوس في عهد بطريركيته الاولى . وعلى مثاله جرى البطاركة الملكيون . فانهم لم يعترفوا به بطريركاً شرعياً ولم يتحدوا معه عندما قام خصماً منازعاً للقديس اغناطيوس، ولم يشتركوا في عمله الذي فصل حيناً الكنيسة البيزنطية عن الكنيسة الرومانية . واليك البيان :

بعد ما ارسل فوتيوس سنة ٨٦٠ رسالة الشركة الى البابا نقولا الاول بعث برسالة اخرى تشبهها في السنة عينها الى بطريركي الاسكندرية واورشليم والى ايكونومس الكرسي الانطاكي . وكان جالساً اذ ذاك على الكرسي الاسكندري البطريرك ميخائيل الاول وعلى الكرسي الاورشليمي ثاوذوسيوس . اما الكرسي الانطاكي فكان يتنازعه بطريركان او بالحري بطريرك شرعي هو نقولاوس الاول وخصمه افسطاطيوس . وهذا ما يوضح لنا السبب الذي حمل فوتيوس على ان يرسل كتاب الشركة باسم ايكونومس الكنيسة الانطاكية لا باسم البطريرك

غير ان البطاركة الشرقيين لم يبعثوا اليه برسالة شركتهم لانهم أبوا ان يبتُّوا في قضيةٍ اشتبهوا في صحتها، لاسيما وانه لم يبلغهم ان اغناطيوس تنزل عن كرسيه . ثم ما عتموا ان تلقوا من البابا نقولا الاول سنة ٨٦١ رسالة مسهبة اوضحت لهم

الامر الواقع وحظرت عليهم وعلى جميع المؤمنين الشركة مع فوتيوس . فكان من شأن هذه الرسالة تثبيتهم في موقفهم

على ان فوتيوس لم يألُ جهداً في استمالة البطريركية الانطاكية اليه فعاد وكتب الى متروبوليت صور توما سائلاً هل تعترف به الكنيسة الانطاكية . فاجاب توما : كلا[1] . بيد ان افسطاطيوس البطريرك غير الشرعي عمد بعد حين الى الاعتراف بفوتيوس آملاً بان يتفوّق بواسطته على خصمه . فكتب اليه فوتيوس شاكراً وطلب اليه ان يحضر الى القسطنطينية[2] . ومن هنا يتبيَّن ان نقولاوس البطريرك الانطاكي الشرعي ظل موالياً للقديس اغناطيوس شأن زميليه بطريركي الاسكندرية واورشليم

وفي سنة ٨٦٦ دخل مرسلو البابا نقولا الاول مملكة بلغاريا التي كانت قد قبلت الايمان من عهد قريب على يد فوتيوس ومرسليه. فطردوا الكهنة البيزنطيين وحظروا الطقس البيزنطي واستبدلوه بالطقس الغربي . واذ ذاك كتب فوتيوس ايضاً سنة ٨٦٧ الى البطاركة الشرقيين وشكا لهم بلهجة شديدة عتوّ البابا والشرور الكثيرة التي احدثها مرسلوه « اولئك الرجال الممقوتون الذين جاءوا من الغرب » ودمّروا كرم الرب، وعلّموا الناس ان يصوموا السبت وان لا يصوموا في اول اسبوع من الصوم، واعادوا منح سر الميرون لانهم يزعمون ان تثبيت الكهنة فاسد[3] . . . وعلى هذا الكتاب ايضاً لم يجبه البطاركة الشرقيون . لا لانهم كانوا يوافقون على خطة الليتنة والعنف التي جرى عليها نواب البابا وكهنتهم في بلغاريا، بل لانهم لم يكونوا يعترفون بفوتيوس

وفي رسالته هذه دعا فوتيوس البطاركة الشرقيين الى مجمع في العاصمة . وطلب اليهم بالحاح ان يؤيدوه على عرشه وان يرسلوا الى المجمع نواباً عنهم . ولمّا لم يحضر منهم احد، عيَّن هو من تلقاء نفسه ثلاثة رهبان من اتباعه لينوبوا عن البطاركة . وعقد مجمعه سنة ٨٦٧ وحرم هو ومطارنته البابا نقولا الاول . الا ان البطاركة انكروا عليه ذلك الاحتيال الذميم وقضوا عليه قضاءً شديداً[4] . كل ذلك يدلُّنا على ان مساعي فوتيوس التي بذلها لاجتذاب البطريركيات الشرقية اليه ذهبت سدى

(1) Grumel, Regestes des Actes du Patr. de Const. Vol. I, fasc. II, nº 471.
(2) Grumel, Regestes ibid., nº 472.
(3) Grumel, Regestes ibid., nº 481.
(٤) راجع « تاريخ المجامع » تأليف هفله ولكلرك، المجلد الرابع، ص ٥٢٣

وان لنا شاهداً اخيراً يثبت باجلى بيان ما تقدم وهو اعمال المجمع الذي عُقد في القسطنطينية سنة ٨٦٩ و ٨٧٠ للحكم في قضية فوتيوس . وقد حضره نواب البابا ادريانس الثاني واساقفة البطريركية البيزنطية . اما البطاركة الشرقيون فقد عزموا على الجلوس في المجمع لكن احمد بن طولون حاكم سوريا وفلسطين ومصر قد صدّهم عن تتميم قصدهم فاضطروا ان يكتفوا بارسال نواب عنهم . فناب عن البطريركية الانطاكية الشاغرة يومئذٍ توما متروبوليت صور وكان اذ ذاك قائماً مقام البطريرك . وارسل البطريرك ثاوضوسيوس الاورشليمي كاتب سرّه ايلياً، والبطريرك ميخائيل الاول الاسكندري الارشدياكون يوسف . فلما عُرضت مسألة فوتيوس للبحث طُلب الى الآباء ان يبدوا رأيهم فيها . فتكلم ايليا نائب البطريركية الاورشليمية في نهاية الجلسة الاولى باسم البطريركيات الملكية الثلاث وقال : « ان فوتيوس لم يعترف به قط اسقفاً شرعياً لا البابا ولا بطاركة الاسكندرية وانطاكية واورشليم . فان جميع البطاركة لم يكفُّوا يوماً عن اعتبار اغناطيوس اسقفاً شرعياً على القسطنطينية . . . وان فوتيوس لما طلب الى توما متروبوليت صور ان يتوسط ويحمل البطريركية الانطاكية على الاعتراف به قد اظهر ان البطاركة الشرقيين كانوا منفصلين عنه[1] »

فما تقدّم يظهر بجلاء موقف البطريركيات الملكية في بدء معضلة فوتيوس اي في عهد بطريركيته الاولى . وهو لعمري موقف مجيد يدلّ على ان كنائس شرقنا المسيحي مع حرصها على ولاء الكنيسة البيزنطية وارضاء الملك كانت اشد تمسكاً بالوحدة الكاثوليكية والانضمام الى الكنيسة الرومانية ام الكنائس

في اثناء بطريركية فوتيوس الثانية (٨٧٧ – ٨٨٦)

رقي فوتيوس الى الكرسي القسطنطيني للمرة الثانية بعد وفاة القديس اغناطيوس بثلاثة ايام . فارسل للحال رسائل الشركة الى البطريركيات الشرقية . ولما نال الجواب منها بالقبول اعتمد على تلك الاجوبة وكتب الى الكرسي الرسولي معلناً للكنيسة جمعاء ايمانه الكاثوليكي ورغبته في الاتحاد مع كنائس الشرق والغرب وبالاخص مع الكنيسة الرومانية

وقد اشرنا في الفصل الاول من هذا الكتاب، ص ٥ وما بعدها، كيف اعتمد

(١) « تاريخ المجامع » السابق ذكره، تأليف هفله ولكلرك، المجلد الرابع، ص ٤٩٢

البابا يوحنا الثامن فوتيوس بطريركاً وثبّته المجمع الذي عُقد في القسطنطينية سنة ٨٧٩ — ٨٨٠ لتبريره . فلننظر الآن موقف بطاركتنا الملكيين في هـذا الشأن، وهم ميخائيل الثاني الاسكندري وثاوضوسيوس الاول الانطاكي وثاوضوسيوس الاورشليمي

اوفد هؤلاء البطاركة نوابهم قزما وباسيليوس وايليا الى فوتيوس يحملون اليه رسائل الثناء والتهنئة والتبجيل . وهكذا حادوا جميعاً عن الخطة التي كانوا اتبعوها في عهد بطريركيته الاولى واستنكروا ما صدر عن ديوانهم اذ ذاك . وما برحوا متحدين معه الى تنزيله الثاني، على نحو ما فعل الكرسي الرسولي الذي لم يرجع البتة عن اعترافه بفوتيوس . وكان سلوكهم هذا لاسباب صوابيـة تبيّن حقيقة موقفهم وصحة رأيهم في معضلة فوتيوس، وهي :

اولاً ان فوتيوس من بعد وفاة البطريرك اغناطيوس لم يعد مختلساً للعرش البطريركي ولا مخاصماً لرئيس شرعي . ومن قبل فراغ الكرسي بسنين عديدة كان على اتم وفاق مع القديس اغناطيوس كما شهد هو نفسه[1]

ثانياً ان خير الكنيسة وسلام المملكة كانا يقتضيان اقرار فوتيوس على العرش البطريركي خلفاً للقديس اغناطيوس . لان معظم الاساقفة والرهبـان وكبار القوم كانوا لا يزالون موالين له، ولا يرضون بغيره بطريركاً . وهذا ما حمل الملك على الامر بتنصيبه، وحمل من بعده البطاركة الشرقيين ثم الحبر الروماني على الاعتراف به

ثالثاً ان فوتيوس قد استغفر الكنيسة كلها في المجمع الذي اقره على عرشه عملاً باوامر الكرسي الرسولي، كما شهد فيما بعـد بذلك البطريرك القسطنطيني يوحنا قُكُس[2]

فالبطريركيات الملكية، سواء كان في معارضتها لفوتيوس ام في الاشتراك معه، وقفت موقفاً شريفاً يدل على ثبات عقيدة ورسوخ في الكثلكة

---

(١) ص ٥٩٣ من المجلد الرابع من « تاريخ المجامع » السابق ذكره

(٢) « مجموعة آبـاء الكنيسة اليونانية »، المجلد ١٤١، ص ٣٢٦ Patrologie Grecque, par Migne, tome CXLI, 326

٢

موقف البطريركيات الملكية في انشقاق كيرولاريوس

الكرسي الانطاكي

لما شهر بطريرك القسطنطينية ميخائيل كيرولاريوس شقاقه عن كنيسة رومة[١] سنة ١٠٥٤، كان يجلس على الكرسي الانطاكي البطريرك بطرس الثالث، وهو الذي حفظ التاريخ ذكره لتدخله في هذه القضيّة لاجل مصلحة السلام والاتحاد. اما الكرسيّان الاسكندري والاورشليمي فيظهر اما انهما كانا شاغرين وإما ان بطريركيهما لم يتدخلا في الموضوع. ولذلك لا نرى ذكراً لهما ولا يُعلَم بالتدقيق مَن كان جالساً حينئذٍ على الكرسي الاسكندري[٢] وعلى الكرسي الاورشليمي[٣]

كان بطرس الثالث من اشراف مدينة انطاكية ومن كبار رجال حكومتها قبلَ هجرهِ العالم وترهّبه في احد الاديار ثم قبوله الدرجات الكهنوتية. ولما جلس على الكرسي الانطاكي ارسل رسالة الشركة الى سائر البطاركة والى الحبر الروماني. ولكن صعوبة المواصلات في ذلك الزمان بين الشرق والغرب كان من شأنها ان رسالته الى البابا لاون التاسع مكثت اكثر من سنتين في الطريق قبل وصولها اليه،

---

(١) راجع الفصل الثاني من هذا الكتاب، ص١١ - ٢٤

(٢) لم يتوصّل المؤرخون الى معرفة التاريخ الذي جلس فيهِ بعض البطاركة الاسكندريين على كرسيهم ولا الوقت الذي انتهت فيهِ حبريتهم. فالجدول الكامل الذي توصّل الى وضعه حضرة الاب العالم فيفر J. Faivre, S. J. في «قاموس التاريخ والجغرافيا الكنسي» Dict. d'Hist. et de Géogr. Eccles. المطبوع بباريس سنة ١٩١٤، في كلمة «كنيسة الاسكندرية»، في المجلد الثاني، قال ان البطريرك ثاوفيلس كان جالساً على الكرسي نحو سنة ١٠١٩، وان الكسندرس الثاني او لاونديوس كان بطريركاً نحو سنة ١٠٥٩. فمَن كان بطريركاً سنة ١٠٥٤ التي حصل فيها الشقاق؟

(٣) نُبدي بشأن البطريركية الاورشليمية الملاحظة نفسها التي ذكرناها بشأن بعض البطاركة الاسكندريين. فشحادة خوري ونقولا خوري، واضعا «خلاصة تاريخ كنيسة اورشليم الارثوذكسية» المطبوع بالقدس سنة ١٩٢٥، ذكرا ان صفرونيوس الثاني جلس سنة ١٠٤٠، وخلفه افثيميوس الاول في سنة غير معلومة، وخلفه سمعان الثاني سنة ١٠٨٤، فمن من هؤلاء كان بطريركاً وقت انشقاق كيرولاريوس سنة ١٠٥٤؟

حتى ان بطرس الثالث ظنّ انها فقدت وجدّد ارسال غيرها . ولكن قبل وصول الرسالة الثانية الى البابا تسلّم البطريرك جواب لاون التاسع الذي يشكره فيه على شعوره نحو الكنيسة الرومانية[1] . ولما اعلن كيرولاريوس انفصاله كتب اليه بطرس الثالث عاتباً على فعلته هذه : لان المسائل التي كانت موضوع الجدال بين الروم واللاتين ليست من الخطر والاهمية بحيث تستدعي الانفصال، ولانه لا يصحّ ان يُطلَب من الافرنج ما يُطلَب من اليونان المتمدنين؛ فالبساطة والجهل عند الافرنج يجرّانهم كثيراً الى امور غير ملائمة؛ ولذلك يجب على كيرولاريوس ان يراعي هذه الاحوال لئلا يصل الى الشقاق الوخيم العاقبة[2]

وبعد بطرس الثالث جلس على الكرسي الانطاكي سنة ١٠٥٧ ثاوضوسيوس الثالث خريزوقرجيس، صديق كيرولاريوس، وصنيعته . فلا عجب اذا سار في تيّاره في امور الدين والدنيا . ولا يخفى ان سوريا كانت في ذلك العهد قد عادت الى حكم الروم على اثر غزوات نيكيفورس فوقا ويوحنا زيميسيس في النصف الثاني من القرن التاسع[3] . فكان لبطاركة العاصمة نفوذ وتدخّل في الكنيسة الانطاكية . ولذا لم يرسل ثاوضوسيوس الثالث رسالة الشركة الى البابا . وقد حذا حذوه من خلفه على الكرسي السوريّ فانهم كانوا من العنصر اليوناني ومن المعيَّنين بنفوذ ملك الروم وبطريرك القسطنطينية

---

(١) تحتوي رسالة بطرس الثالث جزئين مهمَّين . ففي الاول يعترف البطريرك الانطاكي بان كرسي القديس بطرس لم يَخطأ قطّ في تعاليمهِ منذ بدءِ الكنيسة . وفي الجزء الثاني يبسط رأيهُ في الطرق الاكثر ملاءمة لحسن ادارة الكنيسة ومنع الشقاقات، ومن كلامهِ هنا يُفهَم انه من مذهب القائلين « بحكم الخمسة » Pentarchie اي بان السلطة الكنسيَّة موزعة بين البطاركة الخمسة الروماني والقسطنطيني والاسكندري والانطاكي والاورشليمي، كأنهم الحواسّ الخمس لجسم المسيح الواحد . — راجع كلمة « بطرس الثالث » في قاموس اللاهوت الكاثوليكي »، الجزء ٢ من المجلَّد ١٢، عمود ١٨٠٧ — ١٨١٠

(٢) راجع الجزء ٩ من « تاريخ النصرانية » تأليف الاب شارل بولّه البندكتي، المطبوع بباريس سنة ١٩٣٥، ص ٣٩٩ (السابق ذكره في ص ٢٦ من هذا الكتاب)

(٣) راجع ص ١١ من هذا الكتاب

الكرسي الاسكندري (١)

نرى في مجموعة الاباء الشرقيين للأب مين[٢] رسالةً من كيرولاريوس الى البطريرك الاسكندري واخرى الى البطريرك الاورشليمي يحاول فيهما ان يجرّ زميليه المذكورين الى اتباعهِ في الانفصال عن رومة ويستعلم هل اسم البابا مُدرَج عندهما في الذبتيخا[٣]. ولكن لا يُعلَم ماذا كان جواب البطريرك الاسكندري على تلك الرسالة. وكانت الكنيسة الملكية في القطر المصري قد بلغت حينئذٍ مبلغاً جسيماً من الضعف بسبب تغلُّب الاقباط عليها من جهةٍ، واضطهاد الحكم الاسلامي لها من جهةٍ اخرى. ولما كان البيزنطيون قد اعادوا في تلك الحقبة حكمهم على سوريا، فكان من الطبيعي

(١) ان ترتيب الكرسي الاسكندري من حيث الكرامة هو الاول بعد القسطنطيني. وعليه يجب ذكره قبل الانطاكي. ولكن سياق الحوادث التاريخية يضطرنا هنا وفي مواضع اخرى الى ذكر الكرسي الانطاكي قبله، واحياناً الكرسي الاورشليمي ايضاً قبله. فالرجاء من القارئ ان يحفظ ذلك، بغير ان نعيد هذه الملاحظة مرة اخرى

(٢) المجلد ١٢٠ من تلك المجموعة، العمود ٧٨٨–٨٢٠ Patrol. Grecq. de Migne, t. CXX, col. 788-820.

(٣) وردت هذه الكلمة «ذبتيخا» وبالفرنسيَّة Diptique غير مرّةٍ في الكتاب، فاحببنا ان نذكر هنا تفسيرها. فهي مركبة من كلمتين يونانيتين تفيدان معنى الشيء المزدوج المطوي. وفي الاصطلاح هي عبارة عن لوحتين خفيفتين صغيرتين من الخشب الناعم تُربَطان من احد جانبيهما بسَير رفيع من الجلد او بخيط او شريط، بحيث يمكن طيّهما وتطبيقهما الواحدة على الاخرى. وكان عظماء الدولة عند قدماء اليونان والرومان يستعملون هذه الذبتيخات لكتابة اسمهم عليها وتاريخ تعيينهم ويوزعونها على اصحابهم كتذكار. وكثيرًا ما كان وجهها الخارجي مزيناً برسوم ونقوش. وقد قلَّد المسيحيون الاولون هذه العادة القديمة فاستعملوا الذبتيخات ليقيدوا فيها اسماء الشهداء والاحبار والملوك والمحسنين والموعوظين الخ الذين يريدون ان يذكروهم علناً في الليترجيا الالهية لكي تصلّي الجماعة لاجلهم عندما يتلو الشماس او الاسقف اسماءهم. ثم استُعملت خصوصاً لكتابة اسماء الباباوات والبطاركة المشتركين معاً بوحدة الايمان ورباط المحبة، والذين كانوا يذكرون في القداس بعضهم اسماء بعض. وكانت هذه الذبتيخات توضع على المذبح او تعلَّق على باب الايقونستاس. فلما كان احد البطاركة يدرج في ذبتيخا كنيسته اسم بطريرك آخر، كان معنى ذلك انه قبله في شركته؛ وإسقاط الاسم من الذبتيخا معناه قطع تلك الشركة

وفي الاصطلاح العصري، الذبتيخا هي الدعاء الذي يتلوه الكاهن او الشماس في القداس الجبري الاحتفالي للاسقف او للبطريرك المحتفِل بالذبيحة، ذاكرًا فيه الغائب كلها

ان يتأثر روم الاسكندرية بنفوذهم ويسيروا في تيّارهم . وهكذا خضعت كنيسة الاسكندرية لنفوذ كنيسة القسطنطينية مدةً طويلةً قبل ان تنفصل عن الكرسي الروماني[1]

الكرسي الاورشليمي

خضعت كنيسة اورشليم للنفوذ البيزنطي قبل غيرها من البطريركيات الشرقية. وذلك انه بعد زوال النفوذ الذي كان لملوك الغرب في حماية الاماكن المقدسة (على اثر تقسيم مملكة شارلمان في اوربا ونسيان صداقته مع الخليفة هارون الرشيد في الشرق)، وبعد الخراب العظيم الذي لحق بالمسيحيين ومعابدهم ومعاهدهم في الاضطهاد الشديد الذي اوقعه بهم الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (من سنة ١٠٠٥ الى سنة ١٠٢٠) لم يكن من ينجد كنيسة اورشليم ويقيلها من عثرتها الا ملوك الروم . فانهم بفضل ما عقده قسطنطين الثامن وميخائيل الرابع من المعاهدات مع الخلفاء الفاطميين قد خفّفوا الضغط عن النصارى وارجعوا اليهم كنائسهم وسمحوا لمن كانوا أسلموا قسراً في زمن الحاكم بامر الله ان يعودوا الى ديانتهم . ثم ان قسطنطين التاسع المبارز جدّد بناء كنيسة القيامة في اورشليم على نفقته وبواسطة مهندسين من عنده . فمع كلّ هذه الآلاء ليس من المستغرب ان يكون بطريرك اورشليم خاضعاً لنفوذ القسطنطينية ومشاطراً البطريرك القسطنطيني سلوكه عملياً في مسألة الاتحاد

٣

في أثناء الحروب الصليبية (١٠٩٦ — ١٢٩١)

رأينا فيما سبق، ص ٢٨ — ٣٢، ان هذه الحروب التي نظّمها الغرب المسيحي لانقاذ الاراضي المقدسة من حكم المسلمين قد سطَتْ عليها المطامع البشرية وأفسدت غايتها، وكان لها من سوء التأثير في مملكة الروم والبطريركية القسطنطينية ما زاد

(١) راجع كتاب برهيه في الانفصال الشرقي L. Bréhier, le Schisme Oriental au XIe siècle في مواضع مختلفة : ص ١٠٨ و١١٦ و٢٤٠ الخ

التباعد بين الكنيستين. وبقي علينا ان نرى الآن نتائجها في البطريركيات الشرقية: فهي لم تكن افضل، كما يظهر لك ذلك مما يلي:

البطريركية الانطاكية

عندما استولى الصليبيون على انطاكية كان بطريركها يدعى يوحنا الرابع. وكان المسلمون قد اذاقوه انواع العذاب مدة حصار المدينة اذ كانوا يعلّقونه على الاسوار في مواجهة الجيش المسيحي اذلالاً لهم وتخويفاً. فكانت معاملة الصليبيين له في البدء معاملةً حسنة. ولكنهم ما عتموا ان قاسموه استعمال كنائسه وضيّقوا عليه؛ فاضطرّ الى الهرب ولجأ الى القسطنطينية. حينئذٍ انتهزوا الفرصة وعيّنوا بطريركاً لاتينياً واخضعوا له الاساقفة الروم واكليرسهم؛ ونظّموا شؤون الكنيسة في الشرق على مثال ما كان عندهم من النظام في الغرب، ضاربين صفحاً عن قوانين الشرق وعاداته. فكان من نتيجة هذه السياسة ان المسيحيين الشرقيين نفروا منهم، وان التباعد بين الكنيستين اخذ يتزايد. وعذر الافرنج في سلوكهم هذا هو ان عامة المسيحيين في ذلك العهد، في الشرق وفي الغرب، ما كانوا يفقهون انه يمكن جعل اسقفين متحدَي المذهب على مدينةٍ واحدة. بل انما كانوا يعتقدون انه لا بدّ من ان يكون الرئيسُ الاعلى وصاحبُ الولاية الكنسية العامة اسقفاً من جنسية الأمّة الغالبة

لكن يوحنا الرابع لما هرب الى القسطنطينية لم يتنازل عن كرسيه الانطاكي. وعلى ذلك عيّن المجمع القسطنطيني خلفاً له عند وفاته، صارفاً النظر عن وجود البطريرك اللاتيني. واستمرّ الحال على هذا المنوال طول المدة التي حكم فيها الافرنج مدينة انطاكية. واعظم بطاركة هذه الحقبة ثاودورس الثالث بلسامون[1] صاحب المؤلفات المشهورة في الحق القانوني والتي لا يزالون يرجعون اليها حتى اليوم

ومع ان الاحوال اضطرت اكثر البطاركة الى البقاء في القسطنطينية، قد حاول بعضهم الذهاب الى كرسيه في انطاكية، إما تنفيذاً لمعاهدات بين ملوك الروم

(١) لا تُعرف بالضبط سنة تعيينه على الكرسي البطريركي، فقد تكون احدى السنوات التي بين ١١٨٥ و١١٩١؛ ولا تعرف بالضبط ايضاً سنة وفاته، ولكنها على كل حال متأخرة عن سنة ١١٩٥

وامراء انطاكية الافرنج[١]، واما بناءً على اذن خاص من هؤلاء الامراء[٢]، وإما خلسةً على اثر احدى الغزوات[٣]

البطريركية الاورشليمية

حدث في اورشليم ما حدث في انطاكية . ففي اول دخول الصليبيين بيت المقدس سنة ١٠٩٩ كانوا على وفاقٍ مع بطريركها سمعان الثاني ويعتبرونه رئيسهم الديني . ولكن ما عتموا ان وضعوا ايديهم على الكنائس والاماكن المقدسة وضيّقوا على البطريرك فاضطرّ الى الهرب الى جزيرة قبرس حيث مات . فصار حلفاؤه يقيمون في القسطنطينية الى سنة ١١٤٢ . اما الافرنج فعينوا بطاركة لاتينيين كانت اقامتهم في فلسطين (في القدس اولاً ثم في عكا) الى آخر الحروب الصليبية اذ سقطت عكا سنة ١٢٩١

على ان ملك الروم مانويل كُمنينُس اتفق سنة ١١٤٢ مع ملك اورشليم على تعيين بطريرك للروم . غير ان هذا البطريرك بقي مقيماً في القسطنطينية حتى سنة ١١٨٧، حين فتح صلاح الدين الايوبي بيت المقدس . فخرج حينئذٍ البطريرك

---

(١) كان امير انطاكية مغلوباً على امره في اواسط القرن الثاني عشر . ففرض عليه مانويل ملك الروم ان يقبل البطريرك الملكي في مدينته . ولما جاءها البطريرك أثناسيوس الاول نحو سنة ١١٦٧ غضب بطريركها اللاتيني اموري فحرم المدينة كلها وغادرها . ثم اضطرت الاحوال اثناسيوس الاول الى تركها سنة ١١٧٠ فعاد اليها البطريرك اموري !

(٢) مثال ذلك ان البطريرك سمعان الثاني الشهير بابن ابي شيبة (١٢٠٧ – ١٢٣٥) قد اذن لهُ الامير بوهيمُند الرابع في الدخول الى انطاكية . فلما جاءها غضب البطريرك اللاتيني وحرم الامير بوهيمند المذكور . لكن الامير قبض عليه وسجنهُ حتى مات ! حينئذٍ قام بطريرك اورشليم اللاتيني وحرم سمعان الثاني !

وكذلك البطريرك الملكي داود الذي خلف ابن ابي شيبة على الكرسي الانطاكي . فقد كان على علاقة بالبابا اينوكنتس الرابع واذن لهُ الامير بوهيمند الخامس بالاقامة في المدينة . فلما دخلها استقبله الاهلون استقبالاً بالغاً في الاكرام والفرح . فلما رأى البطريرك اللاتيني ذلك غادر انطاكية وذهب الى اوربا

(٣) البطريرك افثيميوس الأول . وقد حرمهُ البطريرك اللاتيني غير مرّةٍ، وطرده الامير بوهيمند السادس من المدينة . ولكنه عاد اليها عندما حاصرها المغول واستولوا عليها . غير ان اقامته لم تطل فيها اذ عاودها الصليبيون فاضطرّ الى الانسحاب الى القسطنطينية سنة ١٢٦٣

اللاتيني منها ودخلها البطريرك الملكي . واستمرّت القسطنطينية تعيّن بطاركة المدينة المقدسة . فلا يُستغرب منهم خضوعهم لنفوذ بطاركة العاصمة البيزنطية وسيرهم في تيّارهم

وفي سنة ١٢٤٧ ارسل البابا اينوكنتس الرابع سفيراً من قبله يدعى لورنزو دا أُورتي الراهب الفرنسيسي لحسم الخلافات القائمة بين اللاتين والروم في بطريركيتي انطاكية واورشليم وفي جزيرة قبرس . فاتخذ بعض التدابير لذلك، منها قراره بان الروم الذين في البطريركية الاورشليمية، هم واساقفتهم وبطريركهم، لا يخضعون لولاية البطريرك اللاتيني . فمثلُ هـذا القرار الحكيم، الذي نراه اليوم طبيعياً، صادفَ في ذلك الزمان مقاومةً عنيفةً من قبل الامراء الصليبيين واكليرسهم الافرنجي وفي الدوائر الرومانية عينها؛ اذ كانوا متشبّعين بفكرة وحدة الولاية في الادارة الكنسية كما سبق البيان. وعلى ذلك لم يمكن تنفيذ قرار المفوَّض لورنزو المذكور

البطريركية الاسكندرية

بقيت الاسكندرية سالمةً على وجه العموم من أذى الحروب الصليبية، اذ ان غزوات بعض الحملات الصليبية لم تتجاوز دمياط . فليس لنا ما نقوله بشأن تأثير تلك الحروب في بطريركيتها. على ان تلك الغزوات الاوربية وكثرة تردّد البنادقة على الاسكندرية كان من اثرها الطبيعي ان الحكام المسلمين في كل بلاد المشرق صاروا يحذرون رعاياهم المسيحيين واحياناً يحمّلونهم ثقل الثأر الذي كان لهم على الافرنج . فلا غرابة اذا اضطهدوهم او تشدّدوا في معاملتهم اكثر من العادة . وقد ترك لنا التاريخ كتاباً من البطريرك الاسكندري نقولاوس الاول نحو سنة ١٢١٠ الى البابا اينوكنتس الثالث يشكو فيه مرارة هذا الاضطهاد؛ فكتب اليه البابا يعزّيه ويشدّد عزمه

اما شعور الكنيسة الاسكندرية بالنسبة الى الاتحـاد مع الكرسي الروماني فليس ثابتاً على رأيٍ . فبينما نرى البطريرك نقولاوس السابق ذكره يراسل الحبر الاعظم، نرى ايضاً احد سفراء رومة يكتب الى البابا في سنة ١٢٣٧ ان اقباط الاسكندرية قابلون الاتحاد، اما الروم فمعاندون

٤

موقف البطاركات الملكية تجاه اتحاد ليون

ذكرنا في الفصل الرابع (ص٣٥–٤٢) ما كان من أمر الاتحاد الذي تمَّ في مجمع ليون سنة ١٢٧٤، في عهد البابا غريغوريوس العاشر وملك الروم ميخائيل الثامن پاليولوغس . وقد رأينا انه كان قصير العمر لان الاهواء السياسية عصفت به وبدَّدت أثره

ويظهر ان البطاركة الملكيين لم يحضروا مجمع ليون، فان المفاوضة كانت فيه محصورة بين ملك الروم والكرسي الروماني . وعلى كل حال لم يكن في استطاعتهم حضوره، لأَن سلطان مصر الملك الظاهر بيبرس البندقداري الذي استولى على مصر وفلسطين (ما عدا عكا) قد فتح انطاكية ايضاً سنة ١٢٦٨ وملك على امارات الافرنج في سوريا، وكان يخشى من اتفاق بطاركة النصارى الشرقيين الذين تحت حكمه مع باباوات رومة الذين ما زالوا يثيرون الحروب الصليبية . ولذلك ما كان ليأذن للبطاركة المذكورين في السفر الى اوربا والاشتراك في مجمعٍ اشتهر ان مِن أَغراضهِ تنظيم حملة صليبية جديدة . الا ان هؤلاء البطاركة، مع انهم لم يشتركوا في المجمع، قد اظهروا ميلاً واضحاً الى الاتحاد الذي تمَّ في ليون

في القرن الثالث عشر

فالتاريخ يذكر ان كنيسة القسطنطينية، التي بادرت الى الانفصال عقب وفاة الملك ميخائيل الثامن، رفعت من ذبتيخاها اسم اثناسيوس بطريرك الاسكندرية نحو سنة ١٢٨٢ بسبب ميوله الاتحادية

ولما كان يوحنا قِكُس الاتحادي بطريركاً على القسطنطينية، كان البطريرك الاورشليمي غريغوريوس الاول معاكساً له . ولكن احد خلفائهِ، اثناسيوس الثالث، ذهب الى القسطنطينية وسَاهَمَ في العمل على الاتحاد في زمن الملك اندرونيكس

اما في انطاكية، فكان الكرسي البطريركي شاغراً سنة انعقاد المجمع . ولكن في السنة التالية (١٢٧٥) جَلَسَ عليه ثاوضوسيوس الرابع . وكان من امراء أُسرة

ڤيلهردوان de Villehardouin الصليبية الفرنسيَّة التي كان احد فروعها قد ترك الطقس اللاتيني واعتنق الارثوذكسية . فلما تمّ الاتحاد في مجمع ليون بادر هذا البطريرك الى الاعتراف به وتطبيقهِ في سوريا، وكان في ذلك على اتصال بالملك ميخائيل الثامن والبطريرك القسطنطيني يوحنا ڤِكُس . ولكن لما مات ميخائيل وتبوأ ابنه اندرونيكس العرش وساد الشقاق من جديدٍ، استقال ثاوضوسيوس الرابع . وبعد مدةٍ قصيرة، انتهز البطريرك القسطنطيني اثناسيوس الاول فرصة الاختلاف في الرأي بينه وبين البطريركية الانطاكية، فوضع يده على الدير الذي كان يخصّ البطاركة الانطاكيين في القسطنطينية والذي كانوا ينزلون فيه عند مجيئهم الى عاصمة الروم

في القرن الرابع عشر

رأينا في الفصل الخامس (ص ٤٦) ان البابا أُربانُس الخامس كان شديد الاهتمام بمسألة اتحاد الكنائس، وبتجريد حملة صليبية لنجدة المسيحيين الشرقيين . وقد كتب الى بطاركتهم في ٦ تشرين الثاني سنة ١٣٦٧ يدعوهم الى الاتحاد . فاجابه نيفون الاسكندري ولعازر الاورشليمي[1]، بالاتفاق مع فيلوثاوس القسطنطيني، بقبول الاتحاد بطيبة نفس . اما البطريركية الانطاكيَّة فكانت اذ ذاك في حالة اضطراب شديد بسبب اعمال باخوميوس مطران دمشق الذي اختلس الكرسي البطريركي وجاس عليه عدة مرات . فلاجل ذلك لم تشترك في رسالة الاتحاد التي كتبها سائر البطاركة وبعثوا بها الى الحبر الاعظم . وقيل ان باخوميوس هذا هو الذي نقل المقرّ البطريركي من انطاكية الى دمشق . وقد توفي سنة ١٣٨٦

ولم تكن الافكار في ذلك الزمان مماثلةً تماماً لافكارنا اليوم بشأن الاتحاد . لذلك يجب ان لا نستغرب اذا رأينا البطاركة، الذين اشتركوا في كتابة رسالة الاتحاد الى البابا في سنة ١٣٦٧، يشتركون في السنة التالية في المجمع الذي عقدته كنيسة

(١) في تلك الايام ثار اضطهاد كبير على المسيحيين الشرقيين ولاسيما في البطريركية الاورشليمية . فقبض السلطان صلاح الدين بن نصر الدين على بطريركها لعازر ونكل به وسَجَنَهُ ليجبره على الاسلام . فاحتمل البطريرك العذاب والسجن ولم يجحد . واخيرًا أُفرِج عنهُ بوساطة بطريرك الاقباط لدى السلطان . وقد كتب اليه البابا أُربانُس الخامس كتاب تعزية بهذا الداعي

القسطنطينية لاعلان قداسة غريغوريوس پالاماس[1] . اما الكرسي الانطاكي فكان في تلك السنة شاغراً . ولكن البطريرك ميخائيل الثاني الذي جلس فيما بعد عليه ارسل الى زميله القسطنطيني في سنة ١٣٩٥ صورةَ ايمانٍ مطابقة لتعاليم پالاماس المذكور[2] . وهكذا يمكن القول ان الكنائس الملكية شاطرت رسمياً كنيسة العاصمة البيزنطية اراءها المتعلّقة بتلك التعاليم

٥

البطريركيات الملكية ومجمع الاتحاد الفلورنسي

ارسل بطاركة المشرق ممثلين نابوا عنهم في هذا المجمع الشهير . وكان الممثلون من اهمّ اعضاء المجمع . ولما ذكرنا في ما سبق[3] ما كان من امرهم، لا نعود الآن الى ذلك، بل نكتفي بالكلام على ما حصل بعده

---

(١) غريغوريوس بالاماس من كبار اللاهوتيين البيزنطيين في القرن الرابع عشر . نَسَكَ في جبل آثوس، ثم صار رئيس اساقفة على تسالونيكي سنة ١٣٤٩ وتوفي سنة ١٣٥٩ . وهو زعيمُ مذهبٍ لاهوتي يتعلّق بالحياة النسكية، او بالحري بطريقةٍ نسكية خاصّة كانت في الاصل سالمةً من كل شائبة لاهوتية، ثم صار اصحابها يعتقدون انه في امكان الانسان ان يرى الله تعالى وهو على هذه الارض، وذلك بنظرهِ نورَهُ كما نظر الرسل نور المسيح في تجلّيه على طورثابور . ويقولون ان هذا النور هو ازلي وغير مخلوق، ويجعلون تمييزاً حقيقياً بين الذات الإلهية وبين فعلها . وقد وضع بعضهم طريقة آليّة (ميكانيكية) للوصول الى التمتع بمشاهدة هذا النور الالهي . — وقد حصل في القسطنطينية بشأن هذا المذهب ما كان يحصل بشأن غيره من المذاهب اللاهوتية، أي ان الملوك تدخّلوا في الجدال وكذلك الاحزاب السياسية والرهبانية . وقد حرم البطريركُ القسطنطيني يوحنا كاليكاس المذهبَ البالامي سنة ١٣٤٢؛ ولكن بعض مجامع قسطنطينية ولا سيما مجمع سنة ١٣٥١ اتخذوا هذا المذهب كأنه من العقائد الارثوذكسية . ثم ان البطريرك القسطنطيني فيلوثاوس كوكينوس اشهر قداسة غريغوريوس بالاماس سنة ١٣٦٨ وحدّد لعيده الاحدَ الثاني من الصوم الكبير

(٢) كان البطريرك الانطاكي اغناطيوس (١٣٤٤ – ١٣٦٦) مخالفاً لتعاليم غريغوريوس بالاماس التي كانت البطريركية القسطنطينية تدافع عنها . ولذلك اعترفت بخصمه باخوميوس المختلس السابق ذكره بطريركاً . فاضطر اغناطيوس ان يهرب الى جزيرة قبرس

(٣) راجع الفصل السادس كله، والحاشية ١ في اسفل الصفحة ٦٣

اعلان الاتحاد في الشرق ثم رفضه

لما كتب البابا افجانيوس الرابع الى فيلوثاوس الاول الاسكندري يبلّغه الصورة من صكّ الاتحاد المبرم في ٦ تموز سنة ١٤٣٩، اجابه هذا البطريرك بكتابٍ مفعم من الفرح والابتهاج واخبره بان الملك يوحنا پاليولوغس سبق فأبلغه صورة ذلك الصكّ، وانه رأى الصورتين متطابقتين؛ وانه نشر ذلك في رعيته التي قبلته بسرور

وأُرسلت صورة الصك الى ذوروثاوس الاول الانطاكي عن يد ناثانائيل مطران رودس . وقد نُقل الى اللغة العربية بواسطة ميخائيل مطران بيروت، ونُشر في كل سوريا . فعمّ الفرح ابناءها . ولم تكن البطريركية الاورشليمية اقلّ فرحاً منها

لكن هذا السرور لم يدم طويلًا . فالحزب القسطنطيني الذي كان معاكساً للاتحاد ارسل احد اعضائه، ارسانيوس مطران قيصرية الكابادوك، لحمل بطاركة المشرق على نقض الاتحاد الفلورنسي . فجاء بحجة زيارة الاماكن المقدسة واستعمل دهاءه لديهم وتمكّن من جعلهم يقرّرون كتابةً في مجمع عقدوه في اورشليم سنة ١٤٤٣ انهم لا يوافقون على مجمع فلورنسا . وقد شحنوا قرارهم هذا طعناً في المجمع والملك يوحنا والبطريرك مطروفانس الثاني الذي كان اذ ذاك جالساً على الكرسي القسطنطيني[1]

عدم استقرار الحالة

على ان الحالة لم تكن مستقرّةً . فبعد ذلك ببضع عشرة سنة نرى موسى الجبيلي[2] يقوم بعدّة اسفار بين الشرق والغرب، موفداً من قبل امراء بيروت الى البابا كليستُس الثالث سنة ١٤٥٦، ومن قبل البابا المذكور الى بطاركة المشرق، في مهامّ

(١) زعم البعض انهم ذهبوا بعد ذلك الى القسطنطينية نفسها واشتركوا في مجمع سنة ١٤٥٠ نبذوا فيه اتحاد فلورنسا . ولكنا رأينا آنفاً ص ٧٠ ان هذا الخبر غير صحيح . ورأينا ايضاً في الصفحة المذكورة ان اشتراك البطريرك الانطاكي في اجتماع اورشليم المشار اليه امرٌ مشكوك فيه

(٢) يذكره الافرنج هكذا Moïse Giblet وقيل انه من نسل الامراء الصليبيين الذين حكموا جبيل ثم لجأوا الى جزيرة قبرس لما استولى المسلمون على اماراتهم، واغلب المؤرخين يعتمدون على اقواله . ولكن بَستُور يقول ان صدقه غير مُحقَّق L. Pastor, Hist. des Papes, (traduct. franç.), tome III, p. 233-234

سياسية ودينية مختلفة . فمهمته الدينية كانت العمل على اتحاد الكنائس؛ وقد صادفت اقواله قبولاً لدى مرقس الاسكندري والبطاركة الانطاكيين ميخائيل الثالث ومرقس الثالث ويواكيم الثاني الحموي . فأعاد مرقس الثالث اسم البابا الى الذبتيخا سنة ١٤٥٧؛ وذهب يواكيم الثاني الى القدس وعمل مع مرقس الاسكندري على إقناع زميلهما يواكيم الاورشليمي بالرجوع الى الاتحاد سنة ١٤٥٨ وكتب في ذلك الى البابا بيوس الثاني . وفوّض البطاركة الثلاثة وكيلهم موسى الجبيلي إيصال وثائق اتحادهم الى الحبر الاعظم، وكانت مكتوبةً باللغة العربية . وفي ٢١ نيسان سنة ١٤٦٠ وقّع موسى صكّ الاتحاد بالنيابة عنهم؛ وأمر البابا بيوس الثاني بدرج الترجمة اللاتينية للوثائق العربية في « كتابٍ احمر » لا يزال محفوظاً في المكتبة الفاتيكانية[1]

قلنا ان الحالة لم تكن مستقرّةً . لذلك لا يُعلَم كم من الزمن طال هذا الاتحاد . فقد قيل ان بطريرك انطاكية ذوروثاوس ابن الصابوني اشترك في المجمع الذي عقده البطريرك القسطنطيني سمعان الطرابزوني سنة ١٤٨٤ ونبذ فيه رسمياً اتحاد المجمع الفلورنسي (راجع ص ٧٥)

ومن جهةٍ اخرى نرى بطاركة اورشليم في اواخر القرن الخامس عشر يحاولون الدخول في مفاوضات اتحادية مع الباباوات، بسبب خوفهم من ان اضطهاد الحكام لرعاياهم يحملهم على جحود الايمان . فالبطاركة ابراهيم ويعقوب الثالث ومرقس الثالث كتبوا في ذلك الى رومة . وكان البطاركة اذ ذاك من العنصر الوطني . ولكن لما استولى العنصر اليوناني بعد ذلك على البطريركية الاورشليمية ما عدنا رأينا شيئاً من تلك المحاولات[2]

---

(١) راجع العمود ٦٣٣-٦٣٤ من المجلد الثاني من « قاموس التاريخ والجغرافيا الكنسي » السابق ذكره . والمقالة هي للاب كيرلس شارون (او كورولفسكي) الاختصاصي في تاريخ الكنيسة الملكية

(٢) يزعم بعض المؤرخين الكنسيين اليونان ان البطاركة الذين كانوا من العنصر الوطني قد اساءوا التصرف في اوقاف الكنيسة الاورشليمية وافقروها، وان ذلك كان من الاسباب التي حملتهم على الالتجاء الى الباباوات . وهكذا طعن اولئك المؤرخون في كفاية ونزاهة العنصر العربي او الوطني في فلسطين وشوّهوا جمال العواطف الاتحادية التي ابداها بعضُ بطاركته، مريدين بذلك ان يؤيدوا مطالبهم العنصريّة في تولّي بطريركية المدينة المقدسة واوقافها

رأيُ المسلمين في الروم الملكيين

لم يتعمّق المسلمون كثيراً في دراسة الفِرَق المسيحية، ولاسيما بعدما زال ذاك التسامح الذي كان المسيحيون يتمتعون به في اول الفتح، وخصوصاً في عهد بني اميّة، اذ كانوا يجادلون المسلمين بحرّية في الدين؛ وكان من علماء المسلمين ومفكّريهم مَن يرضى ان يبحث المعتقدات المسيحية. فهذا « الإعراض » — على حدّ قولهم — كان من شأنه انهم لم يتتبعوا تاريخ المذاهب التي استجدّت بين النصارى بعد القرن العاشر. ثم ان عدم استقرار البطريركيات الشرقية على رأيٍ واحد في مسألة اتحادهم مع الكرسي الروماني او انفصالهم عنه، قد ترتّب عليه ان الحكّام والكتّاب المسلمين لم يُعنَوا ذواتهم كثيراً في تعرُّف حقيقة الحال. لذلك استمرّوا الى القرن الخامس عشر يعتبرون المسيحيين ثلاث فرق، وهي الفرق التي وجدوها عندما فتحوا البلاد في القرن السابع : اي النسطورية واليعقوبية والملكية. فالنسطورية هي المذهب الغالب في العراق وما والاه شرقاً. واليعقوبية هي مذهب الاقباط في مصر والحبشة، والسريان في الشام، والارمن. والملكية هي المذهب الغالب عند النصارى، يتبعه الروم والافرنج طُرًّا، ورئيسهم الاكبر وبطريركهم العام هو بابا رومة او « الپاپ »[1]

فلما كان الملوك المسلمون بمصر يكاتبون ملوك الروم بالقسطنطينية كانوا يفيضون عليهم القاب الشرف واسمى الصفات، كقولهم « الجليل الخطير... الاسد... الاصيل... وارث القياصرة القدماء... أوحد ملوك العيسوية... مخوّل التخوت والتيجان... رضِيّ الپاپ بابا رومية... صديق المسلمين...[2] »

(١) راجع مثلاً كتاب « الفصل في الملل والاهواء والنحل » للامام ابن حزم الاندلسي من فلاسفة القرن الحادي عشر؛ و « مقدمة كتاب العِبَر » لابن خلدون الفيلسوف والمؤرخ من اعلام القرن الخامس عشر؛ وعدة مواضع في بعض اجزاء « صبح الاعشى » للقلقشندي الكاتب المصري من القرنين الرابع عشر والخامس عشر؛ الخ الخ. — اقرأ في « اصل لقب الملكيين » المقالة الممتعة التي نشرها الخواجا حبيب زيات في « المسرّة » في شهر كانون الثاني سنة ١٩٣٤، ص ١٣

(٢) صبح الاعشى، طبعة مصر سنة ١٩١٥، الجزء السادس، ص ١٧٥. — وفي مواضع اخرى ينعتونه بالمعزّ للبابا وما في هذا المعنى. ولم يكن الامر قاصرًا على زمن محدود، بل نرى هذه الالقاب تعطى للملوك من الأسر الثلاث التي انجبت آخري ملوك الروم : « الكمنينوس، والانجالوس،

وعندما كانوا يُخرجون التواقيع او البراءات لبطاركة الروم الملكية في مصر او في سوريا كانوا يضيفون اليها « وصيةً » للبطريرك يرشدونه فيها الى بعض واجباته، فيقولون له « واعلم بانك في المدَخل الى شريعتك طريقٌ الى الپاپ[1] ... » ولا يقولون ذلك لبطريرك الاقباط اليعاقبة بل يكتبون اليه « واعلم بانك في المدَخل الى شريعتك قَسيم الپاپ[2] ... »

فقول الملوك المسلمين لملك الروم انه « رضيّ البابا » وقولهم للبطاركة الروم الملكيين انهم « الطريق الى البابا »، وذلك في معرض المديح والاطراء، لم يكن اختراعاً من مخيّلة كتّاب الدواوين؛ بل لا بدَّ من ان له أصلاً في ما كان الملوك والبطاركة يتخذونه من القاب الشرف . ولو لم يكونوا يعتبرون هذه النعوت مُشرّفةً لهم لما كان كتّاب الدواوين يستعملونها في المكاتبات السياسية الرسمية واوامر التعيين في الوظائف . وان حدث احياناً ان يكون الملك او البطريرك المرسَلة الرسالةُ اليه منفصلاً عن الحبر الاعظم، فبقاء اللقب الدالّ على الاتحاد برهان على ان هذا الاتحاد كان قائماً في ما سبق . وهذا ما يهمُّنا اثباته في هذا البحث

٦

البطريركيات الملكية تحت الحكم العثماني

فتح السلطان العثماني سليم الاول سوريا ولبنان وفلسطين ومصر سنة ١٥١٦ وضمّها الى ممالكه الشاهانية . وكان من نتائج هذا الفتح ان النفوذ الادبي الذي كان للبطريرك القسطنطيني على البطريركيات الشرقية تأصّل وازداد فيها، على نحو ما حصل قبلاً في الامارات الاوربية التي اخضعها سيفُ آل عثمان . وكانت فائدة

والبالالوغس او البالالاوس » (كما سمّاهم القلقشندي)، اي أسرة كمنينس Comnène (ما بين ١٠٥٧ و ١١٨٥) واسرة أنجِلُس Ange (ما بين ١١٨٥ و ١٢٠٤) واسرة باليولوغس Paléologue (ما بين ١٢٥٩ و ١٤٥٣)

(١) صبح الاعشى، طبعة مصر سنة ١٩١٧، الجزء الحادي عشر، ص ٣٩٤ . هذا للبطريرك الاسكندري . ومثله للبطريرك الانطاكي داود الخوري الذي اتينا على ذكره في ص ١٠٥ من هذا الكتاب، في الحاشية (راجع الجزء الثاني عشر من صبح الاعشى، طبعة سنة ١٩١٨، ص ٤٢٦)

(٢) صبح الاعشى، الجزء الحادي عشر السابق ذكره، ص ٤٠٤

هذا النفوذ للعنصر اليوناني، فقد حاول في كل مكان ان يكتسب في الامور الدينية السلطة التي خسرها في الامور الدنيوية. وقد نجح في ذلك تمام النجاح في البطريركيتين الاسكندرية[1] والاورشليمية : لانه لم يكن في الاولى عند الفتح العثماني الا «النزر اليسير» من الملكيين (كما قال القلقشندي قبل ذلك بقرنٍ)؛ ولان العنصر اليوناني في الثانية كان افضل المساعدين على الاحتفاظ بالاماكن المقدسة والمعاهد الكنسية في فلسطين[2]. لذلك توالى تعيين بطاركة يونانيين على الكرسيين المذكورين حتى يومنا هذا. اما الكرسي الانطاكي فكان العنصر الوطني فيه كبيراً، فلم يتغلّب اليونان عليه تمام التغلُّب؛ ولذلك نرى فيه احياناً بطاركةً يونانيين، واحياناً بطاركةً سوريين من الناطقين بالضاد ولكنهم خاضعون للنفوذ القسطنطيني. وكان هذا النفوذ يعمل على إبعاد الملكيين عن رومة، ويتذرّع لذلك لدى السلطة العثمانية بمصالح الدولة نفسها، اذ ان الباباوات استمروا طويلاً يُنهِضون هِمم الشعوب الاوربية لمقاتلة الاتراك

ففي القرن السادس عشر نرى البطريرك الانطاكي يواكيم الرابع ابن الجمَّة يشارك الروم المنفصلين في مجامعهم بالقاهرة والقسطنطينية ويسافر الى روسيا وبولونيا لزيارة المحسنين الارثوذكسيين؛ والبطريرك الانطاكي يواكيم السادس يشارك البطريركية القسطنطينية في الابحاث الخاصة بانشاء بطريركية موسكو

وفي القرن السابع عشر قام على الكرسي الاسكندري ثلاثة بطاركة متشرّبين التعاليم الكلوينية وحاولوا ان يجرّوا الكنيسة الارثوذكسية في تيّار الاصلاح البروتستاني، وهم ملاتيوس پيغاس (١٥٩٢–١٦٠٢) وكيرلّس لوكاريس (١٦٠٢–١٦٢١) ومطروفانس كريتوپولس (١٦٣٦–١٦٣٩). وقد رأينا في ص ٧٦–٧٧ ما احدثه كيرلس لوكاريس من الشغب والاضطراب في الكنيسة الشرقية كلها. وقام بعد ذلك على الكرسي الاورشليمي ثلاثة بطاركة متشيّعين من التعاليم

(١) في مطلع الحكم العثماني بالقطر المصري، سنة ١٥٢٣، نرى البطريرك الاسكندري فيلوثاوس الثاني يرسل الى البابا ادريانُس السادس رسالةَ اتحاده مع الكرسي الرسولي. ولكنا ما عدنا رأينا مثل هذه العواطف فيما بعد

(٢) تألفت «اخوية القبر المقدس» في عهد البطريرك جرمانس (١٥٣٤ – ١٥٧٩) ولا يدخلها الا رهبان من العنصر اليوناني، ولا يُعيَّن في الوظيفة البطريركية والوظائف الاخرى الرئيسية الا اعضاء من تلك الاخوية

الارثوذكسية وعملوا على مكافحة المذهب البروتستاني . فالبطريرك ثاوفانس الرابع اشترك سنة ١٦٣٨ في المجمع القسطنطيني الذي حرم كيرلس لوكاريس؛ والبطريرك نكتاريوس نشر سنة ١٦٦١ صورة ايمانه مع صورة الايمان الارثوذكسي التي ألّفها بطرس موغيلا الشهير رئيس اساقفة كياف؛ والبطريرك ذوسيثاوس الثاني عقد سنة ١٦٧٢ مجمعاً في بيت لحم (ويُعرَف بمجمع اورشليم) وحرم فيه التعاليم البروتستانية . وهذا المجمع مشهور

واهمّ ما حصل في القرن الثامن عشر، من الوجهة الاتحادية التي نبحثها هنا، في البطريركية الاسكندرية، ان البطريرك صاموئيل كاباسيلاس (١٧١٠—١٧٢٤) كان على اتصال بالكرسي الرسولي وارسل اليه صورة ايمانٍ كاثوليكية . وقد خلفه البطريرك قزما الثاني (١٧٢٤ — ١٧٣٧) وكان هو ايضاً على اتصال بالبابا اكليمنضس الثاني عشر . وقد حصلت مفاوضة طويلة في سنة ١٧١٦ فيما بين الكنيسة الانكليكانية والبطريرك الاسكندري صاموئيل المشار اليه بشأن اتحاد الكنيستين[1] . على ان تمسُّك صاموئيل بجميع العقائد والتقاليد الارثوذكسية حال دون قبوله الانكليكان في شركته

ولكن حركة الاتحاد الكبرى حصلت في البطريركية الانطاكية . وبالنظر الى ما لها من الاهمية، نفرد لها الجزء الخاص التالي من هذا الفصل

٧

الروم الكاثوليك والروم الارثوذكس في البطريركيات الملكية

مهمّة الاب ليوناردو هابيل (١٥٨٣—١٥٨٧) وما بعدها الى سنة ١٦٤٧

كان الاب ليوناردو هابيل كاهناً مالطيًّا، عارفاً باللغتين العربية والسريانية، معروفاً ايضاً بعلمه وتقواه وفضائله . وقد اختاره البابا غريغوريوس الثالث عشر وأرسله مع راهبين يسوعيين الى سوريا ليسعى لدى بطاركتها في اعادة الاتحاد وفي حملهم على اتخاذ التقويم الغريغوري في كنائسهم

(١) ترى من ذلك ان مساعي الانكليكان للاتحاد مع الكنيسة الارثوذكسية ليست حديثة . فان اسقف لندن الانكليكاني الذي فاوض بطريرك الاسكندرية حاول ذلك منذ نحو ٢٥٠ سنة

وكانت البطريركية الانطاكية يتنازعها اذ ذاك بطريركان : ميخائيل السابع الذي كان مقيماً بحلب، ويواكيم الخامس الذي كان مقيماً بدمشق . فقدّم ليوناردو هابيل اوراق اعتماده للبطريرك يواكيم وترجمةً عربيةً من صكّ الاتحاد الذي تقرّر في مجمع فلورنسا وطلب منه الموافقة عليه . فأجاب انه يحتاج في ذلك الى استشارة البطريركين الاعلى مقاماً منه وهما الاسكندري والقسطنطيني، وحدّد للمندوب البابوي موعداً آخر للمقابلة في طرابلس . ولكن قبل حلول الموعد حملته حالةُ الضيق المالية التي كان فيها على السفر الى القسطنطينية وپولونيا لجمع الحسنات . حينئذٍ كتبت طائفة الروم في طرابلس كتاباً الى الحبر الاعظم (٢٦ ايلول سنة ١٥٨٤) يؤكدون فيه تعلّقهم بالكرسي الرسولي وحسن استعدادهم للاتحاد[1] . اما البطريرك ميخائيل الذي كان مقيماً بحلب فأحسن وفادة المندوب البابوي ورضي بطيبة نفس بالاتحاد المعروض عليه ووقّع صكًّا بذلك ووعد بالعمل على نشر الاتحاد في بطريركيته . ولكن المنية لم تدع له الوقت الكافي لتنفيذ رغبته اذ توفي سنة ١٥٩٣

ولم يحصل ما يستحق الذكر في موضوع الاتحاد في عهد البطاركة الذين جلسوا على الكرسي الانطاكي من سنة ١٥٩٣ الى ١٦٣٥[2]

وقد تعرّف ليوناردو هابيل مدة اقامته بحلب على القس ملاتيوس كرمة وهيّأه لقبول الاتحاد . وهذا القس هو الذي صار مطراناً على حلب سنة ١٦١٢ واشتغل بتنقيح الكتب الطقسية باللغة العربية[3] ثم صار بطريركاً سنة ١٦٣٥ باسم افثيميوس

---

(١) راجع نصّ هذه الرسالة في المجلّد الاول من الآثار الخطية Documents inédits التي نشرها الاب انطون رباط اليسوعي سنة ١٩١٠، ص ١٨٣ — ١٩٠

(٢) هؤلاء البطاركة هم : يواكيم السادس زيادة، وذوروثاوس الرابع، واثناسيوس الثاني دباس الذي حبسه باشا دمشق بسبب الجزية ومات في الحبس . وقام بعده اغناطيوس الثاني عطيّة الذي انتخبه الطرابلسيون وكيرلس الرابع دباس الذي عيّنهُ الكرسي القسطنطيني . فأمر الامير فخر الدين الثاني بعقد مجمع في رأس بعلبك سنة ١٦٢٧ للنظر في هذا الشقاق . فحكم المجمع بخلع كيرلس الرابع وقيل ان الامير قتله وقيل ان اغناطيوس نفسه قتله ثم طلب من كرسي رومة الرسولي الحلّ من هذه الجريمة . وعلى كل حال قد مات اغناطيوس غيلةً اذ قتله جماعة من الدروز سنة ١٦٣٤ بغير ان يعرفوه

(٣) راجع المسرة سنة ١٩١٣ (ص ٤١ و ٨١ و ١٣٥) وسنة ١٩٣٨ (ص ١٣٨)

الثاني وارسل الى رومة بعض تلك الكتب لطبعها على نفقة المجمع المقدس لنشر الايمان . وقد ارسل مندوباً من قبله الى رومة القِسّ باخوميوس لعقد الاتحاد معها . فعاد الرسول حاملاً صورة الايمان التي يجب على البطريرك توقيعها . ولكن عند وصوله اضطَرّ باشا دمشق البطريركَ افثيميوس الى الاستقالة لعدم امكانه دفع ما فرضه عليه من المال . فانسحب الى حلب في السنة ١٦٣٥ نفسها ورسم خليفته افثيميوس الثالث الصاقزي[1] (١٦٣٥–١٦٤٧) . وقد كتب الكرسي الرسولي الى البطريرك الجديد طالباً منه ارسال تلاميذ الى رومة . ولكن يظهر انه لم يكن ميّالاً الى الاتحاد، وهو يوناني الاصل متربٍّ بعقلية القسطنطينيين الانفصالية

مكاريوس الثالث (١٦٤٧–١٦٧٢) وخلفاؤه الى سنة ١٧٢٤

مكاريوس الثالث الزعيم من اهمّ بطاركة القرن السابع عشر . وقد سافر الى برّ الاناضول والقسطنطينية والبغدان والڤلاخ وپولونيا وروسيا (١٦٥٣ – ١٦٦٠) وجمع حسنات وافرة استعملها في ايفاء ديون البطريركية وبناء كنائسها ومعاهدها وإسكات جشع الحكام . وكان المرسلون اليسوعيون يعملون في سوريا على نشر الاتحاد، فكانوا يقدّرون عدد الروم الكاثوليكيين في دمشق وحدها بنحو سبعة آلاف . وفي سنة ١٦٦٢ كتب مكاريوس الى الحبر الاعظم في مسألة الاتحاد، وفي سنة ١٦٦٤ ارسل اليه صورة ايمانه الكاثوليكي . ولكنه لم يكن ثابتاً على سلوكٍ واحد . ففي سنة ١٦٦٦ سافر مرةً اخرى الى روسيا بناء على طلب القيصر الكسيس ميخائيلوڤتش للاشتراك مع البطريرك الاسكندري يواكيم الثاني في محاكمة نيكون بطريرك موسكو المتهم بإحداث تغييرات في الكتب الطقسية . وقد وافق على صورة الايمان الارثوذكسي التي ألّفها بطرس موغيلا رئيس اساقفة كياف واتخذ في عدّة احوالٍ موقفاً منافياً لموقف بطريركٍ كاثوليكي . لذلك اختلف المؤرخون في أمر عقيدته الحقيقية[2]، فانه كان « يعرج على الجنبين » لا بل كان اكثر ميلاً الى الانفصال منه الى الاتحاد

(١) نسبةً الى « صاقِس » او « صاقِز » وهو الاسم الذي يطلقه الاتراك على جزيرة « كيو » او « خيو » (Chio) احدى جزر الارخبيل اليوناني . ويقال في النسبة اليها « صاقزي » بحسب الصيغة العربية او « صاقزلي » بحسب الصيغة التركيّة

(٢) قال الاب قسطنطين الباشا المخلصي ان مكاريوس الزعيم كان كاثوليكيًّا (راجع « نخبة من

وبعد وفاته تنازع الكرسي ثلاثة بطاركة : ابنُ اخيه كيرلس الخامس الزعيم، الذي رشحه باشا دمشق وكان معاكساً للاتحاد؛ وناوفيطُس الصاقزي الذي عينته بطريركية القسطنطينية؛ واثناسيوس الثالث الدباس، الذي اعلن ايمانه الكاثوليكي وثبَّته كرسي رومة الرسولي سنة ١٦٨٧ في وظيفته. ولم يطل إدّعاء ناوفيطس؛ ولكن النزاع طال بين كيرلس واثناسيوس . واخيراً تنازل اثناسيوس عن البطريركية سنة ١٦٩٤ مكتفياً بابرشية حلب، ولكن البابا اينوكنتس الثاني عشر ألغى تنازله. واستمر الخصام الى ان توفي كيرلس سنة ١٧٢٠، فبقي اثناسيوس وحده الى حين وفاته سنة ١٧٢٤

في هذه الاثناء كان اكثر اساقفة الكرسي الانطاكي يرسلون الى رومة، واحداً بعد واحدٍ، صورة ايمانهم الكاثوليكي واتحادهم بالكرسي الرسولي، وذلك بواسطة المرسلين اليسوعيين او الكبوشيين : افثيميوس الصيفي[1] مطران صور وصيدا، سنة ١٦٨٤؛ واثناسيوس مطران حلب، ومكاريوس مطران طرابلس، سنة ١٦٩٨؛ وبرثانيوس مطران بعلبك، وسلفسترس دهان مطران بيروت، سنة ١٧٠١؛ وجراسيموس مطران صيدنايا، سنة ١٧١٦؛ وبرثانيوس مطران ديار بكر، سنة ١٧١٧ . ولكنهم كانوا مستمرين في الظاهر في شركة البطريرك كيرلس الخامس الزعيم الذي كان وحده يمارس السلطة خارجاً عن حلب . وكان يربط الكهنة الذين يعرف ميلهم الى الكثلكة . ولكنه انحاز اخيراً الى الاتحاد بواسطة قنصل فرنسا في صيدا، وارسل صورة ايمانه الكاثوليكي الى رومة صحبة القس سيرافيم طاناس، ابن اخت المطران افثيميوس الصيفي، سنة ١٧١٦ . وتوفي كاثوليكياً سنة ١٧٢٠ . — اما اثناسيوس الثالث الدباس، الذي رأينا ان الكرسي الرسولي كان ثبَّته في وظيفته

سفرة البطريرك مكاريوس الحلبي » التي نشرها في « المسرّة » ثم طبعها على حدةٍ في سنة ١٩١٢، ص ١١٩ الى ١٤٧) . وقد عارضه السيد حبيب زيات واثبت ان مكاريوس كان ارثوذكسياً (راجع « خزائن الكتب » المطبوع بالقاهرة سنة ١٩٠٢، ص ٢٠٠ — ٢٠٩؛ ومجلة « المشرق » سنة ١٩٣٢، ص ٥٦١ وص ٨٨١)

(١) في سنة ١٧٠١ اصدر الكرسي الرسولي امرًا سريًّا الى افثيميوس الصيفي، الذي كان من اعظم رسل الاتحاد في الشرق، عيّنه فيه مديرًا رسولياً للروم الكاثوليك في جميع الابرشيات التي لا يوجد فيها مطران كاثوليكي من طائفتهم

منذ سنة ١٦٨٧، فقد اخذ تثبيتاً جديداً من الكرسي القسطنطيني، واشترك سنة ١٧٢٢ مع خريصنثس الاورشليمي في منشور عرَضا فيه على الشعب الاعتراضات المضادّة للمذهب الكاثوليكي، واشترك مع سائر البطاركة الارثوذكسيين في تحريم كتابٍ نشره افثيميوس الصيفي دفاعاً عن الكثلكة، ونال فرماناً من السلطان احمد الثالث يمنع فيه الروم عن اتباع البابا . ولكنه رسم مع ذلك ثلاثة اساقفة كاثوليكيين ومات كاثوليكياً سنة ١٧٢٤

وفي هذه الفرصة لا يمكن السكوت عن الاعمال الرسولية التي قامت بها الرهبانيتان الملكيتان اللتان تأسستا في تلك الاثناء، اعني بهما الرهبانية الشويرية[1] سنة ١٦٩٧، والرهبانية المخلصية[2] سنة ١٧٠٨ . فعملت الاولى على نشر الاتحاد في النصف الشمالي من سوريا ولبنان، فيما كانت الثانية تعمل على نشره في النصف الجنوبي وساحل طرابلس واللاذقية وحوران وفلسطين . قال افثيميوس الصيفي في رسالة كتبها في سنة ١٧١٢ انه يقدّر عدد الذين ردّهم الى الكثلكة في ابرشيته بنحو ١٥ ٠٠٠ نفس وفي الابرشيات الاخرى بنحو ١٣ ٠٠٠ نفس[3] . وكانت غيرته تحمله على العمل ايضاً لردّ الكرج الى الاتحاد . وقد توفي سنة ١٧٢٢ بعرف القداسة[4] . وقد ترتّب على اعمال الرهبان المخلصيين الرسولية في ابرشيتي عكا

---

(١) سبب تأسيس دير القديس يوحنا الصابغ في الشوير هو ان بعض الرهبان الروم الذين في دير البلمند في جهة طرابلس رأوا انهم لا يستطيعون، وهم متحدون مع الكرسي الروماني، ان يعيشوا في دير البلمند الذي اكثر رهبانه منفصلون . فأتوا الى جهة الشوير والخنشارة وأسسوا ديرهم هناك

(٢) أسس هذه الرهبانية السعيد الذكر افثيميوس الصيفي، الذي مرّ ذكره غير مرّةٍ في هذه النبذة

(٣) ما عدا الروم الكاثوليك في دمشق وحلب، حيث ما كان ينقص عددهم عن ١٥ ٠٠٠ نفس ايضاً . ويمكن القول بوجه الاجمال ان الذين كانوا قد جاهروا رسمياً بالاتحاد مع رومة في دائرة البطريركية الانطاكية في ذلك الزمن قد بلغوا ٤٥ ٠٠٠ نفس

(٤) قد آخذ بعضهم افثيميوس الصيفي بالميل الى « الليتنة » وذلك خصوصاً بسبب ما ادخله من التعديل على القداس الالهي، من إبطال الابتهال الى الروح القدس عقب كلام التقديس (اي « الابيكليز ») وإبطال استعمال الماء الحار في الكأس قبل التناول (اي « الزاوُن ») . ولكن نية افثيميوس في هذا لم تكن التشبه باللاتين بل المحافظة على نقاء العقائد الصحيحة بحسب ظنه . لكن الكرسي الروماني لم يوافق على عمله والزمه ان يحافظ على الطقوس البيزنطية بحذافيرها

والناصرة ان الضرورة دعت الى اعتبارهما مفصولتين عن البطريركية الاورشليمية والى انشاء ابرشية كاثوليكية فيهما تابعة للبطريركية الانطاكية

الانقسام سنة ١٧٢٤

عقب وفاة اثناسيوس الثالث دباس في ٢٤ تموز الشرقي سنة ١٧٢٤، خشي ابناء الطائفة الدمشقيون الذين كانوا على الرأي الاتحادي ان تتدخل البطريركية القسطنطينية وتعيّن من عندها بطريركاً يونانياً منفصلاً . فبادروا وانتخبوا بطريركاً الخوري سيرافيم طاناس السابق ذكره الذي اتخذ اسم كيرلس السادس . وقد قام برسامته ناوفيطس نصري مطران صيدنايا وباسيليوس فينان مطران بانياس وافثيميوس فضل مطران الفرزل وكان ذلك في ٢٠ ايلول الشرقي سنة ١٧٢٤

ولكن البطريركية القسطنطينية قد بلغها خبر وفاة اثناسيوس الثالث في حينها، كما بلغتها شكوى من ابناء الطائفة الحلبيين الذين — مع كونهم كاثوليكيين — لم يرضوا بما اجراه اهل دمشق . فبادرت الى اختيار الشماس القبرسي سلفسترس بطريركاً على انطاكية؛ وقامت برسامته بطريركاً في العاصمة العثمانية في ٢٧ ايلول الشرقي سنة ١٧٢٤ اي بعد رسامة كيرلس طاناس باسبوع؛ وزوّدته فرماناً من السلطان احمد الثالث يبيح له الاستيلاء على البطريركية وإخضاع جميع مَن فيها من الروم لسلطته دون غيره والقاء القبض على كيرلس طاناس

جاء سلفسترس الى سوريا واستولى على الكنائس والاوقاف والمعاهد بسيف الدولة، ولكن البطريرك كيرلس السادس طاناس هرب من وجهه ولجأ الى بيتٍ بجوار ديره، دير المخلص؛ لان جبل لبنان كان بعيداً عن سلطة باشا دمشق . ومن هناك باشر وظيفته مدة ٣٥ سنة (١٧٢٤ — ١٧٥٩)، عاملاً على تنظيم كنيسته في وسط المصاعب المختلفة وانواع الاضطهاد . وقد ساعده ابناء طائفته الحلبيون والدمشقيون بمالهم وجاههم

ومن ذلك الحين صارت طائفة الروم الانطاكية طائفتين : الكاثوليك الذين تبعوا كيرلس السادس طاناس، والارثوذكس الذين تبعوا سلفسترس . ولما توفيا اقام اتباعهما خلفاً لكلٍّ منهما على مذهبه . وهكذا دام الانقسام حتى الآن

وقد حاول البطاركة والاساقفة الارثوذكسيون، مدةً تزيد على مئة وعشرين

سنة، ان يُخضعوا الكاثوليك لسلطانهم مستعملين لذلك جميع وسائل الضغط الروحي والزمني، كالحرم وقوّة الحكومة . وساعدهم على ذلك ان الدولة العثمانية لم تكن تعترف الا بطائفتهم ولا تمنح فرمانات الا لبطاركتهم واساقفتهم . فكان الروم الكاثوليك في دمشق وحلب وسائر المدن (ما عدا جبل لبنان) مضطرين الى الالتجاء اليهم كل مرة يحتاجون فيها الى اثبات زواجٍ او ميلادٍ او وفاةٍ، او الى اخذ تذكرة او شهادةٍ، او الى اية معاملة رسمية في احدى دوائر الحكومة. ودامت الحال على هذا المنوال الى ان انشأ السلطان محمود الثاني سنة ١٨٣١ وظيفة « بطريرك الكاثوليك[1] » في الاستانة العلية لجميع الطوائف الكاثوليكية؛ وصار يعطي فرمانات لبطاركتهم[2] واساقفتهم اسوةً بالارثوذكس. واخيراً استقلت الطوائف عن « بطريرك الكاثوليك »، هذا، واعترف الباب العالي بكل واحدة منها على حدةٍ. فنالت طائفة الروم الكاثوليك فرمان الاعتراف بها سنة ١٨٤٨

ولما كان الغرض من كتابنا هذا بيان المساعي الاتحادية والعمل على تقريب القلوب، لا نرى داعياً لان نذكر فيه شيئاً مما وقع في تلك الحقبة من حوادث الاضطهاد التي يؤسف لها . فهي مدوّنة في كتب التاريخ . واذا كنا نشير اليها هنا هذه الاشارة الخفيفة، فذلك لكي نذكر ان نعمة الاتحاد تستلزم احياناً تضحيات كثيرةً جسيمةً في المال والنفوس ايضاً

اما كيف امتدت سلطة بطريرك انطاكية على الروم الكاثوليك المقيمين بالبطريركيتين الاسكندرية والاورشليمية، فذلك ان الكرسي الرسولي قرر سنة ١٧٧٢ تكليف بطريرك انطاكية الادارة الروحية للروم الكاثوليك المقيمين بتينك البطريركيتين. وبعد ما نال مكسيموس الثالث مظلوم من الباب العالي فرمان سنة ١٨٣٧، منحه الحبر الاعظم سنة ١٨٣٨ ان يضيف الى لقبه « بطريرك انطاكية وسائر المشرق » لقبَ « بطريرك الاسكندرية واورشليم » ايضاً، فصار لقبه « بطريرك انطاكية والاسكندرية واورشليم وسائر المشرق[3] »

(١) لم يكن هذا « البطريرك » بطريركاً حقيقياً، بل كان كاهناً من طائفة الارمن، يقضي لدى الباب العالي حاجات كل الطوائف الكاثوليكية العثمانية

(٢) فرمان البطريرك مكسيموس الثالث مظلوم صدر سنة ١٨٣٧ وبهِ جُعِلَت ولايته المدنية شاملة جميع الممالك العثمانية

(٣) راجع « المسرّة » سنة ١٩٣٩، ص ٥٦٧

بطاركة الروم الكاثوليك من ١٧٢٤ حتى الآن

قد طال هذا الفصل كثيراً . ومع ذلك نعتقد ان القراء يودّون ان يروا فيه ولو جدولاً بسيطاً باسماء البطاركة الذين توارثوا الكرسي البطريركي من وقت الانفصال . فتزولاً على هذه الرغبة ندوّن هنا الجدول الآتي :

كيرلس السادس طاناس ١٧٢٤–١٧٥٩	اغناطيوس الخامس قطان ١٨١٦–١٨٣٣
مكسيموس الثاني حكيم ١٧٦٠–١٧٦١	مكسيموس الثالث مظلوم ١٨٣٣–١٨٥٥
ثاودوسيوس الخامس دهان ١٧٦١–١٧٨٨	اكليمنضس بجوث[1] ١٨٥٥–١٨٦٤
اثناسيوس الرابع جوهر ١٧٨٨–١٧٩٤	غريغوريوس الثاني يوسف سيور ١٨٦٤–١٨٩٧
كيرلس السابع سياج ١٧٩٤–١٧٩٦	بطرس الرابع الجريجيري ١٨٩٨–١٩٠٢
اغابيوس الثاني مطر ١٧٩٦–١٨١٢	كيرلس الثامن جحا ١٩٠٢–١٩١٦
اغناطيوس الرابع صروف ١٨١٢	ديمتريوس الاول قاضي ١٩١٩–١٩٢٥
اثناسيوس الخامس مطر ١٨١٣–١٨١٤	كيرلس التاسع المغبغب ١٩٢٥
مكاريوس الرابع طويل ١٨١٤–١٨١٥	المالك سعيداً

وللطائفة الان الابرشيات الآتية (بحسب ترتيبها في الذبتيخات) :

الابرشيات البطريركية : دمشق، القطر المصري، اورشليم

١٢ ابرشية : صور، حلب، بصرى وحوران، حمص وحماه وبيبرود، صيدا، بيروت، طرابلس، عكا، الفرزل وزحلة والبقاع، بانياس، بعلبك، عمان وشرق الاردن

وللطائفة ثلاث رهبانيات تنتمي الى قوانين القديس باسيليوس ولذلك يقال لها « باسيلية » وهي : الشويرية المؤسسة منذ سنة ١٦٩٧، والحلبية التي انفصلت عن الاولى سنة ١٨٢٩، والمخلصية المؤسسة منذ سنة ١٧٠٨ . ولكل من هذه الرهبانيات فرع نسائي

ويضاف اليها « جمعية المرسلين البولسيين » المؤسسة سنة ١٩٠٣، وجمعية راهبات مرسلات هي « رهبانية سيدة المعونة الدائمة » المؤسسة سنة ١٩٣٦

(١) بدأت الطائفة في زمانه (سنة ١٨٥٧) تتبع الحساب الغريغوري او الغربي بدلاً من الحساب اليولياني او الشرقي . وقد ترتب على ذلك اضطرابات في الطائفة وخروج بعض الاسر منها الى الطائفة الارثوذكسية

البطريرك مكسيموس الثالث مظلوم
١٨٣٣ — ١٨٥٥

البطريرك غريغوريوس الثاني يوسف سيور
١٨٦٤ — ١٨٩٧

البطريرك كيرلس التاسع المغبغب
انتُخب في ٩ ك ١ سنة ١٩٢٥

ويبلغ عدد الطائفة، بحسب احصاء[1] المجمع المقدس للكنيسة الشرقية المنشور سنة ١٩٣٢، ١٦٦ ٢١٤ نفساً[2]، منهم :

١٥٥ ١٥٠ مقيمين في دائرة البطريركية الملكية (انطاكية والاسكندرية واورشليم)

١٣ ٣٥٩ مقيمين في الولايات المتحدة الاميركية

٢ ٥٠٠ مقيمين في جهات اخرى

وفي السنة نفسها كان عدد كهنتهم العلمانيين ١٦٧، وعدد الرهبان ٣٧٥، وعدد المرسلين ١٢

استدراك مهم

لو كان قصدنا تأليف تاريخ كامل لمجمع فلورنسا ونتائجه، لوجب علينا ان نذكر هذه النتائج بالنسبة الى سائر الكنائس التي اشتركت فيه كما فعلنا بالنسبة الى كنيسة الروم، ولتعيّن علينا ان نصف ايضاً حالة الكنائس الشرقية المتحدة غير كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك التي خصّصناها ببحثٍ طويل . ولكن لما كان غرضنا البحث في مسألة اتحاد الروم فقط، فقد التزمنا ان نصرف النظر عن تلك الابحاث في هذا الكتاب

المراجع

ان المعلومات التي لم نُبيّن مصادرها في اسفل الصفحات السابقة هي بوجه الاجمال مأخوذة من المقالات المخصصة لكنيسة « الاسكندرية » ولكنيسة « انطاكية » في المجلدين ٢ و ٣ من « قاموس التاريخ والجغرافيا الكنسي »، ولكنيسة « اورشليم » في الجزء ١ من المجلد ٨ من « قاموس اللاهوت الكاثوليكي »

(1) Statistica della Gerarchia e dei Fedeli di Rito Orientale, Tipografia Vaticana, 1932.

(٢) يقابل هذا العددَ الاعدادُ التالية لطائفة الروم الارثوذكس (هذه الارقام مأخوذة من كتاب « الكنائس الشرقية البيزنطية » للاب الياس اندراوس البولسي، المطبوع سنة ١٩٣١، او من كتاب الاحصاء السابق الاشارة اليه) :

بطريركية الاسكندرية ١١٠٠٠٠ منهم ٩٠٠٠٠ يوناني واجانب آخرين

بطريركية انطاكية ٢١١٠٠٠ (الاجانب قليلون بينهم)

بطريركية اورشليم ٥٥٠٠٠ منهم نحو ٤٠٠ يوناني

٣٧٦ ٠٠٠

الفصل الحادي عشر

لماذا لم ينجح مجمع فلورنسا الّا نجاحاً ضئيلاً

رأينا في الفصول الاربعة السابقة ان عدداً لا يُستهان به من الباباوات والبطاركة والاساقفة والملوك ورجال الدول قد سعوا سعياً حثيثاً متواصلاً — قبل مجمع فلورنسا، وفي اثنائه، ومدة خمسة قرون بعده — لاجل الوصول الى اتحاد الكنيستين الشرقية والغربية . ورأينا ايضاً ان كل هذه المساعي العظيمة لم يكن لها من النتائج الا نزر يسير . فعدد الشرقيين ذوي الطقس البيزنطي المتحدين بالكرسي الروماني لا يتجاوز عشرة ملايين، فيما نرى سائر الارثوذكس الذين ما زالوا منفصلين عنه يُعدّون بعشرات الملايين . فلماذا خابت الآمال التي عُلِّقت على مجمع الاتحاد والتي عبَّر عنها بكل ابتهاج الصكُّ الموقّع في ٦ تموز سنة ١٤٣٩ ؟

ان لذلك اسباباً كثيرة سنراها في هذا الفصل . ولا شكَّ في ان هناك تفاوتاً في الاهمية بين هذه الاسباب، اي انه لم يكن لكل واحد منها التأثير نفسه الذي كان لغيره . على اننا في سردها لم نرتّبها بحسب اهميتها، ولا نقصد منها تقدير المسؤوليات وتوزيعها . ونعتقد مبدئيًّا ان مسؤولية كل عمل تقع على عاتق الذي عمله؛ فالمسؤول في نهاية الامر عن الانفصال هو الذي انفصل . ولكن الانفصال ليس عملاً بسيطاً مُكوَّناً من مجرد فعل إراديّ، بل هو فعلٌ قد رافقَتْه ولابسَتْهُ احوال كثيرة مختلفة — نفسية وثقافية ووطنية وسياسية واقتصادية — وكانت هذه الاحوالُ عوامل شديدة التأثير في الافكار والقلوب، يصعب جداً لا بل يستحيل معرفة ما احدثه كلٌّ منها على حدةٍ من التأثير في الفعل الارادي الاخير الذي نتجت منه حالة الانفصال

على كل حال، لا فائدة في تعيين المسؤولين وتقدير مسؤولية كل فريق؛ لان ذلك يوغر الصدور بلا جدوى . فاذا كنّا نذكر هنا اسباب الانفصال فانما نفعل ذلك كبحث تاريخي ناظرين الى الامور في حدّ ذاتها، على أمل ان يكون لهذا البحث من الاثر ما يحمل كلَّ واحدٍ على تجنُّب الوقوع من جديد في مثل تلك المزالق

أ – حالة الغرب المسيحي

قد اعتدنا، نحن الكاثوليك العصريين، ان نرى الترتيب الفائق، والنظام التام، واعمال المحبة والغيرة المسيحيـة، وتقدُّم العلوم والتهذيب، وامثلة الفضائل المختلفة، والنفوذ الادبي العظيم، وغير ذلك من الصفات السامية التي تزّين الكنيسة الغربية في زماننا الحاضر؛ فصار يُخيّلُ الينا ان هـذه الحالة قد كانت هكذا منذ القدم؛ وصرنا ننسى الاحوال السيئة التي مرَّ بها الغرب المسيحي مدّة اجيال في بعض حقبات التاريخ . فاذا نظرنا الى حالته في القرن الخامس عشر الذي عُقد فيه مجمع فلورنسا، نرى ان هذه الحالة لم تكن مما يساعد على نموّ فكرة الاتحاد، لا من وجهة الاعتقاد، ولا من وجهة التهذيب الكنسي، ولا من وجهة فهم الطقوس، ولا من وجهة سلوك الامراء

١ – من وجهة الاعتقاد : في الوقت الذي كانت فيه كنيسة رومة تدعو الشرق الى الاتحاد معها تحت رئاسة الحبر الاعظم، ظهرت في الغرب بدعةٌ جديدة ضلّلت الرأي العام في ما يخصّ الرئاسة في الكنيسة . فانقسم الغرب على نفسه وراح قسمٌ كبير من اباء مجمع بال يقولون بان الرئاسة الكنسية العليـا هي للمجمع المسكوني، وان سلطتهم هي فوق سلطة البابا، وقد حكموا بخلعه وحرموه، واقاموا حبراً اعظم غيره، وحاولوا ان يجلبوا الشرق اليهم . وقد رأينا في هذا الداعي ان الشرق قد اعطى الغربيين درساً رائعاً في فَهم الاتحاد، اذ عمل على جلبهم الى الخضوع للبابا ورفض الى النهاية ان يوافق على قراراتهم[1]

٢ – من وجهة التهذيب الكنسي : ان الإخلال بالانظمـة والترتيبات الكنسية كان امراً سائداً في الغرب، وقد دعا الباباواتُ الى عقد مجامع متعددة « لاجل اصلاح الرأس والاعضاء » . ويكفي الاطلاع على قرارات تلك المجامع لمعرفة درجة الانحطاط التي كانت اخلاق الاكليريكيين وعامّة الشعب قد وصلت اليها

واذا كنا نعتب على الكنيسة الشرقية فقدَها الاستقلال وخضوعها للسلطات الزمنية ، فهل كان الغرب المسيحي في ذلك الزمان يستطيع ان يقدّم لها مثالاً صالحاً

(١) راجع ص ٥١

في استقلال الكنيسة ؟ ان مجمع بال الذي كان منعقداً تحت نظر اباء فلورنسا الشرقيين دليل ظاهر على سيطرة الامراء الزمنيين في اوربا على مقدّرات الكنيسة؛ وكل الصعوبات السياسية التي نهكت السلطةَ البابوية نفسها، ما هي الا دليلٌ آخر على قيام تلك الحالة في رومة ايضاً

٣ — من وجهة فهم الطقوس : قد اظهر الشرقيون في مجادلاتهم الدينية مع الغربيين قلّة استعدادٍ لفهم التطوّر الذي آلت اليه العوائد الليترجية والطقوس في الكنيسة اللاتينية . ولكن الغربيين ما كانوا يفوقونهم في فهم العوائد والطقوس الشرقية . مع ان تلك العوائد في هـذه وتلك مؤسسة على التقليد الصحيح والحياة المسيحية الحقة ؛ ولكنها نمَت في كل كنيسة نموًّا ملائماً للجوّ الديني الذي كانت تستعمل فيه

٤ — من وجهة سلوك الامراء : ما هي الامثال الصالحة في التديُّن التي كان الغرب حينئذٍ يستطيع ان يقدمها للشرقيين من بين ملوكه وامرائه ؟ انهم كانوا بعيدين كل البعد عن روح التجرُّد، وما كانوا يعملون الا لمصالحهم الخاصّة غير ملتفتين الى خير الكنيسة . فحملاتهم الصليبية نفسها فقدت الروح السامية وقصدَ التوبة والنية الحسنة في انقاذ الاراضي المقدسة، واصبحت نوعاً مما نسميه اليوم الحروب الاستعمارية والتجارية

٢ً — حالة الكرسي الرسولي

لما وصل نوّاب الحبشة الى مجمع فلورنسا ووجّه زعيمهم خطابه الى البابا اجّانيوس الرابع، قال في ما قاله : « ان انقطاعنا وابتعادنا عن كرسيكم ليس عن سوء اعتقادٍ ولا عن طيش، ولكن بسبب طول المسافة بين البلدين، واخطار السفر، واهمال الاحبار الرومانيين السابقين . فاهالي بلادنا لا يذكرون ان راعياً قبلكم اهتمّ بزيارة ذلك العدد العظيم من خرفان يسوع المسيح؛ والشائع عندنا انه منذ ثمان مئة سنة لم يفكِّر حبرٌ روماني باهداء سلامه الينا ولو بكلمة واحدة »

قال روهرباخر[1] : « ان في خطاب سفير الحبشة امراً يستحق ان يتدبّره رعاة

(١) المجلد ٢١ من تاريخه ، ص ٥٦٥ . — في بعض الاحيان، يظهر تاريخ روهرباخر اليوم عتيقاً وكأن وقته قد مضى، بسبب ظهور التواريخ الحديثة والابحاث العصرية المبنية على اكتشاف مصادر جديدة في بعض المسائل ووثائق لم تكن معروفة . ولكن اكثر ملاحظاته حافظةٌ قيمتها وقوّتها؛ منها الملاحظة المدرَجة في المتن

الكنيسة الأعلون بكل انتباه : امّةٌ من الامم البعيدة تشكو . الحبشة تشكو من ان الاحبار الرومانيين منذ قرون طويلة لم يزوروها ولم يسلّموا عليها لا بواسطة مندوبين ولا بالرسائل . ان هذا لتونيبٌ شديد للباباوات والكرادلة وغيرهم من الكبراء الذين لاجل مصالحهم الوطنية او العائلية لا لاجل مصلحة الكنيسة نقلوا الكرسي الرسولي من رومة الى فرنسا، وسبّبوا انشقاق الغرب الكبير، ومشاهد مجمع بال التي يؤسف لها؛ وهكذا هيّأوا السبيل لثورة لوثر وكلوين، وجعلوا النصرانية تنسى الشعوب الجالسة في الظلمة وظلال الموت كالصين وبلاد التتار والهند التي كانت في زمنٍ ما قد فتحت عيونها للنور . ففي اليوم الاخير، يقول الديان « كنتُ مريضاً ومحبوساً ولم تأتوا اليّ . الحقّ اقول لكم انكم كل مرة اهملتم فعل ذلك لاصغر اخوتي، فقد رفضتم فعله لي » . فاذا كان المسيح يقول هذا القول لمن ينسى احد الافراد او يهمله او يتركه، فما عسى ان يقول لمن ينساه تعالى او يهمله او يتركه في خورنيةٍ او في ابرشية او في امّةٍ بأسرها ! ان دينونة الرؤساء ستكون قاسية »

فالامر الذي اراد روهرباخر ان يقوله هو ان جزءاً من المسؤولية في حالة التباعد بين الكنائس واقع على عاتق الرئاسة العليا في الكنيسة . فان الدرجة السامية من الكمال في ترتيب الادارة الكنسية وتنظيم الحياة المسيحية التي نراها اليوم في الكنيسة الكاثوليكية لم تكن في كل حينٍ هكذا في الماضي؛ فلا يصحّ ان نتخذ الحالة الحاضرة قياساً للحكم على الحوادث الماضية، بل يجب ان نتحاشى عن ذلك عندما نحكم على الاشخاص او نحدّد مسؤولياتهم، سواء كانوا شرقيين ام غربيين

على ان هذه المسؤولية، التي يمكن في بعض الاحيان تعيين الاشخاص الواقعة عليهم، ليست في احيانٍ اخرى الا نتيجة حوادث لا يستطيع المرء تحديد المسؤولين عنها . مثال ذلك : خلو الكرسي الرسولي من بابا يشغله مدةً طويلة على اثر انشقاق كيرولاريوس[1]، او تعاقب عدّة باباوات على الكرسي في مدة وجيزة[2]، او وفاة الاشخاص المنوط بهم تدبير الامور في احرج الاوقات مما كان يدعو الى اعادة المسألة من اولها في جوّ معاكس[3]، وغير ذلك من الاحوال المضادة التي تسمح العناية الالهية بها قصاصاً لنا على خطايانا

(١) ص ٢١ (٢) ص ٣٩ (٣) ص ٣٤

٣ – المعارضة الشعبية العنيفة للاتحاد في الشرق

ما هي العناصر التي تكوّنت منها تلك المعارضة الشديدة التي ابداها الشعب اليوناني ضد الاتحاد مع اللاتين ؟

١ – اوّلها الاوهام الخاطئة والاحكام الباطلة التي كانت عالقة في ذهن الشرقيين بالنسبة الى الغربيين، والتي كان يقابلها اوهام الغربيين واحكامهم الباطلة بالنسبة الى الشرقيين، في المسائل الدينية وفي المسائل الوطنية والجنسية. فكان كل فريق يظنّ الشرّ وسوء النيّة وفساد العقيدة واقبح الرذائل في الفريق الآخر. ولكن ضررها العظيم في الشرق اتى من كون الزعماء الشعبيين والرهبان والبسطاء من رجال الاكليرس كانوا يرسّخونها في ذهن العامّة حتى تأصّلت في نفوسهم[1]

٢ – زد عليها الاحقاد الكامنة في صدور البيزنطيين منذ اعتداء الافرنج على ممالكهم والاستيلاء على عاصمتهم واقامة مملكة لاتينية على انقاض مملكتهم، والادعاء باخضاع بطاركة الروم واساقفتهم للاكليرس اللاتيني، ونهب كنائسهم وبيوتهم ومعاهدهم. فان هذه الحوادث، ولو كان قد مضى عليها وقت طويل عند انعقاد مجمع فلورنسا، لم تكن قد نُسيت

٣ – علاوةً على الاوهام والاحقاد، كانت هناك مصالح مادية ووطنية متنافرة. فان الحروب وخسارة الاقاليم كانت قد اضنت مملكة الروم وافقرتها، فصاروا مضطرين الى الاستدانة بالربا الفاحش من الجمهوريات التجارية التي كانت قائمة في ايطاليا كالبندقية وجنوى. فصارت العلاقة بين الافرنج والقسطنطينية كعلاقة الدائن الجشع والمدين العاجز. ولا يخفى ما في ذلك من تنافر المصالح والكراهة النفسية، ولاسيما ان تلك العلاقة لم يكن يلطّفها الشعور الديني، لا بل كانت بعيدةً عنه

كل هذه العناصر قد تألّبت وتجسّمت في شعور الشعب البيزنطي. وقد وُجدَ

---

(١) قال احد الكهنة : عندما توفي البابا لاون الثالث عشر، وكنتُ صغير السن، سمعتُ اخوتنا الروم الارثوذكس يقولون « مات الذي يعبده الكاثوليك ». واخيرًا قال لاحد الكهنة زملائي رجلٌ متعلّم من الارثوذكس : « كيف ترضون بمشاركة اللاتين وهم قوم يعبدون العذراء ! » – ومثل هذه الاوهام والاحكام الباطلة كثير. ولا يتورّع بعضهم من القاء هذا الكلام واكثر منه في مواعظهم الدينية في الكنائس نفسها !

بين كبار الاكليرس وعامة الرهبان من عرف ان يستغلّ هذه العواطف التي ما كانت تنتظر الا الحال الملائم للظهور . فنتج منها تلك المعارضة العنيفة التي ما كان من قوة تستطيع الوقوف في وجهها

٤ً – ضعف الدفاع عن نظرية الاتحاد

في تاريخ المجامع، تأليف هفله ولكلرك (الجزء ٢ من المجلد السابع، ص ١٢٢٨ وما يليها)، نرى حاشيةً جزيلة الاهمية لا نرى بدًّا من تلخيصها هنا لبيان الاسباب التي من اجلها لم يقتنع الروم عامةً بالادلة التي كان يقدمها دعاة الاتحاد لتأييد نظريتهم :

قيل ان نجاح المعارضة التي قامت ضد الاتحاد متأتٍّ من الكتابات التي نشرها زعماء المعارضة بين جمهور الشعب وشحنوها بالمطاعن والاعتبارات التي تذكي نار البغضاء الوطنية في صدور الروم وتحملهم على كراهة اللاتين . – ان هذا القول صحيح ولكنه ناقص . اذ انه يجب ان نعترف بالضعف الواضح الذي اظهره الكتّاب المدافعون عن الاتحاد؛ واذا اردنا ان نذكر اسماءهم لا نجد مَن يستحق الذكر منهم الا بسّاريون وعددًا زهيداً من الرجال المتوسطي الكفاية الذين بضاعتهم العلمية لا تكاد تكفي لمجرد الردّ على الاعتراضات

ان ما تركه اللاتينُ وارباب السياسة الرومانية من التذكارات في الشرق لم يكن من شأنه ان يُحبّبهم الى الروم . والصدق والامانة والوفاء، التي كان الغربيون يشكون من انعدامها عند اليونان، لم تكن من الفضائل الظاهرة عند الافرنج . فبناءً عليه، كان يجب على الذين قد أتوا يدعون الى الاتحاد ويزعمون انه ضروري والزامي، ان يقدموا من الادلة على وجوبه ما ينقض الادلّة المقدمة على انكاره؛ ويبينوا من حسناته ما يدحض اسباب الكره له . والحال ان الكتبة الذين دافعوا عن الاتحاد لم يستطيعوا ذلك؛ وكانت ادلّتهم عادةً قاصرةً على ايراد نصوص من الاباء والعلماء السابقين، وعلى شتم المعارضين والاستهزاء بهم . فالمعارضون كانوا هم ايضاً يوردون النصوص الكثيرة من الاباء والعلماء السابقين؛ وفي مسألة الشتم والاستهزاء، كانوا اكثر مهارةً وأبعد طعناً من محبّذي الاتحاد

وكان اللاتين يزعمون انهم هم وحدهم الارثوذكسيون المستقيمو الرأي؛

فكان هذا الزعم يثير غيظ الروم الذين يزعمون هم ايضاً ان الارثوذكسية محصورة فيهم. — ولكن ما كان يعيل اصطبار الروم ادعاء اللاتين التفوّق عليهم في التهذيبات الكنسية والمحافظة عليها؛ في حين ان المعاصرين لمجمع فلورنسا ما كان عليهم الا ان يلقوا نظرةً على ما حولهم ليتحققوا ان حالة العزوبة في الاكليرس الغربي لم تكن فضيلةً، وان حالة الزواج في الاكليرس الشرقي لم تكن دليلًا على الانحطاط. — زد على ذلك ان الالوف من الرهبان والكهنة وافراد الشعب كانوا يجهلون كل شيء عن الكنيسة الرومانية وتعاليمها. — فبناءً على هذه الاعتبارات، كانوا ينظرون الى الاقتراح المعروض عليهم بان يتحدوا بالكنيسة الرومانية كأنه اهانة موجّهة اليهم، او كفرٌ بالدين الصحيح، او خيانة لكنيستهم وأمّتهم. ولم يوجد مَن يثبت لهم انهم في ذلك مخطئون

٥ً — سياسة الاغراض الخاصة

اتحاد الكنائس عملٌ روحي من الاعمال الفائقة الطبيعة التي لا تنجح ولا تستمرّ الا اذا كانت النعمة الالهية هي العامل الاساسي فيها، وكان شغل الانسان فيها خالصاً لوجه الله الكريم مُجرَّداً على قدر الامكان من الاغراض البشرية. فالبارئ تعالى لا يرفض نعمته لمن يعمل على تحقيق ارادته المقدسة؛ ولكن الاغراض افسدت النعمة في عمل المجمع الفلورنسي. وهذه الاغراض نجدها عند الفريقين[1]:

١ — عند الشرقيين: لا يخفى ان ما حدا الملك يوحنا الثامن ورجال دولته على طلب الاتحاد هو نفس ما كان في الماضي يحدو الملوك السابقين على مثل هذا الطلب، اي الخوف من استيلاء الاتراك على القسطنطينية والامل بالحصول على نجدة الغربيين لمحاربتهم. فكان الاتحاد في نظرهم وسيلةً للحصول على هذه النجدة. ولذلك نرى صكَّ الاتحاد الكنسي المعلَن في ٦ تموز سنة ١٤٣٩ مسبوقاً بمعاهدة سياسية عسكرية بين الملك والبابا بتاريخ اول حزيران من تلك السنة[2]

ورجال الكنيسة الشرقية ايضاً لم يكونوا كلهم متجرّدين من الاغراض.

(١) اكثر ما في هذه النبذة من الاعتبارات مأخوذ من حاشية هفلـه وكلرك المشار اليها في النبذة السابقة (الجزء ٢ من المجلد ٧، ص ١٢٢٨ وما يليها)

(٢) راجع ص ٥١ — ٥٢

فالاقتناع الحقيقي الباطن بوجوب الاتحاد كان يعوزهم، وبعض الذين وقّعوا صكّ الاتحاد انما فعلوا مسايرةً للملك او تحت تأثيره . ولما عادوا الى الشرق خافوا من هياج الشعب عليهم وفَقدِ مراكزهم، فسرعان ما غيّروا رأيهم . وبدلاً من ان يعملوا على إثارة رعاياهم ساروا في التيار، لا بل ارادوا ان يبالغوا في هذا السير ليكفِّروا في نظر الشعب عن توقيعهم صكّ الاتحاد

٢ — عند الغربيين: ان المجهود العظيم الذي بذله الغربيون لإنجاح مجمع الاتحاد لم يكن في نظر جميعهم عملاً تقويًّا فقط بعيداً عن الغايات الزمنية . فكان بعض اباء فلورنسا اللاتين يرمون من ورائه الى الفوز على اباء مجمع بال والافتخار عليهم بانهم نالوا من الروم ما لم يستطيعوا هم الوصول اليه . ففي نظرهم كان الاتحاد وسيلةً للحصول على مجدٍ لحزبهم ونفوذٍ يقهرون به الحزب الآخر

وبعد ذلك، هل يمكن تبرير السياسة التي اتخذتها الدوائر الرومانية تجاه مملكة الروم لما التجأ قسطنطين الحادي عشر ذراغاسيس الى البابا تقولا الخامس لمساعدته على محمد الثاني[1] ؟ فكان رجال تلك الدوائر منقسمين الى رأيين: قال بعضهم بوجوب الاسراع الى اعانة الروم ولو كانوا منفصلين؛ لان المحبة المسيحية، والامل في الاتحاد فيما بعد، ومصلحة الدفاع عن النصرانية، وامجاد مملكة بيزنطية القديمة، كل ذلك يقضي على الملوك والامراء والاساقفة الغربيين ان يبادروا الى ابداء تضامنهم الاخوي مع الروم في الحالة الحرجة التي اصبحوا فيها . ولكن الرأي الذي تغلّب في النهاية كان رأي المتطرفين الذين قالوا ان هجوم العثمانيين على القسطنطينية هو القصاص العدل الذي اوقعه الله بالروم المذنبين لرفضهم التوبة . فكأن اصحاب هذا الرأي احبُّوا ان يشمتوا بعدوٍّ ... فهل كان يمكن بعد ذلك ان الروم، الذين قُهروا على أمرهم ورأوا شماتة بعض اللاتين بهم، يقبلون بطيبة نفسٍ اقتراحات الاتحاد التي قدّمها لهم فيما بعد اولئك الذين خذلوهم في حين الشدة ؟

٦ً — الحالة السياسية العامة

لا يمكن فهم مجمع فلورنسا ولا ما صادفه من قلّة النجاح في تطبيق قراراته

(١) راجع ص ٧١

الا اذا استعرض المرء الحالة السياسية العامّة اولاً في العهد الذي التأم المجمع فيه، ثم على اثر سقوط القسطنطينية

١ — ففي سنة ١٤٣٩ كانت مملكة الروم مقصورة على مدينة القسطنطينية وعلى قسم من بلاد اليونان الحالية (شبه جزيرة البيلوپونيز) . وكان الاتراك كل يوم يضيقون الخناق عليها ويضيفون نصراً الى نصرٍ في بلاد البلقان؛ حتى اضحت تلك المملكة التاريخية المجيدة كتابعةٍ لسلاطين بني عثمان، تعيش لانهم يأذنون لها في الحياة . وكانت خزينة الدولة قد آلت الى الخراب، والاسرة المالكة في حالة فقرٍ حقيقي، والدائنون من تجار البندقية وجنوى يشدّدون على المملكة المديونة وامرائها بمساعدة حكومتيهم اللتين ما كانتا تنظران الا الى مصالحهما المادية غاضّتين الطرف عن مصالح النصرانية

وكانت الاسرة المالكة تشعر بالخطر العظيم المحدق بدولتهم، وتفهم بأن لا وسيلة للخلاص الا بما يأتيهم من المساعدة على يد بابا رومة لاسبابٍ دينية . ولذلك كانوا مُتهالكين على الرجوع الى الاتحاد . ولكن الملك لم يكن له من الانصار في هذا الامر الا نفر قليل من ذوي البصيرة، ولم يكن مالكاً زمام امر الاساقفة والرهبان وجمهور الشعب المخالفين له . ثم ان سائر البطريركيات، اي الاسكندرية والانطاكية والاورشليمية، التي كان يمكن ان يكون لها شيء من التأثير في هذه القضية، لم تكن شديدة الميل الى الاتحاد بسبب التذكارات السيئة التي خلّفها الصليبيون واللاتين في تلك البلاد وبسبب الرقابة التي كانت السلطات الاسلامية تقوم بها على البطاركة خشيةً من اتصالهم بالبابا وبملوك الغرب . ولذلك لم يعمل هؤلاء البطاركة على حمل الروم على الانحياز الى رأي ملكهم

وفي هذه الغضون كانت الحالة الدينية في اوربا الغربية على ما وصفناه سابقاً، من احتياجها الى « اصلاح في الرأس والاعضاء » كما كانوا يقولون[1] . وكانت الاضطرابات قائمة في المانيا، والحرب المعروفة بحرب المئة سنة ناشبة بين فرنسا وانكلترا، فيما كانت الجمهوريات التجارية الايطالية منهمكة بكسب الاموال وتكديس الارباح

(١) مما يدلّ على الروح السيئة التي وصل اليها البعض ان بطريرك انطاكية اللاتيني قام في مجمع بال بصفة كونه خليفة القديس بطرس على الكرسي الانطاكي وصار ينازع البابا على لقب « الحبر الاعظم » الذي تلقّبه به النصرانية

فكل تلك الاحوال لم يكن من شأنها حمل المسيحيين على الاهتمام بأمر الاتحاد

٢ — على اثر سقوط القسطنطينية في يد الاتراك سنة ١٤٥٣، زادت الحالة سوءاً بالنسبة الى إمكان الاتحاد. فقد رأينا[1] ان سلاطين آل عثمان وطّدوا مركز البطريرك القسطنطيني، واقاموه رئيساً على ملّة النصارى في ممالكهم، ووسّعوا دائرة سلطته كلما وسّعوا دائرة مملكتهم شمالاً (حتى بلغوا ابواب ڤينا سنة ١٦٨٣) وجنوباً (حينما ضموا بلاد الشرق العربي كله الى ممالكهم في القرن السادس عشر). فعرف البطريرك القسطنطيني في ظلّهم نفوذاً لم يكن يحلم بمثله من قبل، واصبح له من السلطة على سائر البطريركيات اكثر جداً مما كان له في عهد ملوك الروم النصارى. فصارت مصلحته ومصلحة امّته تشير عليه بالبقاء بعيداً عن مركز الاتحاد. وكان ذلك موافقاً ايضاً لمصلحة الدولة العثمانية التي كانت تخشى نفوذ الباباوات كما سبق البيان[2]

٧ً — سياسة الدولة الروسية

مما زاد في اسباب التباعد ظهور الامبراطورية الروسية على مسرح السياسة الدينية، ودعواها بانها وارثة رومة والقسطنطينية («موسكو رومة الثالثة»)، وانتشار نفوذها الذي كان يعمل على بقاء الانفصال في الشرق. وقد جاء قيام دولة القياصرة هذه حين سقطت دولة الروم

فهم الذين خربوا في كياف وسائر أكرانيا الاتحاد الذي عمله ايسيذورس رئيس اساقفتها. وبعدما انشأوا بطريركية موسكو وضعوا يدهم عليها وكان تسلطهم على الكنيسة اشدّ وطأةً من ايّ تسلُّطٍ سابق كان لملكٍ من ملوك الروم[3]. وقد أعلنوا انفسهم «حُماة الارثوذكسية»؛ وبهذه الصفة اضطهدوا الكثلكة في ممالكهم الواسعة بأساليب مختلفة؛ وعملوا في بلاد البلقان ايضاً على مقاومة الميل الى الاتحاد؛ واجتهدوا في نشر نفوذهم على القسطنطينية نفسها وعلى ديورة جبل آثوس، ولاسيما على البطريركيتين الانطاكية والاورشليمية، عاملين في كل مكان ضد الاتحاد

(١) ص ٧٣

(٢) ص ٧٤

(٣) من المعروف انهم كانوا يعزلون البطاركة الذين اظهروا ميلًا الى الاستقلال عنهم (كالبطريرك نيكون في القرن السابع عشر) واخيرًا الغوا البطريركية وألّفوا سينودساً يأتمر بأمر «وكيلٍ» علمانيٍّ يعينه القيصر. وبقي الحال على هذا المنوال الى سنة ١٩١٧

ومما ساعد الروس على الاستمرار في هذه السياسة انهم لم يحتاجوا يوماً الى البابا في التماس عونه الماديّ او الادبي، كما كان روم القسطنطينية . وقد جاء تضخُّم مملكة القياصرة في وقت تضاءلت فيه سلطة الحبر الاعظم المعنويّة في بلاد النصرانية؛ فما شعروا بضرورة الاتصال به، ولا سعوا الى ذلك سعياً جديًّا، ولا دخلوا معه في مفاوضةٍ طويلة بقصد الاتحاد

وكان مثلُهم قدوةً لسائر الشعوب الارثوذكسية بصفة كونهم « الاخ الاكبر » . ويكفي لفهم ذلك القاء نظرة على الجدول الاحصائي الآتي المأخوذ من المصادر الحديثة :

١٨٥ ٠٠٠ ٠٠٠ مجموع عدد المؤمنين التابعين للكنائس الشرقية غير الكاثوليكية

٧ ٠٠٠ ٠٠٠ طرح عدد المؤمنين غير ابناء الكنيسة الارثوذكسية : يعاقبة الخ

١٧٨ ٠٠٠ ٠٠٠ عدد الارثوذكس

١٣٥ ٠٠٠ ٠٠٠ منهم : روسيون تابعون للكنيسة الروسية الرسمية ١١٥ ٠٠٠ ٠٠٠

روسيون تابعون للكنائس الروسية المنشقة عن الكنيسة الرسمية (رَسكول) ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠

٤٣ ٠٠٠ ٠٠٠ سائر الارثوذكس : رومانيا والصرب والبلغار واليونان الخ

فتأثير المئة والخمسة والثلاثين مليوناً من الروس الارثوذكس لا بدّ ان يكون ذا قيمة على الامم الاخرى الاقلّ عدداً . وكلهم يحسبون حسابها . ومن الاسباب التي لاجلها عدلوا اخيراً عن عقد مجمع عام ارثوذكسي، ان الكنيسة الروسية لا تستطيع الآن الاشتراك فيه اشتراكاً لائقاً . فمثل هذا الاعتبار ليس دليلًا على المحبة الاخوية فقط بل هو دليل ايضاً على النفوذ العظيم الذي لتلك الكتلة الارثوذكسية الضخمة على سائر الارثوذكس . ولما كان هذا النفوذ معاكساً لروح الاتحاد، فلا عجب من ان نرى بقية الشعوب الشرقية تسير في تيّاره

٨ً – المسؤوليات الكاثوليكية

لدى استعراضنا الاسباب السابقة التي من أجلها لم يصادف الاتحاد الفلورنسي نجاحاً يُذكر قد اشرنا الى ما يعود من المسؤولية فيها الى الشرقيين وما يجب ان يتحمّله الغربيون ايضاً . ولما كان اكثر قرّاء كتابنا هذا من الكاثوليك، احببنا ان يكون

فحص ضميرنا كاملاً واعترافنا باخطائنا تاماً لكي ندرك بقدر الامكان مدى مسؤوليتنا ونعمل ما في وسعنا على اصلاح ذواتنا وتقويم سياستنا . وعلى اخوتنا الارثوذكس ان يفعلوا هم ايضاً الشيء نفسه؛ فالجميع في حاجة حقيقية الى تنقية النيّة وتصفية القلب والاعتراف بالذنب

ان الاخطاء والمسؤوليّات مُوزّعة : من اعلى درجات السلطة الى اصغر طبقات الشعب، يوجد مَن لم يفقه الاتحاد وشروطه . نعم، ان بعض الكرادلة والاساقفة وبعض الباباوات انفسهم والمؤرخين الكنسيين والكتبة الكاثوليك قد اساءوا فهم الاتحاد وشروطه واساليبه، واجتهدوا في تحقيق الاتحاد الذي تصوّروه وبالطرق التي تصوّروها . وان كثيرين من مرسلي الاتحاد، مع ما اتصفوا به من الغيرة والاخلاص، لم يدركوا حقيقة الغرض الذي عملوا او يعملون لاجله؛ فاعتبروا عمل الاتحاد « فتحاً » و « نصراً » بدلاً من ان يعتبروه تآخياً وتصادقاً قلبياً واندماجاً فكرياً . وان كثيرين من الشعب، حتى المتنوّرين منهم، غلطوا ويغلطون في فهم الانفصال والاتحاد؛ فإما انهم لا يعيرون المسألة ادنى اهمية مفضّلين ان يتجاهلوها، وإما انهم يتصرّفون فيها تصرفاً خالياً من الفطنة او من المحبّة

كل هذه النقائص والاخطاء انما هي نتيجة الضعف البشري . ويجب ان يكون تاريخُ الماضي عبرةً لنا لاجل المستقبل . ولكن ما يشدّد الامل هو ما يُلاحظ في المسلك العام الرسمي الذي سلكته الكنيسة الكاثوليكية الرسمية، برغم اغلاط بعض ممثليها وعيوب بعض ابنائها، وهذا المسلك هو :

— ان لها في الاتحاد فكرةً نظريةً ثابتة، اساسها الحقيقة التي قد اوحى بها السيد المسيح

— ان لها في الاتحاد رغبةً اكيدة ثابتة، مؤسسة على المحبة الاخوية في المسيح

— انها في كل الازمان عملت على تحقيق الاتحاد، متخذةً لذلك من الوسائل ما كانت تراه ملائماً للاحوال

— انها بوجه العموم اظهرت من رحابة الصدر واتساع الفكر كلَّ ما يمكن اظهاره لتحقيق الاتحاد نظرياً وعملياً بشرط ان لا تُمسّ قواعد الايمان

وان البابا اجانيوس الرابع، بابا مجمع فلورنسا، يبقى في التاريخ مثالاً سامياً للراعي الصالح العامل على توحيد القطيع

الفصل الثاني عشر

في معالجة معضلة الاتحاد

هل هذه المعضلة موجودة ؟

يجب ان يكون المرء اعمى لكي لا يرى انّ رغبة المسيحيين اليوم في اتحاد كنائسهم هي اهمّ معضلة تشغل قلوبهم وعقولهم

كل كنيسة لها مشاغلها وهمومها الخاصّة . فهذه واقعة تحت سيف الاضطهاد، وتلك تحت نير الاستعباد؛ هذه مضطرّة الى مكافحة المادية واللادينية، وتلك الى مقاومة عوامل الانحلال الداخلية؛ هذه مهتمّة بتجديد الحياة المسيحية في شعبها، وتلك بنشر الدين المسيحي بين الامم؛ الخ . ولكنها كلها — مهما كانت مشاغلها واهدافها الخاصة — تشعر بان العمل الجوهري المطلوب منها والذي بتحقيقه تتحقّق سائر الغايات، انما هو اتحاد الكنائس

هذا هو همُّ الكنيسة الكاثوليكية وموضوع اجتهادها المتواصل منذ وقوع الانفصال . فانها تأبى ان تتعزّى او تأخذ لنفسها راحةً ما دام هناك كنيسةٌ منفصلة عنها

هذا هو همُّ الكنائس الارثوذكسية ايضاً . فقد قام فيها ملوك وبطاركة واساقفة وعلماء وافراد من الشعب في ازمنة وامكنة مختلفة يبحثون المعضلة ويقترحون لها الحلول

هذا هو همُّ الكنائس البروتستانية في عصرنا الحاضر . فانهم بقدر ما عملوا في بدء امرهم على العزلة والانفراد للجماعات وللافراد صاروا اليوم يعملون على التقارب والاتحاد . وما لنا الا ان نلقي نظرةً على « الحركة المسكونية »[1] وما تقوم به جماعات « الحياة والعمل » و « الايمان والنظام » من الاعمال التي قلبت افكار الكثيرين رأساً على عقب، لكي يتجسّم لدينا مقدار الاهتمام الذي تبذله الكنائس البروتستانية لبلوغ حلٍّ لهذه المعضلة

---

(١) راجع ص ٨٠

البابا بندكتس الخامس عشر (١٩١٤ ـ ١٩٢٢)

البابا بيوس الحادي عشر (١٩٢٢ ـ ١٩٣٩)

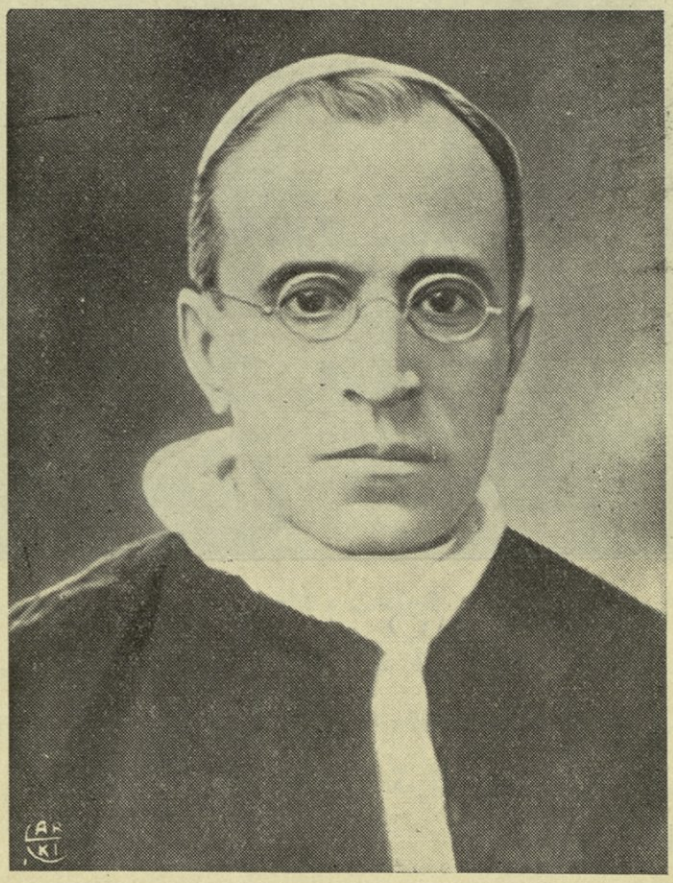

البابا بيوس الثاني عشر المالك سعيداً منذ ٢ اذار ١٩٣٩

وقد تجاوز هذا الاهتمام دائرة الكنائس المسيحية . واصبحنا في عصر نجد فيه جميع مَن يؤمنون بالله، ولو كانوا من اديان مختلفة، يجتهدون في التعارف والتقارب[1] . على ان هذه الحركة الاخيرة لا تزال في بدئها، ولا يمكن التكهُّن بما ستؤُول اليه

فالمعضلة اذن لا شكَّ في كونها باقية . ولم يُكتَب في عصرٍ قدرُ ما كُتبَ في هذا القرن العشرين في موضوع اتحاد الكنائس . ففي كل اللغات وفي كل البلاد قام المفكِّرون من اكليريكيين وعلمانيين من كل المذاهب المسيحية يعالجون هـذا الموضوع

عناصر المعضلة وكيفية بحثها

ليست المعضلة قائمةً بمجرّد وجود طقوس متعدّدة وانظمة كنائسية متعددة . فمثل هذا « التعدُّد » في الامور العرضية امرٌ طبيعي لا يمنع الوحدة . بل انما المعضلة قائمة « بالتعارُض » بين الكنائس في بعض التعاليم الجوهرية . ولما كان السيد المسيح قد أسّس كنيسةً واحدةً — وهذه حقيقةٌ ايمانية يقول بها جميعُ المسيحيين — فالحالة الحاضرة، التي نرى فيها عدّة كنائس متعارضة منفصلة بعضها عن بعض، هي بلا شك مخالفة لارادة السيّد المسيح

فبناء عليه ليس الانفصال متأتياً عن ارادة الله . لانه لو كان الامر كذلك لوجب ان ينشأ عنه تمجيدٌ لاسمه تعالى وخيرٌ للنفوس وللبشرية وارتفاعٌ لشأن كنيسة المسيح . فهل يمكن ان يقول احدٌ ان الانفصالات التي وقعت في الكنيسة احدثت مثلَ هذه النتائج ؟

فان لم يكن الانفصال من فعل الله وتدبير عنايته، فهو اذن من عمل البشر، واسبابُه بشرية . فهو اذن نتيجة الخطيئة، خطيئـة المسيحيين، لانهم هم الذين احدثوه، ولاسيما بعض الرؤساء الكنسيين فانهم هم الذين رفعوا علَمَ الانفصالات . اما الشعب فقد تبع رعاته

واذا كان الانفصال من عمل البشر، فهناك اذن مسؤوليات بشرية يبحثها علماء التاريخ . وقد حاولنا في الفصول السابقة إظهار بعض تلك المسؤوليات، ولم نُخفِ

(١) راجع ما جاء في « المسرّة » (جزء تشرين الاول سنة ١٩٣٩، ص ٥٨٢) بشأن « مؤتمر المعتقدات »

نصيبنا منهـا نحن الكاثوليك لكي لا نُتَّهم باصطناع التاريخ، ولأَن الكنيسة ليست في حاجةٍ الى الكذب لتبرهن على حقيقتها[1]

على انه ليس من المفيـد، من الوجهة الاتحادية، ان نستقصي حوادث التاريخ بقصدِ ايجاد اسبابٍ تبرّر سلوك البعض، وتسوّد في الوقت نفسه صفحة غيرهم . لكنّ ما ينبغي البحث عنه في الحوادث الغابرة هو العناصر التي يمكن ان تكون اليوم اساساً لاعادة الوحدة المنفصمة

***

ما طرأ من التغيير على الحالة الدينية والمدنية في الكنائس المسيحية

فلنبحث الآن على ضوء الحالة الحاضرة الاسبابَ البشرية التي نشأَ عنها الانقسام. ولننظر في التغييرات العظيمة التي طرأت على جميع الكنائس في حالتها الدينية والمدنية من عهد الانقسام حتى الآن

١ ــ كنيسة رومة

مُنيت كنيسة رومة، في القرن الذي عقب مجمع فلورنسا، بمصاب أليم جدًّا، ألا وهو ظهور الاصلاح البروتستاني الذي سلخ عنها بلاداً برّمتها مع عشرات الملايين من ابنائها الغربيين . ولو كان ابتعادهم عنها شبيهاً بانفصال كنيستي الروم واللاتين لهان الامر، اذن لبقِيَ اقلّه اساس الايمان واحداً، وحياةُ الاسرار واحدةً . ولكنه ابتعاد ينطوي على إنكار كل ما يُعتبر اساساً جوهريًّا في كنيسةٍ تقليديةٍ، كاثوليكيةً كانت ام ارثوذكسية

وقد رأينا ان اصلاح الكنيسة الداخلي او « اصلاح الرأس والاعضاء » كان الشغل الشاغل للكنيسة مدة قرون طويلة[2] . ولكن الاحوال السياسية والاجتماعية

---

(١) عيب على المرء ان يكشف اخطاء ابائهِ ويبيّن في كل فرصةٍ عيوبهم امام الناس . ولكن الاخطاء والعيوب المعروفة في التاريخ والتي ينشأ عن الاعتراف بها بكلّ بساطةٍ خيرٌ كبير للقريب وتقريبٌ للقلوب المتباعدة، فلا بأس من الجهر بها حين الاقتضاء . ولاسيما اذا كان لتلك الاخطاء والعيوب البشرية من الاسباب والاحوال ما يفسّر وجودها ويخفّف مسؤولية اصحابها . ولا يمنع في مقابلها من إظهار فضائلهم وحسناتهم التي كانت تفوق نقائصهم

(٢) راجع مجمع ليون، ص ٣٧؛ ومجمع قسطنسة، ص ٤٨؛ ومجمع بال وفلورنسا، ص ٥٠؛ الخ

وامتزاج السياسة في الدين والمطامع البشرية حالت دون اجراء ذلك الاصلاح على الوجه الذي كانت ترغب فيه النفوس التقية . فبإزاء استمرار الخلل لا عجب اذا رأينا الشعوب تجري بسهولةٍ وراءَ الذين ثاروا في القرن السادس عشر على السلطة الدينية الكاثوليكية، منادين بالاصلاح على حسب ما تصوّروه هم، لا على حسب ما يجب ان يكون؛ سواء كانوا من رجال الاكليرس ام من الامراء والملوك الذين تذرّعوا بحركة الاصلاح لكي يرضوا مطامعهم ويستولوا على اموال الكنيسة ويضمّوا ممتلكاتها الى ارزاقهم

هزّت حركةُ الاصلاح البروتستاني الكنيسة الكاثوليكية هزّاً عنيفاً جدّاً . على ان الاصلاح الصحيح قد قامت به الكنيسة نفسها في هذا القرن السادس عشر نفسه، وذلك بواسطة « المجمع التريدنتيني[1] » الشهير؛ وسهرت بعنايةٍ على تنفيذ قراراته، ولا يزال حتى الآن ديوانٌ كبير من دواوين الفاتيكان يعمل على مراقبة ذلك التنفيذ[2]

ثم انهزّت الكنيسة الكاثوليكية هزّاتٍ اخرى ليس بعضها اقلّ عنفاً من هزّة الاصلاح البروتستاني . منها الثورة الفرنسية الكبرى سنة ١٧٨٩ وما تبعها في القرن التاسع عشر من الثورات والاضطهاد الديني الشديد في سائر اوربا واميركا وفي رومة نفسها؛ ومنها اخيراً استيلاء ڤيكتور عمانوئيل الثاني سنة ١٨٧٠ على رومة وجعلها عاصمةً للمملكة الايطالية الموحّدة

فاذا نظرنا اليوم بعين التجرّد عن الهوى والغرض الى كنيسة رومة بوجه الاجمال نستطيع ان نقول انها قد تلألأت في عصورٍ خلتْ بالصفات الروحية الدينية وايضاً بصفاتٍ زمنية كانت احياناً تكسف الاولى، كالعزّ والسلطان والغنى والنفوذ . اما الآن وقد اصلحت نفسها وزالت سلطتها الزمنية، فيمكن القول انها لم تتلألأ في اي عصر من العصور الغابرة بمثل ما تتلألأ به اليوم من اللمعان في عناصرها الدينية المحضة

---

(١) نسبةً الى تريدنته Tridente (وبالفرنسي Trente) وهي اليوم مدينة ايطالية في اقليم فنيسيا منذ سنة ١٩١٩ ويبلغ عدد سكانها ٦٢ الفاً . وكانت قبلاً مع اقليمها المعروف بالتيرول تابعةً للنمسا او المانيا . وقد عقد المجمع فيها من سنة ١٥٤٥ الى سنة ١٥٦٣

(٢) يُسمّى « ديوان المجمع » Sacrée Congrégation du Concile

١ — فالسلطة العليا فيها قد تجرّدت في علاقاتها مع الدول من كل الاغراض الزمنية التي كانت في الماضي تلهم رجال سياستها، وتقودهم احياناً الى اتباع خطةٍ مضرّة بمصالح هذه او تلك من الكنائس او الامم . وتجرّدت من تلك الاغراض في نظامها الداخلي ايضاً؛ فلم يعد كرسي رومة الرسولي يطالب اليوم بالاقاليم التي كوّنت الدولة البابوية مدّةَ مئاتٍ من السنين، حتى ولا بمدينة رومة نفسها، بل اكتفى في المعاهدة اللاترانية سنة ١٩٢٩ بأقلّ ما يمكن من المساحة الارضية ليمارس فيها باستقلالٍ سلطته الروحية

٢ — ولم يعد اليوم في حضن الكنيسة الكاثوليكية مَن يقاوم السلطة الروحية الكاملة التي للحبر الاعظم، على نحو ما كان في مجمع بال[1]، او على نحو المذاهب التي قامت في القرنين السابع عشر والثامن عشر تُخضع السلطة الروحية للسلطة الزمنية[2] . بل صار ابناء الكنيسة الكاثوليكية جمعاء يحفظون في نفوسهم عواطف بنوية خالصة للبابا ويقبلون كلامه بكل احترام . وحتى خارج الكنيسة الكاثوليكية، كلُّ المفكرين وقادة الشعوب يعتبرونه كأعظم سلطةٍ روحية لحراسة النظام الادبي في العالم

٣ — اما اكليرس الكنيسة الكاثوليكية في عصرنا، فقد بلغ في مجموعه درجةً سامية من القيمة الادبية والعقلية والرعائية . وفي قولنا هذا لا نقصد بلداً معيناً بل ننظر الى مجموع البلاد . فالعلوم الالهية والبشرية واسمى الفضائل المسيحية والانسانية والمحافظة على الكرامة الشخصية، نراها مجسَّمةً وموزّعة بين رجال هذا الاكليرس من اعلى درجاته الى ادناها . وهناك الرهبانيات العديدة، الكهنوتية وغير الكهنوتية، وكلها معقل العلم والتقى والغيرة . وهناك جمهور الشعب المهذَّب على المبادئ الصحيحة والاخلاق الحميدة، المدرك بالعموم لواجباته لله وللكنيسة وللوطن، والذي تخرج منه تلك النخبة المشار اليها، ويقوم بكل المبرّات الاجتماعية والخيرية والثقافية التي يزدان بها العالم المتمدّن وغير المتمدّن

---

(١) راجع ص ٥١ و ٥٣ و ١٣٢

(٢) هي مذاهب رجال القانون والسياسة المعروفة بوجهٍ عامٍّ باسم Régalisme (نسبة الى الملوك)؛ والتي منها مذهب الـ Gallicanisme (نسبةً الى ما ادّعاه ملوك فرنسا من الامتيازات لكنيستهم)، ومذهب الـ Joséphisme (نسبةً الى امبراطور المانيا يوسف الثاني الذي ذهب بعيداً في تطبيق مزاعم الدولة تجاه الكنيسة)، الخ

٤ – واخيراً لا يستطيع الناظر الى الكنيسة الكاثوليكية إلّا ان يلاحظ كثرة اعمالها الرسولية واتساعها . فمرسلوها يجوبون اقطار العالم شمالاً وجنوباً من القطب الى القطب وشرقاً وغرباً من اقصى الارض الى اقصاها، عائشين بين الشعوب المرسَلين اليها، مبشِّرين بشريعة الانجيل الامم الجالسة في الظلمة وظلال الموت، وهادين العالم بمثالهم ومحبتهم الى الطريق القويم

٢ – الكنائس الشرقية

قد طرأ على حالة الكنائس الشرقية تغييرات عظيمة ايضاً . على انه لم يحدث فيها ما حدث في الغرب من جهة الاصلاح البروتستاني، رغم ما حاوله البروتستان في القرنين السابع عشر والثامن عشر . فقد كسبوا الى جانبهم بعض بطاركة الاسكندرية ولاسيما كيرلس لوكاريس الذي جلس بعد ذلك سبع مرات على الكرسي القسطنطيني[1] . ولكنهم باءوا بالفشل في مشروعهم، وبقيت الارثوذكسية بوجه الاجمال مصونةً فلم تفتِّت شيعُ الاصلاح كتلتها[2] . ومع ذلك طرأ عليها من الطوارئ الاخرى ما عدَّل احوالها، فلم تعد الآن كما كانت في عهد المجمع الفلورنسي

١ – « فالكنيسة العظمى »، اي كنيسة القسطنطينية، اضحت اليوم من اصغر الكنائس الارثوذكسية بالنسبة الى عدد التابعين لها . فقد كانوا يُعدُّون بالملايين؛ ولكن بعد انشاء الكنائس الوطنية المستقلّة في الصرب سنة ١٣٧٥، وروسيا سنة ١٥٩٢، واليونان سنة ١٨٥٠، وبلغاريا سنة ١٨٧٠، ورومانيا سنة ١٨٨٥، واستونيا وفنلندا وتشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٢٣، وپولونيا سنة ١٩٢٤، والبانيا سنة ١٩٣٧، الخ[3]، لم يبقَ من اولادها الا نحو ثلاث مئة الف نفس محصورين اكثرهم في اسطنبول،

(١) راجع ص ٧٦ وص ١١٤ وص ١١٥

(٢) كُنّا نتمنّى ان نقول ذلك على وجه الاطلاق . لكن الحالة الراهنة تضطرنا الى القول ان الروح البروتستاني أخذ يَتَسرَّب بين بعض الكبار من رجال الدين ولاسيما الذين درسوا في كليات اللاهوت الالمانية، وكذلك بين طبقات الشعب الذين يربّون اولادهم في معاهد البروتستان

(٣) التواريخ المذكورة في المتن هي السنون التي صدرت فيها الصكوك (او « توموس ») من بطريركية القسطنطينية بالاعتراف باستقلال تلك الكنائس – ما عدا كنيسة البلغار التي لم تعترف بها البطريركية بل الحكومة العثمانية بفرمانٍ همايوني . – وفي الواقع شهرت تلك

والباقون في سائر تركيا . هذا ولا يوجد بين تلك الكنائس المستقلّة العديدة الا الرباط الروحي الناتج من وحدة الايمان والتهذيب والطقس والاشتراك في الحياة المسيحية . على ان كنيسة القسطنطينية تُعتبَر الاولى بينها في الكرامة؛ ولها بعض امتيازات خاصة محفوظة بمقتضى التقاليد او رعايةً لبعض المصالح . وهي تعتبر نفسها مسؤولةً عن الكنائس الاخرى في الاحوال المهمّة التي تستدعي التدُّخل . اما في الواقع فالكنائس الاخرى تارةً تعاملها على هذا الاساس، وتارةً ترفض كلَّ تدُّخلٍ منها ولو طفيفاً

٢ — على ان الامر المهمّ في حالة الكرسي القسطنطيني الجديدة هو انه اصبح مستقلًّا عن كل سلطةٍ مدنية . فالسلاطين العثمانيون الذين عقبوا ملوك الروم على عرش بيزنطية ورثوا عنهم سياستهم في حماية الكنيسة والتسلُّط عليها، لا بل الاستبداد بها . ولكن الحكم القائم اليوم في الجمهورية التركية قد بالغَ في النعرة العلمانية حتى لم يعد يريد التدُّخل في الامور المذهبية، لا بل ما عاد يريد ان يعرفها . وقد الزم خدَمة الاديان بخلع ملابسهم وشاراتهم الخاصّة وبالارتداء بملابس العوامّ . وهكذا ترك بطاركة القسطنطينية وشأنهم احراراً في ادارة امور كنيستهم؛ ولا يطلب منهم الا ان يكونوا رعايا مخلصين لدولتهم التركية

٣ — ولكن، اذا استقلوا عن سلطة الدولة، فهل استقلوا ايضاً عن سياسة « الفكرة الكبرى » اليونانية ؟ « الفكرة الكبرى » هي الرغبة الحارّة الكامنة في صدر كلّ من يسري في عروقه دمٌ إغريقي بأن تعود يوماً القسطنطينية الى يدهم، فيعيدوا اليها امجاد الملوك البيزنطيين المسيحيين في قصورها وكنائسها ولاسيما في آجيا صوفيا . ومن المعروف ان الاكليرس اليوناني كان من اهمّ العناصر العاملة على حفظ هذه الفكرة السامية . فلما انتهت الحرب الكبرى السابقة (١٩١٤ — ١٩١٨) واحتلّ الحلفاء القسطنطينية ظنّ اليونان ان الزمان قد حان لتحقيق « الفكرة الكبرى » وتظاهر رومُ العاصمة بذلك ولاسيما البطريرك ملاتيوس ميتكساكي .

الكنائس استقلالها قبل تواريخ الصكوك المشار اليها (الصرب سنة ١٣٤٦، وروسيا سنة ١٥٨٩، واليونان سنة ١٨٣٣، والبلغار سنة ١٨٦٠، ورومانيا سنة ١٨٦٥، والبانيا سنة ١٩٢٢ . وهناك كنائس اخرى استقلّت عن البطريركية القسطنطينية، لم نعثر على تواريخ الصكوك الخاصّة بها، كليتوانيا ولتُونيا والجزر الاثنتي عشرة (دوديكانيز)

ثم نشبت الحرب اليونانية العثمانية، ولكنها انتهت بانهزام الروم وقيام حكومة مصطفى كمال اتاتورك وطرد البطريرك المذكور من كرسيه . ولما توطدت الحكومة التركية الجديدة رأت الدولة اليونانية من العبث التشبُّث بالآمال والاحلام الذهبية . فعقدوا مع اعداء الامس محالفةً تنطوي على عدولهم عملياً عن « الفكرة الكبرى » (قلَّما يكون الآن والى غير أجلٍ)

فبإزاء هذه الحالة، هل يمكن القول ان بطاركة القسطنطينية الذين يجب حتماً الآن ان يكونوا من رعايا الجمهورية التركية الحالية، يفكِّرون او يستطيعون التفكير في العمل على احياء او تحقيق « الفكرة الكبرى » ؟ نرجّح انهم، مهما كانت عواطفهم القلبية الخاصة، قد تحرّروا اليوم من هذه السياسة الجنسية؛ وبذلك نالوا استقلالاً أوفر للعمل في دائرة سلطتهم الروحية

فهذه التغييرات الثلاثة — ايّ تضييق دائرة الاقاليم التابعة للبطريركية القسطنطينية، واستقلال هذه البطريركية عن الحكم المدني التركي، وتحررها المذكور من السياسة الجنسية — عوامل مهمَّة تؤثر في الحالة الروحية للكرسي الاول بين الكراسي الارثوذكسية فيما اذا اراد اليوم ان يبحث معضلة الاتحاد بين الكنيستين الشرقية والغربية

٤ — ولنحوّل نظرنا عن القسطنطينية الى اكبر كنيسةٍ ارثوذكسية، اعني كنيسة روسيا، « الشقيقة الكبرى » لسائر الكنائس الارثوذكسية . فماذا نرى فيها ؟

نرى ان السلطة المدنية التي انشأتها وتسلَّطت عليها قروناً طويلة قد انتبذتها جانباً بعنفٍ لا مثيل له منذ تسلَّم البلشفيك الحكمَ في البلاد؛ وبذا استقلَّت الكنيسة عن الدولة وأعادت الى نظامها المنصبَ البطريركي سنة ١٩١٧ مع البطريرك تيخون . ولكن الدولة اضطهدتها بقساوةٍ بكل طرق الاضطهاد، في اشخاص رعاتها ومؤمنيها على السواء وفي حياتها المسيحية . فسفكُ الدم وانواعُ التعذيب والتنكيل والسجنُ والنفي والتخريبُ والمصادرة والتشريد ومنعُ التعليم الديني وحرمانها حقوقَ الانسان الاوليَّة وفرضُ الضرائب الباهظة والغرامات الثقيلة وامتهان الدين وإفسادُ الاخلاق ونشرُ الكفر بالله وكل ما يمكن ان يتصوّره ابليس من الشرور، كل ذلك قد لحق بالكنيسة الروسية في الخمس والعشرين سنةً الاخيرة . فلا عجب اذا كان كثير من اولادها اضطروا الى هجر كل عقيدةٍ وعبادةٍ ظاهرة،

او اذا كان بنوهم وبناتهم يتربّون الآن في بيئةٍ خليعةٍ من كل دينٍ وأدب

وقد نشأ عن هذا الاضطهاد ثلاث نتائج جزيلة الاهمية بالنسبة الى الاتحاد وهي :

(ا) ان الآلام التي تعانيها الكنيسة الروسية، والتي تجعلها تتشبه بآلام السيد المسيح، قد انشأت فيها من الفضائل السامية والبطولة المسيحية والقداسة الحقيقية ما لا يزال شهداؤها العديدون يظهرونه كلَّ يومٍ للعالم المتعجّب اجمع

(ب) ان الاضطهاد شمل جميع الاديان . فالكنيسة الكاثوليكية في روسيا لم تكن اقلَّ حظًّا من الكنيسة الارثوذكسية في العذاب لاجل المسيح، فالاستشهاد كان نصيبها هي ايضاً . واذا حكمنا بحسب الظاهر يجب ان نقول انها اضمحلّت من روسيا . ولكن الثورة ادخلت في البلاد حرّية الاعتقاد . والكنيسة الكاثوليكية تعتبر هذا المبدأ اساساً لاعمالها الرسولية لانها تستطيع بواسطته ان تعرض عقيدتها على وجهٍ صحيح للذين يبتعدون عنها لانهم يجهلونها او لا يعرفون عنها الا معلوماتٍ مشوَّهةً بالاوهام والاباطيل

(ج) ان الاحوال اضطرت عدداً عظيماً من الروس ان يهجروا بلادهم في مطلع الحكم البلشفي ويتشتتوا في جميع البلاد . فترى جالياتهم بكثرةٍ في فرنسا وانكلترا وبلجيكا والمانيا وايطاليا والولايات المتحدة والصين ومنشوريا الخ . ولما كان فيهم كثيرون من اهل الفضل والادب والعلم في امور الدين والدنيا، فقد انشأوا لأنفسهم المعاهد اللاهوتية الارثوذكسية في الغرب (كمعهد باريس) والشرق الاقصى (كمعهد خربين) . وفي كل هذه البلاد تعرّفوا بالكنائس الاخرى التي ما كانوا يعرفون عنها شيئاً يُذكَر، وعرّفوها بكنيستهم التي كانت تلك الكنائس تجهلها تقريباً، واشتركوا بنشاطٍ في « الحركة المسكونية »؛ فأنشأوا من العلاقات الروحية وتبادل المعرفة ما يمكن اعتباره ركناً من اركان التقارب، فان التقارب لا يكون الا بعد التعارف

٥ — اما سائر الكنائس الارثوذكسية الكبرى — رومانيا والصرب واليونان والبلغار — فلا نستطيع في هذا الكتاب الوجيز بحث حالة كلٍّ منها بالنسبة الى الاتحاد . فنكتفي بابداء الملاحظات العامة الآتية التي تنطبق عليها جميعاً مع تفاوتٍ يختلف بحسب احوال كلٍّ منها : اولاً انها بوجه الاجمال قد ورثت عن امّها

كنيسة القسطنطينية بُغضَ اللاتين وكراهة الاتحاد بالكرسي الروماني . — ثانياً انها « كنائس وطنية » تابعة للحكم المدني، وهي بوجه العموم تسير في تيّار السياسة التي عليها الحكومات القائمة في البلاد؛ فالتأثير متبادَل منها على الحكومة، ومن الحكومة عليها . لكنّ الملاحَظ عند كثيرين من اللاهوتيين واصحاب المسؤولية في ادارة النفوس ان الرعاة الكنسيين يجتهدون بقدر الامكان في ان يتحرّروا من السلطان الزمني . وقد اشتركوا في المؤتمر الذي عقدته جماعة « الحياة والعمل » في أكسفورد سنة ١٩٣٧ والذي بحث وقرّر في ما قرره من المبادئ قاعدة تفوُّق الكنيسة على الدولة[1] . — ثالثاً انها جميعها سائرة في « الحركة المسكونية » التي ترمي الى اتحاد الكنائس ولاسيما مع الانكليكان وبعض المذاهب البروتستانية؛ وان موقفها الرسمي في اجتماعات هذه الحركة كان حتى الآن بعيداً عن شائبة التساهل في العقائد الايمانية، ويمكن القول ان تصريحات مندوبيها الرسمية هي تصريحات « كاثوليكية » . — رابعاً ان في جميع الكنائس الارثوذكسية فرعاً كاثوليكيًّا يحمل لواء الاتحاد مع المحافظة على التهذيبات والطقوس الشرقية، آملًا ان يكون الصلة لاجراء الاتحاد العظيم في الوقت الذي يمنّ الله تعالى به على كنيسته الواحدة[2]

***

في ما يدعو الى الاتحاد

بعد هذا الاستعراض الذي قدّمناه للاحوال الحاضرة في الكنيستين الشرقية والغربية، والذي يبدو منه بجلاء التغيير الذي طرأ عليهما من عهد المجمع الفلورنسي، يتراءى لنا ان « الاسباب البشرية » للانفصال قد زالت الآن او انها في سبيل الزوال

(١) راجع « المسرة »، جزء ك ٢ (يناير) سنة ١٩٣٨، ص ١—٤ . وقد بحث مؤتمر اللاهوت الارثوذكسي في اثينا هذا الموضوع سنة ١٩٣٦ وانشطرت الاراء بشأنه : راجع « المسرّة » جزء نيسان (ابريل) سنة ١٩٣٧، ص ٢٢٩

(٢) لكي يكون بحثنا هذا كاملاً كان يجب ان نخصّص جزءًا منه لدرس حالة الكنيسة الملكية الارثوذكسية في الشام وفلسطين ومصر، وجزءًا آخر لدرس حالة سائر الكنائس الشرقية غير الكاثوليكية، اي النساطرة ثم الارمن والسريان والاقباط . لكن ذلك يطول بنا كثيرًا ويخرجنا عن الموضوع المحصور الذي اتخذناه لهذا الكتاب . ومع ذلك نشير على من يريد درس معضلة الاتحاد فيما بين الملكيين الارثوذكس والكاثوليك بمطالعة كتاب حضرة الاب الياس اندراوس البولسي « لاجل الاتحاد » المطبوع في حريصا سنة ١٩٣٠

١ — فالتنافس الوطني بين دول الشرق والغرب ليس اليوم من شأنه ان يؤثر في العلاقات الدينية، اذ انه مدني محض وفي امور زمنية

٢ — ثم ان بُعد المسافات وخطر الاسفار وصعوبة المواصلات التي كان اجدادنا يشكون منها قد زالت الآن . ولا تزال وسائل الاتصال تزداد كل يوم عدداً وسرعةً وسهولةً

٣ — وسواء كان في الشرق ام في الغرب نرى الروح يسمو على المادّة في الكنيسة والامور ذات العلاقة بالدين . فالكلُّ يرمون الى حياةٍ دينية اكمل واكثر تجرداً عن الامور العرضية . وهذه الحياة في نظر جميع المسيحيين لا يمكن ان تقوم الّا بالتشبّه بالسيد المسيح في معيشة الفرد وفي العمل على نشر ملكوت الله في العالم . ففي هذا المضمار نرى جميع الكنائس متفقة على الاساسات التي هي : وحدانية الله، ووحدانية الوسيط يسوع المسيح الذي هو الراعي الواحد ايضاً، ووحدانية الكنيسة ووحدانية القطيع، ووحدانية الجنس البشري واحتياجاته وامانيه الجوهرية . والكل متفقون ايضاً على ان هذه الوحدانية الاخيرة ليس معناها تماثُل جميعِ الكنائس والشعوب وصوغها في قالب واحدٍ ظاهريّ، بل الوحدة الروحية بين المتعدّدين — افراداً وجماعاتٍ — الذين يحفظ كلٌّ منهم صفاته الخاصة وميزاته الفارقة . وهي الوحدة التي ارادها السيد المسيح ولا بدّ للكنيسة من ان تحقّقها [1]

٤ — والامور التي كنا نشكو منها في الروح الغربي، اي ضيق الفكر والجهل بالشرق وسوء الظنّ به، أخذت تتضاءل وتتغيّر بوضوحٍ، ولاسيما تحت تأثير الباباوات الاخيرين الذين ما برحوا يشدّدون في مطالبة الغربيين بدراسة الامور الشرقية على حقيقتها . فالمؤرخون واللاهوتيون والمفكّرون الافرنج يدرسون بعطفٍ واجتهادٍ كلَّ ما هو شرقي ولاسيما الاصول ويكشفون كلَّ يوم كنوزها . والرأي

(١) قال البابا بيوس الثاني عشر في الرسالة العامة الاولى التي اصدرها بتاريخ ٢٠ تشرين الاول سنة ١٩٣٩ : « ان كنيسة المسيح . . . لا تفكّر ولا يمكن ان تفكّر في ازالة تلك الصفات الفارقة او في الحطّ من شأنها، تلك الصفات التي تميّز كلَّ شعب عن سواه والتي يتمسّك بها كل شعب بغيرة وفخرٍ محافظاً عليها ومعتبرًا اياها كتراثٍ ثمين . ان الوحدة التي تقصدها الكنيسة انما هي الوحدة الفائقة الطبيعة في المحبة الشاملة التي يجب ان يشعر الناس بها في قلوبهم ويمارسوها في العمل . اما التوحيد الخارجي الذي لا يرمي الّا الى توحيد الشكل فهو سطحيٌّ ومُضعِف للقوى، ولا تريده الكنيسة اصلاً »

العام بينهم بعيد جداً عن المماحكات القديمة، التي انشأت الشقاق في القلوب قبل ان تنشئه في العقول . وقادة الرأي يفهمون اليوم الشرق ويسعون الى التوسع في فهمه

٥ — والسلطة العليا في الكنيسة الكاثوليكية قد انشأت لها تقليداً اصبح ثابتاً في مواصلة المساعي الاتحادية . واذا كان بعض اعوانها المحليين لا يفقهون دائماً الواجب في المعاملات ولا يسيرون على مقتضى الروح الذي تريده السلطة العليا، فهذه حالات شاذة لا بدّ من ان تزول ازاء الروح الجديد الذي يهبّ في الكنيسة الجامعة

٦ — ولا ننسَ ان تجاه المسيحيين عشرات الملايين من ذوي الديانات الاخرى . وقد كانوا في الماضي يحاربون بالسيف لنشر دينهم، اما الآن فصاروا يعتبرونه «قوةً روحيةً» ويعملون على تقديمه على هذه الصورة الى العالَم المشتاق الى الروح . فما من كنيسة مسيحية تستطيع البقاء جامدةً ازاء هذه الحالة . ولذا نراها كلها تُعِدّ المرسلينَ وتؤسس الرسالات للعمل على نشر ملكوت الله . ولكن كيف يمكن ان ينجح المسيحيون في مشروعاتهم هذه الرسولية وهم متعادون منقسمون بعضهم على بعضٍ، وقد قال لهم المعلّم الالهي : « بهذا يعرف الجميع انكم تلاميذي اذا كنتم تحبُّون بعضكم بعضاً » (يوحنا ١٣ : ٣٥) . وصلّى ايضاً على نيتهم قائلًا : « اني اسأل من اجل الذين يؤمنون بي عن كلامهم، ليكونوا باجمعهم واحداً كما انك انت ايها الاب فيَّ وانا فيك ليكونوا هم ايضاً واحداً فينا حتى يؤمن العالم انك انت ارسلتني » (يوحنا ١٧ : ٢٠ — ٢١)

٧ — بقيت الصعوبة اللاهوتية : الاختلاف في بعض العقائد

رأينا في التاريخ ان الكنيستين، اللتين عاشتا متحدتين على ايمانٍ واحد في العشرة القرون الاولى، قد اتحدتا من جديدٍ كلَّ مرة اجتمعتا وتباحثتا على نور المسيح في عقائد ايمانهما، ولاسيما في مجمع فلورنسا . فهل اصبح اليوم متعذراً ما كان امس ميسوراً ؟ ان اللاهوتيين البروتستان صاروا اليوم يجدون شبهاً عظيماً بين بعض عقائدهم الاصلية وما تعتقده الكنيستان الكاثوليكية والارثوذكسية؛ وصاروا يقولون بالرجوع الى بعض ما انكروه، لان الانكار كان مبنياً على عدم الفهم لمعنى بعض التعابير وبعض العبادات . وصار اللاهوتيون الارثوذكس يرون مثل هذا التشابه ايضاً بينهم وبين البروتستان في عدّة مسائل . فهل يبقى هذا الامر مستحيلًا

في علاقات الارثوذكس مع الكاثوليك فقط ؟ اذا حسُنت الارادة عند الفريقين، فهل يعسر عليهم التقارب ثم الاجتماع في الوحدة ؟

وفي الحقيقة، ليس الأمر من المسائل السهلة . فعلاوةً على ما كان قائماً من الخلاف في وجهات النظر اللاهوتية قبل المجمع الفلورنسي، قد استمرّ اللاهوتيون في الكنيستين يبحثون ويدققون ويتعمقون كلٌّ من جهته، سائرين كلٌّ واحدٍ في غير اتجاهِ صاحبه، حتى ان الناظر اليهما اليوم يرى لاولِ وهلةٍ ان شقّة الخلاف زادت، والتباُعدَ اصبح أبعدَ مدًى مما كان . واهمُّ هذا الخلاف الجديد يعود الى بعض قرارات المجمع التريدنتيني في القرن السادس عشر والمجمع الفاتيكاني في القرن التاسع عشر وبعض تحديداتٍ اخرى

هذه الحقائق يجب ان نجابهها بشجاعةٍ، فلا نُخفي عن انفسنا ما في ذلك من الصعوبة . ولكن يجب ان نكون مقتنعين ان هذه الصعوبة ليست مما لا يُغلَب . فيجب معالجتها بالهدوء اللازم والسعي الحقيقي الى التفاهم، عالمين ان التعاليم التي تبدو جديدة ما هي الا مستخرجة من التعاليم القديمة، كالنتيجة التي يستنتجها المَنطِقي من المقدمتين الكبرى والصغرى، او كالغصن الجديد الذي يتفرّع من جذع الشجرة . واذا كان بعض هذه التعاليم يحتاج الى زيادة تدقيق في تحديدها، او الى تكميل في التعبير عنها، او الى تبيينٍ أوفى لشروط تطبيقها، فلا تضنّ الكنيستان باجراء ذلك إمّا في مباحث اللاهوتيين واما في مجمع مسكوني . فالمجامع السبعة في العصور الاولى كمّل بعضها بعضاً، فلا مانع من ان يكمّل مجمع جديد اعمال المجامع الغابرة

***

ماذا علينا اذن ان نعمل ؟

ان الاتحاد سيكون في نهاية الامر عَمَلَ الرؤساء الكنائسيين . فهم الذين أوجدوا الانقسام، وهم الذين سيوجدون الوئام . ولكن عامّة الشعب المسيحي ليست بمعزل عن المسؤولية من هذا القبيل؛ بل في استطاعتها ان تؤثر على حلّ المعضلة . وقد احسن احد الوعّاظ[1] في ايجاز الواجبات المطلوبة من كل مسيحي بشأن العمل على اتحاد الكنائس . فلا نرى افضل من نقل كلامه كخاتمةٍ لهذا الكتاب . قال :

(١) هو حضرة الاب بولس الاشقر البولسي، من خطاب القاه بمذياع بيروت « راديو الشرق » يوم الاحد ٢١ كانون الثاني سنة ١٩٤٠ بفرصة « ثُمانيّة الاتحاد »

١

ان اول واجباتنا نحن المسيحيين هو البحث والتنقيب. لا مِراء ان من ضروريات كياننا الديني ان نعرف امور ديانتنا وان نفهمها بقدر الامكان . وبدون ذلك يصعب ان نكون مسيحيين كاملين . على ان هناك واجباً اخر يُطلَب خصوصاً من الطبقة المتنورة، وهو معرفة باقي الكنائس المسيحية، تلك التي كنا معها سابقاً كنيسة واحدة . فمن الضروري ان نعرف شيئاً عن تاريخها ونظاماتها واحوالها . أليس من المحبة ان يعرف الانسان اخوته ؟ فاذا عرفناهم فهمناهم اكثر، ووجدنا الى جانب بعض العوائد التي ربما نستهجنها لاول وهلة، ايماناً قد يفوق ايماننا، وتقوى قد تدهشنا، وصفات قد تحببهم الينا وتُعلي منزلتهم في نظرنا . وكما انني ملتزم بمعرفة اخي كذلك اخي ملتزم بمعرفتي. واذا شئنا ان نستزيد من تلك المعرفة يجب ان نخالطهم ويخالطونا ؛ ونمضي الى بلدهم ويأتوا الى بلدنا؛ ونرسل اليهم من نخبة رجالنا وشبابنا ويرسلوا الينا من نوابغ رجالهم وشبانهم؛ فيذهب هؤلاء واولئك الى الينبوع الصافي ويستقصون عن الحقائق . ومتى تمّ مثل هذا الامتزاج وازداد التعارف فهمنا حينئذٍ اننا جميعنا من اصل واحد، هو المسيح، ونستقي من ينبوع واحد، هو الانجيل؛ وادركنا اننا كنا مدة عصور طويلة اسرةً واحدة وعشنا حياة مشتركة؛ وعلمنا ايضاً ان بولس واثناسيوس وفم الذهب وامبروسيوس واوغسطينس هم اباء للجميع، ونحن من تعاليمهم نرتشف . ولو اردنا ان نطلع على حقيقة عواطفهم وافكارهم ونسترشد باقوالهم لجذبونا جميعنا بايدينا وصالحونا وارجعونا الى الوحدة التي كانت تتجلى بها الكنيسة في اعصرهم الذهبية

كانت الكنيسة واحدة . واليوم هي ممزَّقة ... ولماذا ؟ فلنبحث كلنا عن الجواب بنية سليمة ورغبة صادقة صالحة، على نور تعاليم المسيح، ولنستقصِ الحقائق حتى تتوضح الاسباب التي ابعدتنا بعضنا عن بعض . فعندئذ يهتز الحائط الفاصل بين الكنائس . عندئذ تنفتح فيه ثلمة بل تُثلَم وتتوسع . فيرى الاخوان اخوانهم ويتقاربون ببشاشة وسرور ويتصافحون ويتصالحون

ما كان اجملكِ ايتها الكنيسة لما كنتِ واحدة، وكان كل مسيحي يقول بحق، عن كل الكنائس : هذه كنيستي ! أجلْ اذا كانت نية المستطلعين والباحثين صافية مستقيمة لا يمكنهم الّا ان ينادوا بأعلى اصواتهم : يجب ان نرجع الى الوحدة !

٢

ولكن الدرس والاطلاع لا يكفيان لانهما من شأن المتنورين المتعلمين . واليكم بعض الوسائل الاخرى التي تعجّل الاتحاد وفي امكان الجميع استعمالها

الاولى ان نبدأ باصلاح نفوسنا . ان كنا نروم الاتحاد حقًّا، فلنقدّس نفوسنا ونزيّنها بالفضائل، كي نكون ونظهر مسيحيين كاملين؛ لنطبع في اذهاننا وقلوبنا تعليم السيد المسيح؛ وليكن سلوكنا مرآةً صافية تنعكس عنها نصائحه وانواره . فاذا عشنا كلنا هكذا تابعين الانجيل لم نعد نحتاج الى سماع كلام عن الاتحاد؛ والحواجز التي تفصل بيننا تقع من تلقاء نفسها . فمجمل القول هو ان نقائصنا وزلاتنا هي التي سببت وتسبب الخلاف وتزيدنا تباعداً وتنافراً . فلو كنّا مسيحيين حقيقيين لزال من بيننا الجفاء وزال النفور وزال الاحتقار، وساد التعاون والاحترام والاجلال بعضنا لبعض . فان الكبرياء والبغضاء وفقدان الثقة والاحكام الباطلة وما شاكلها، هذه كلها لا تتفق مع روح الدين المسيحي . فلنلاشها من عقولنا وقلوبنا؛ وغداً، نعم غداً، يسود الاتحاد . ولذا فلتسعَ كل كنيسة في تقديس اولادها بكل ما عندها من الوسائل، ولتتنافس جميعنا في الكمال الانجيلي . وهكذا تزداد محبة، والمحبة تجلب الاتحاد . ان كل كنيسة تروم ضم الجميع الى حظيرتها . غير ان الشعوب لا تجذبها الا رؤية كمال تعليم المسيح . ففي اليوم الذي فيه لا يستطيع اخواننا ان ينسبوا الينا ما طالما رشقونا به على ممر الزمان من الزلات، في اليوم الذي فيه يرون في حياتنا المسيحية النقية ما ينسيهم احقادهم علينا، ففي ذلك اليوم يتم التقارب

تلك هي الخطة التي سار عليها رجال الله . فانهم لم يباحثوا ولم يجادلوا كثيراً؛ بل بدأوا باصلاح نفوسهم واصلاح من كان حولهم من اكليريكيين ورهبان وشعب . فلاشوا بذلك كل شكوى عليهم واستمالوا الجميع اليهم . فلنتأمل جيداً في تلك الوسيلة لعلها هي أولى الوسائل واهمها للوصول الى اتحاد المسيحيين والكنائس

٣

ولدينا اخيراً وسيلة ثانية يجب ان يتفق الجميع على استعمالها، وهي الصلاة . اننا نعرف ان الاتحاد لا يتمّ الا متى شاء الله، وان الوسائل البشرية تمهّد له السبيل، لكنها لا تستطيع وحدها انجازه . وعليه فلنطلب الى الله ان يعجّل اليوم الذي

تتحقق فيه رغائب مخلص العالم . لنصلِّ من اجل كل الكنائس المنفصلة عنا، ولتصلِّ كل الكنائس المنفصلة عنا من اجلنا، ولنبتهل بعضنا من اجل بعض لكي يفيض الله نوره على الجميع . فلنصلِّ في كل فرصة، على انفراد وبالاشتراك مع الكنيسة المجتمعة كلها تصلي من اجل اتحاد الكل . ولتصعد من كل القلوب والشفاه صلاة واحدة متصلة وابتهال واحد من اجل الوحدة

للصلاة منفعة اولى هي انها، عندما تصدر من قلب نقي تحرّكه الثقة، تنزل على الذي يصلي وعلى الذين يصلي من اجلهم نعمة الله الغزيرة . ولها منفعة ثانية مهمّة وهي انها تحرّك في القلب الذي يتضرع شوقاً متزايداً الى الغرض الذي يطلبه في صلاته، ورغبةً شديدة في الحصول عليه . فيصبح الذي يصلي بحرارة بذات الفعل رسولاً للاتحاد وعاملاً نشيطاً في ميدانه

ونعلم ان من افواه الجميع تصعد الآن الصلوات الحارة، من البروتستان والشرقيين والرومانيين كلهم، تصعد بصوت واحد طالبة الى الله اتحاد الكنائس . تلك هي الخطوة الاولى في سبيل الاتحاد . ولا يُنكَر ان لا شيء يُفقَد في هذا الكون . فهل من الممكن ان تضيع وتفقد تلك الابتهالات الصاعدة من كل اقطار العالم الى رب الكون ومؤسس الكنيسة من اجل تلك الغاية الشريفة ؟ لا، لا يمكن ان تمضي في الفضاء وتذهب ادراج الرياح

٤

وكلمة الختام انه يجب ان يكون في كل الصدور ايمان ثابت لا يتزعزع بان الاتحاد واقع لا محالة، وباننا لا نرغب فيه ونتمناه كما نتمنى حلماً من الاحلام؛ بل يجب ان يرسخ هذا الايمان في عقولنا : ان الكنيسة ستتحد . أجلْ انه ليس من الامور المستحيلة، ولا على الله من امر عسير . فلسنا نروم اذن امراً مستحيلاً : لاننا نرى العقول والقلوب متجهة في طريق سوف تؤدي بنعمة الله الى وحدة العقيدة والعاطفة والعمل

فهذا ما يريده السيد المسيح . وان الروح القدس مدبّر الكنيسة ومحييها بنعمته هو يأتي ويكمّلها بالوحدة . فطوبى لكل من يعمل بجد وغيرة ويساعد عمل الله هذا ! وهنيئاً لمن يحيا ويرى الاتحاد تامًّا ناجزاً !

فهرس الكتاب

الفصل الاول

في حقيقة الانشقاق الذي حصل في عهد فوتيوس

رومة والقسطنطينية في القرن التاسع

صفحة

اهمية المسألة ١
الرأي السائد بين الكاثوليك ٢
نتيجة الابحاث الجديدة ٣
الاحزاب السياسية والكرسي البطريركي ٣
موت البطريرك اغناطيوس ٥
بطريركية فوتيوس الثانية ومجمع سنة ٨٧٩–٨٨٠ ٥
الادلة على صحة النسخة اليونانية لاعمال مجمع فوتيوس ٦
المجمع الثامن (٨٦٩–٨٧٠) ليس مسكونيًا ٧
نتيجة البحث ٨
لما تنصَّرت روسيا كان الشرق والغرب متحدين ٩

الفصل الثاني

في البطريرك ميخائيل كيرولاريوس (١٠٤٢–١٠٥٩)
والانشقاق الذي حصل في عهده

اهمية المسألة ١١

حالة النصرانية في ذلك الزمان :

١ً مملكة الروم الشرقية ١١
٢ً الحالة في الغرب ١٣

صفحة

٣ً الحالة في سائر البلاد ١٤
علاقة الكنيستين في ذلك العهد ١٥
البطريرك ميخائيل كيرولاريوس ١٦
المندوبون الرومانيون ١٨
الحرم المتبادل ١٨
مسلك المندوبين الرومانيين ٢٠
مسؤولية ميخائيل كيرولاريوس ٢٣

الفصل الثالث

في العلاقات بين رومة والقسطنطينية
في المدة التالية لانشقاق كيرولاريوس الى مجمع ليون (١٠٥٤—١٢٧٤)

١ً في ما ترتب من النتائج مباشرةً على عمل كيرولاريوس ٢٥
٢ً استغاثة الشرق بالغرب ٢٧
٣ً الحروب الصليبية ٢٨
٤ً احتلال اللاتين القسطنطينية (١٢٠٤—١٢٦١) ٣١

الفصل الرابع

في مجمع ليون سنة ١٢٧٤

١ً في الحوادث التي هيأت مجمع ليون ٣٥
٢ً البابا غريغوريوس العاشر (١٢٧١—١٢٧٦) ٣٦
٣ً مجمع ليون المسكوني سنة ١٢٧٤ ٣٨
٤ً بعد مجمع ليون ٣٩
٥ً حرم الملك ميخائيل الثامن پاليولوغس ٤٠
٦ً انتصار المعارضين في الاتحاد ٤١

الفصل الخامس

في العلاقات بين رومة والقسطنطينية في المدة التالية لمجمع ليون، من سنة ١٣٠٤ الى مجمع فلورنسا سنة ١٤٣٩

صفحة

١ً استمرار تهديد الغرب للروم بغزو القسطنطينية ٤٣
٢ً الراهب برلام ومساعي الاتحاد ٤٤
٣ً الاتحاد في زمن الملك يوحنا الخامس (١٣٤١ – ١٣٩١) ٤٤
٤ً مجمع قسطنسة (١٤١٤–١٤١٨) ٤٧
٥ً بعض حوادث اخرى ذات علاقة بالاتحاد ٤٩

الفصل السادس

في المجمع الفلورنسي واعلان الاتحاد

١ً الرغبة في عقد مجمع كبير للاصلاح . بدء انعقاده في بال سنة ١٤٣١ ٥٠
٢ً المفاوضات مع القسطنطينية ٥٠
٣ً نقل المجمع من بال الى فرّارا سنة ١٤٣٨ ٥٢
٤ً المسائل المختلفة التي عرضت حينئذٍ ٥٣
٥ً نقل المجمع الى فلورنسا سنة ١٤٣٩ ٥٥
٦ً صكّ الاتحاد . كيفية وضعه واعلانه ٥٦
٧ً بعض اعمال ملحقة بصكّ الاتحاد ٦٠
٨ً في سلطة المجمع الفلورنسي ٦٢

الفصل السابع

استمرار مجمع فلورنسا بعد سنة ١٤٣٩ الى سنة ١٤٤٥

الارمن ٦٥
الاقباط والاحباش ٦٦

صفحة

المانيون البشناق ٦٦
سريان ما بين النهرين ٦٧
نساطرة قبرص وغيرهم ٦٧
وفاة البابا الجانيوس الرابع ٦٨

الفصل الثامن

اتحاد فلورنسا وكنيسة القسطنطينية

كيف قوبل صك الاتحاد في كنيسة القسطنطينية ٦٩
قسطنطين الحادي عشر ذراغاسيس والاتحاد ٧١
سقوط القسطنطينية في يد الاتراك سنة ١٤٥٣ . — الاتراك واوربا ٧٢
كنيسة القسطنطينية تحت الحكم العثماني ٧٣
العلاقات مع رومة الى اواخر القرن الثامن عشر ٧٥
في القرن التاسع عشر ٧٨
في القرن العشرين ٨٠
كنيسة اليونان الكاثوليك ٨٢

الفصل التاسع

اتحاد فلورنسا والكنائس التي كانت تابعةً للبطريركية القسطنطينية

الاتحاد في روسيا ٨٣
الكنيسة الروثانية في شرق اوربا ٨٦
الاتحاد في الكنيسة الصربية ٨٨
الاتحاد في كنيسة رومانيا ٨٩
الاتحاد في الكنيسة البلغارية ٩٠
الاتحاد في ايطاليا الجنوبية ٩١
الاتحاد في كنيسة الكرج ٩٢
الاتحاد في كنيسة البانيا ٩٤

الفصل العاشر

الاتحاد والكنائس الملكية (الاسكندرية وانطاكية واورشليم)

١

صفحة

موقف البطريركيات الملكية في معضلة فوتيوس ٩٥

٢

موقف البطريركيات الملكية في انشقاق كيرولاريوس ١٠٠

٣

في اثناء الحروب الصليبية ١٠٣

٤

موقف البطريركيات الملكية تجاه اتحاد ليون ١٠٧

٥

البطريركيات الملكية ومجمع الاتحاد الفلورنسي

اعلان الاتحاد في الشرق ثم رفضه ١١٠

عدم استقرار الحالة ١١٠

رأي المسلمين في الروم الملكيين ١١٢

٦

البطريركيات الملكية تحت الحكم العثماني ١١٣

٧

الروم الكاثوليك والروم الارثوذكس في البطريركيات الملكية

مهمة الاب ليوناردو هابيل وما بعدها الى سنة ١٦٤٧ ١١٥

مكاريوس الثالث وخلفاؤه الى سنة ١٧٢٤ ١١٧

الانقسام سنة ١٧٢٤ ١٢٠

بطاركة الروم الكاثوليك من ١٧٢٤ حتى الآن ١٢٢

الحالة الحاضرة ١٢٢

الفصل الحادي عشر

في الاسباب التي جعلت الاتحاد المعقود في مجمع فلورنسا لا ينجح إلّا نجاحاً ضئيلاً

صفحة

١ً حالة الغرب المسيحي ١٢٥
٢ً حالة الكرسي الرسولي ١٢٦
٣ً المعارضة الشعبية العنيفة للاتحاد في الشرق ١٢٨
٤ً ضعف الدفاع عن نظرية الاتحاد ١٢٩
٥ً سياسة الاغراض الخاصّة ١٣٠
٦ً الحالة السياسية العامة ١٣١
٧ً سياسة الدولة الروسية ١٣٣
٨ً المسؤوليات الكاثوليكية ١٣٤

الفصل الثاني عشر

في معالجة معضلة الاتحاد

هل توجد هذه المعضلة ؟ ١٣٦
عناصر المعضلة وكيفية بحثها ١٣٧
ما طرأ من التغيير على الحالة الدينية والمدنية في الكنائس المسيحية
١ً كنيسة رومة ١٣٨
٢ً الكنائس الشرقية ١٤١
في ما يدعو الى الاتحاد ١٤٥
ماذا علينا ان نعمل ١٤٨

TABLE DES MATIÈRES

Pages

INTRODUCTION e-h

CHAPITRE I. La vérité sur le Schisme de Photios.

Conclusions des recherches historiques récentes 1-10

CHAPITRE II. Le Patriarche Michel Cérulaire (1042-1059) et son Schisme.

Situation de la Chrétienté au XIe siècle. — Relations entre les deux Églises. — Le Patriarche Michel Cérulaire. Les légats romains. Excommunication réciproque. 11-24

CHAPITRE III. Rome et Constantinople, depuis le Schisme de Cérulaire jusqu'au Concile de Lyon (1054-1274).

Effet immédiats. -- Les Croisades. — L'Empire Latin de Constantinople. — Tentatives d'Union : 1220, 1232, 1249, 1253, etc. 25-34

CHAPITRE IV. Le Concile de Lyon (1274).

Événements préparatoires. — Le Concile. — Après le Concile. — Excommunication de Michel VIII. — Triomphe de l'opposition anti-unioniste 35-42

CHAPITRE V. Rome et Constantinople, dans la période entre le Concile de Lyon et celui de Florence.

Situation. — Événements 43-49

CHAPITRE VI. Le Concile de Florence. L'Union.

Bâle, 1431. — Ferrare, 1438. — Florence, 1439. — Décret d'Union. — Autorité du Concile de Florence 50-64

CHAPITRE VII. Continuation du Concile de Florence jusqu'à 1445.

Union des Arméniens ; des Coptes et des Abyssins ; des Syriens, etc. — Mort d'Eugène IV 65-68

CHAPITRE VIII. L'Union de Florence et l'Église de Constantinople.

Le Décret de Florence à Constantinople. — Constantin XI Dragasès. — Chûte de Constantinople, 1453. — L'Église sous la domination ottomane. — Relations avec Rome, jusqu'à la fin du XIXe siècle. — Au XXe siècle. — Le « mouvement œcuménique ». — L'Église Grecque Catholique 69-82

CHAPITRE IX. L'Union de Florence et les Églises Byzantines.

L'Union en Russie et en Ukraine ; en Serbie ; en Roumanie ; en Bulgarie ; en Italie Méridionale ; en Géorgie ; en Albanie 83-94

CHAPITRE X. L'Union et les Patriarcats Melkites.

I. Les Patriarcats Melkites et l'Affaire Photienne, — II. et le schisme de Michel Cérulaire, — III. et les Croisades, — IV. et l'Union de Lyon, — V. et l'Union de Florence, — VI. sous la domination ottomane, — VII. et VIII. Grecs Catholiques et Grecs Orthodoxes dans les Patriarcats Melkites, jusqu'à 1724. — IX. Dédoublement de la Hiérarchie depuis 1724 jusqu'à nos jours. — X. Etat actuel de l'Église Grecque Melkite Catholique 95-123

CHAPITRE XI. Du peu d'efficacité du Concile de Florence.

Aperçu général. Causes humaines : 1. Etat de l'Occident Chrétien ; — 2. Etat du Saint Siège ; — 3. Opposition anti-unioniste en Orient ; — 4. Faiblesse de la défense des Unionistes ; — 5. Politique intéressée ; — 6. Situation politique générale ; — 7. Politique de l'Empire Russe ; — 8. Responsabilités catholiques 124-135

CHAPITRE XII. Pastorale de l'Union.

Existence d'un Problème de l'Union. — Eléments. — Changements survenus dans la situation religieuse et civile des Églises. — Motifs de la Réunion. — Notre devoir. 136

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

PUBLICATIONS DE LA REVUE « AL-MAÇARRAT »
ORGANE DU PATRIARCAT GREC MELKITE CATHOLIQUE

A l'occasion du Ve Centenaire
du Concile de Florence
1439-1939

LE PROBLÈME DE L'UNION

DES ÉGLISES D'ORIENT ET D'OCCIDENT

ESSAI HISTORIQUE ET PASTORAL

PAR
LES MISSIONNAIRES DE St PAUL

1939

IMP. DE ST. PAUL - HARISSA (LIBAN)

عبد الحفيظ عطايا

DATE DUE

JAPET LIB.
DEC 2009
Circulation Dept. 4

CA [redacted]
المرسلون اليولسيون
الاجتهاد في سبيل الاتحاد
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01000986

American University of Beirut

CA
270.3
[redacted]

General Library

CA
270.3
I259i A
C.1